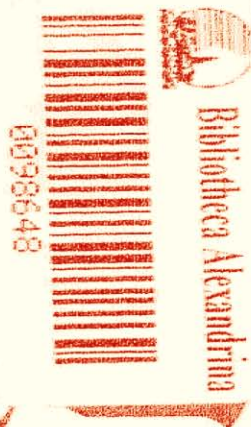


دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٦

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

خزوة
رامازوف





الأعمال الأدبية الكاملة
المجلد السادس عشر

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الإخوة كارامازوف
١

جميع الحقوق محفوظة

تقديم

لم يبارح المرض دوستوفسكى ، فنوبات الصرع ما تنفك تزداد ، وقد اُضيف اليها احتقان الرئتين وعسر التنفس مع تقدمه فى السن - على أن الفترة التى تمتد من سنة ١٨٧١ الى يوم وفاته سنة ١٨٨١ ، يمكن أن تعد سعيدة اذا قيسست بالفترات التى سبقتها ، وهى على كل حال خصبة الى أقصى حدود الخصوبة - هى سعيدة من الظاهر : ففيها تعاطف مجد دوستوفسكى حتى انتخب عضوا فى الاكاديمية سنة ١٨٧٧ ، وحتى ألقى خطابه عن بوشكين سنة ١٨٨٠ ، فأصبح الناس يؤلهونه تأليها ، وأصبح يعترف له بأنه «الكاتب العبرى لروسيا كلها» ، تعترف له بذلك السلطات رغم جراته واستقلاله ، وتعترف له به الشبيبة اللبرالية رغم «الجن» و«دغم المقالات» «الرجعية» التى تضمها «يوميات كاتب» - والى جانب المجد هناك سعة الرزق ، فلئن كان ما يزال يتقاضى من الناشرين سلفا على انتاجه ، فانه يملك الآن منزلا صغيرا فى سترايا روسا ، وان حقوقه فى الملزمة الواحدة من كتاباته تبلغ ثلاثمائة روبل ، وان كتبه يعاد طبعها مرة بعد مرة ، فهو الآن لا يكتب والسكين على عنقه ان صح التعبير - وأكثر من هذا كله أنه ينعم بحياة عائلية رضية بهيجة : ان آنا جريجوريفنا امرأة مثال ، كزوجة ومديرة أعمال وسكرتيرة ، ودوستوفسكى يحبها ويحب أولاده ، فاذا قرأت رسائله اليها حين كان يضطر الى الغياب عن بيته ، رأيت هذه الرسائل تفيض رقة وعطفا وحنانا - والنازلة الوحيدة التى ألمت به فى هذه السنين انما هى موت ابنه ألكسى عام ١٨٧٨ من نوبات الصرع الموروثة عن الأب - وحياته سعيدة فى الباطن أيضا ، او هى هادئة نوعا من الهدوء فى أقل تقدير : لقد تخلص دوستوفسكى بجهد الارادة من داء القمار ، وسكن وجدانه بعض السكون فليس يعيث فيه ما كان يعيث فيه من تمزق - صحيح ان القلق ما يزال يهز روحه ولكنه ليس قلق الحياة اليومية ، بل قلق المشكلات الفلسفية والمسائل الانسانية التى أوحث اليه بأهميات آثاره - ففي تلك الفترة انما كتب دوستوفسكى رواياته الثلاث : «الجن» ، و «المراهق» و «الاخوة كارامازوف» -

ان هذه الروايات الثلاث أفكار تحيا في أشخاص .

ان دوستويفسكى لا يعرض مذهبا فلسفيا جامدا يدعو اليه ويتعصب له . ان تعدد الاشخاص الذين يصورهم دوستويفسكى يتيح عرض تلك الأفكار في مختلف جوانبها ويتيح إبرازها بزيد من الوضوح في تعارضها ، ويتيح اظهار الفروق الدقيقة بينها وتقليب الراى فيها على شتى وجوهها ، فلا يضع القارئ امام حلول حاسمة أو قناعات قاطعة . ومن هنا يعنى اختلاف الاجتهاد في تحديد موقف دوستويفسكى ، وتفاوت الراى فى تعيين اتجاهه وتعارض التفسير فى تعريف الحل الذى ينتهى اليه . فمن قائل : ان دوستويفسكى قد صار الى المحافظة ، ومن قائل : بل انه عاد يتعاطف مع الثوريين ، ومن زاعم انه قد مضى الى أقصى التطرف القومى الروسى ، ومن زاعم انه ، على عكس ذلك ، قد فتنته أوروبا فتتكر لروسيا ، ومن مدع انه قد ارتد الى أشد التعصب المسيحى الاورثوذكسى ، ومن مدع انه على خلاف ذلك ما يزال يساوره الشك ، وينازعه الالحاد .

والواقع أن دوستويفسكى قد وصل من جهته الى حلول ، ولكن هذه الحلول مركبة لا بسيطة ، معقدة غير سهلة ، فان طبيعته كإنسان ، ووظيفته كروائى قد أملت عليه مجتمعتين أن يعرض لمناقشة المشكلات أكثر من أن يخلص الى حلها . فما هى تلك المشكلات التى يثيرها دوستويفسكى ، أو تثور فى نفس دوستويفسكى ؟

فى قمة هذه المشكلات تقع المشكلة الميتافيزيقية : « كيف يتفق مع وجود الله ، الرحيم القادر ، وجود الشر ؟ » . لقد كتب دوستويفسكى الى زوجته سنة ١٨٧٥ يقول ان سفر أيوب يمرضه : « اننى أقرأ فى هذا السفر ثم ادعه ، وأخذ أسير فى الغرفة وأنا أكاد أبكى .. ان هذا السفر ، يا آتيا ، فذ ، ولكنه واحد من الأسفار التى أثارت دهشتى منذ أن كنت طفلا صغيرا .. » . وأن الشر الاخلاقى ، ان ارادة الشر لدى الانسان ، هى التى عذبتة خاصة . لقد فهم دوستويفسكى أكثر من أى إنسان آخر قوة الاتحاد الغربى الحديث الذى لا يجحد الله فحسب ، بل يجحد الخليفة أيضا ، ويكفر بعملة وجود العالم والحياة . لذلك نرى دوستويفسكى ، حين يتناول النقاد الليبراليون كتابه « الاخوة كارامازوف » ، فيقولون عن ايمانه بالله انه « رجعة » ، نرى دوستويفسكى يثور عندئذ ويهتف مستاء : « لا ، اننى لم أومن بالله ولم اعترف به كما يفعل طفل ، والما أنا وصلت الى

هذا الايمان صاعدا من الشك والالحاد بمشقة كبيرة وعذاب اليم • ليس
ايمان دوستويفسكى ايمان العجائز •

والمشكلة الثانية هى مشكلة الانسان : الانسان سر • ان للانسان
طبيعته السوية : « ان جميع البشر ، حتى الأوغاد منهم ، هم فى أكثر
الحالات ، أسدج وأبسط مما نتصور حين ننظر الى أفعالهم ••• » • ولكن
هذه الطبيعة يمكن أن تنفتح لقوى لا سبيل الى مغالبتها ، تأتي من أسفل
أو تهبط من أعلى • فالشر يتشبث بالانسان ويلتهمه التهاما « كحشرة » ،
« كعنكبوت » كرية ، « كرتبلاء » قاتلة اللدغ • ولهذا الشر صور شتى
مختلفة : هو الشهوانية ، والأنانية ، والبخل ، والرغبة فى السيطرة ،
والحاجة الى تعذيب الآخرين والى تعذيب النفس أيضا ، ولو « لجرد القيام
بدور غير متوقع » • ولكن هذه الاندفاعات التى تأتي من غياهب « القبو »
تقابلها نداءات سماوية هى التفانى ، والندامة ، والتوبة ، والحب ، وأحلام
ملهمة ، وبصيرة نافذة ، ووجد ونشوة • « ان الانسان واسع ، واسع سعة
رهبية » • هو فى حجم الكون بأسره • روحه ميدان قتال « يصطرح فيه الاله
والشيطان » • ذلكم هو الاعتقاد الذى انتهى اليه دوستويفسكى بعد تجربة
السجن وخبرة الحياة ، غائضا فى قرارة النفس ، نفس الآخرين ، ونفسه
هو •••

وهنا تطرح مشكلة العلاقات بين هؤلاء البشر بعضهم وبعض ، ومشكلة
العلاقات بينهم وبين الله • ما قيمة المجتمع ؟ ان المجتمع يقوم على العدالة •
ولكن دوستويفسكى قد بلا عدالة البشر فى ذات نفسه ، وخبر نتائجها
فيما حوله • لقد درس دوستويفسكى أساليب القضاء ، وشهد محاكمات ،
وتحدث مع قضاة ، وتساءل عن العدالة قلقا ، فأنتهى الى أن العدالة لا سلطان
لها على الانسان • هى تفصل المجرم عن المجتمع ، وتلقى فى نفسه اليأس ،
ولكنها لا تشفيه • انها خلو من الروح الانسانية • ولا قيمة الا للنفس ،
والدين وحده يقيم للنفس وزنا ، الدين وحده يحسب حساب النفس •
ليت الدولة تستطيع أن تصبح مسيحية ، ليتها تستطيع أن تصهر فى
الكنيسة ، ليت المجتمع الذى يشبه أن يكون الآن وثنيا يستحيل الى
كنيسة ، الى كنيسة واحدة ، عامة ، شاملة ، مسيطرة ••• ولكن الكنيسة
فى الغرب ، فى أوروبا ، قد انتزعت من الانسان حريته لتحقيق سعادته ،
كما ان الاشتراكية تريد أن تقوم على أنقاض الدين ، تريد أن تكون ملحدة
لتحقق للانسان رخاءه ورفاهيته • ان النظم الاجتماعية التى تتصارع فى

أذهان الناس تشتمل كلها على مضيعة للانسان : تستوى في ذلك
الراسمالية البورجوازية ، والاشتراكية المادية الالحادية . أفلا يمكن أن
يتحقق نظام تتعاقب فيه الاشتراكية والمسيحية ؟ ان الابطال الحقيقيين في
نظر دوستوفسكى هم أولئك الذين « يؤمنون بالله والمسيحية ، ولكنهم
في الوقت نفسه اشتراكيون » ، ولعل روسيا مهيأة لان تجيء بحل ، لان
الشعب الروسى لا يزال مؤمنا بالله ، كما أن الكنيسة الارثوذكسية لم
تخضع لاغراء السلطة والحكم . تلك كانت آمنيات دوستوفسكى
ونبوءاته . أكان رجسبا في تفكيره ؟ أكان أعمى فيما تنبأ به ؟ ربما ! ولكن
دوستوفسكى كان اشتراكيا على طريقته ، ويظل حقا أن المشكلات التى
عذبتة لم تكن عبثا ، وربما ظل الانسان يطرحها أبدا الدهر .

مهما يكن من أمر ، فتلك هى الآراء التى أراد دوستوفسكى أن يعبر
عنها ، فإخذ يبحث لها عن اطار روائى . وسرعان ما وافاه ذلك الاطار
الروائى : أسرة يمثل أبناؤها الاتجاهات المختلفة التى يمكن أن تتجهها
الشعبية فى المجتمع الروسى . تلك هى أسرة كارامازوف .
ان أبناء هذه الأسرة ، « الاخوة كارامازوف » ، يحملون عيوباً وراثية ،
ولكن إمكانيات جديدة تنضم الى تلك العيوب الوراثية . فاما أحدهم فهو
شاب مثقف متحفظ ، فى نفسه بنور أخلاقية (انه تأثر على وجود الشر) ،
ولكن نزعتة العقلية هى قوة دمار وفناء : « اذا لم يوجد الله ، فكل شيء
مباح » ، « أنا لم أستطع أن أفهم يوما كيف يمكن أن يحب الانسان قريبه » .
ذلكم هو ايفان الذى سيجن . وأما الثانى فهو رجل متدفق الحيوية ثرثار
ماجن ، ولكنه كريم طيب القلب ، ليس بذى ادعاء فكرى ، نفسه منفتحة
للعواطف الخيرة وللتطهر بالالم ، ولكن ذلك لا يوقيه من الانكسار
والانحدار . ذلكم هو دمترى الذى سيتهم بقتل أبيه ظلما . وأما الثالث
فهو فتى سليم الفطرة بسيط الفكر طاهر القلب ، يسير فى الطريق القويم ،
وينذر حياته لحب البشر وخدمة الناس والولاء للكنيسة . انه ، فى نظر
دوستوفسكى ، الحياة والمستقبل . ذلكم هو أليوشا ، أصغر الاخوة
كارامازوف .

قال أحد النقاد : « يبدو أن دوستوفسكى قد أراد أن يعبر فى الاخوة
الثلاثة عن الجوانب الثلاثة لشخصه ، وعن المراحل الثلاث لحياته : فاما
دمترى الشيلرى فهو بصور المرحلة الرومانسية التى انتهت بدخوله

السجن ، واما ايفان فهو يمثل السنين التي أوشك فيها أن يستعيز عن
الايمان الدينى بالاشتراكية الملحدة ، واما اليوشا فهو خاتمة المطاف ، هو
العودة الى الشعب الروسى والى الارثوذكسية .

مهما يكن من أمر ، فان دوستويفسكى قد اعطانا فى « الاخوة
كارامازوف » خلاصة أدبه وفكره . وفى هذه الرواية نجد التعارض الذى
رأيناه فى رواية « المراهق » بين الاب والابن ، ونجد الصراع الذى رأيناه
فى « الجن » بين الالحاد والقداسة ، ونجد هيكلا ما رأيناه فى رواية
« الأهل » من شخوص ومن تنافس بين غريمين : لقد كان اسم اليوشا فى
مسودة « الاخوة كارامازوف » هو « الأهل » ، وجروشنكا فى « الاخوة
كارامازوف » تذكر بآناستازيا بطلة « الأهل » ، وايفان يذكر براسكولينكوف
« الجريمة والعقاب » . وسمردياكوف يذكر بشخصية فوما فومتش فى
« قرية ستيبانتشيكولو » . والمشكلة التى تطرح فى حلم « المفتش الكبير »
قائمة بلورها فى قصة « الجارة » التى كتبها دوستويفسكى فى شبابه .
ان « الاخوة كارامازوف » هى عالم دوستويفسكى كله مصغرا . ولكن
صورة هذا العالم الآن تملك من الشفافية والوضوح وقوة البناء الفنى
وتملك حتى من جمال الاسلوب ، ما لم يصل اليه دوستويفسكى فى أى اثر
من آثاره قبل ذلك . أما الاغوار التى هبط اليها فهى الاغوار نفسها ،
وما أعماها !

ولقد شعر دوستويفسكى بسعادة كبيرة حين فرغ من « الاخوة
كارامازوف » ، وقد كتب يقول عندئذ : « أريد أن أحيأ وأن أكتب عشرين
سنة أخرى » . كان ذلك فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٨٠ ، ومات
دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ .

« الأخوة كارامازوف » (BRATIA KARAMAZOVY)
نشرت هذه الرواية فصولا في مجلة « الرسول الروسى »
سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨٠ ، ثم صدرت أولى طبعاتها
المستقلة سنة ١٨٨٠

الإخوة كارامازوف

١٨٨٠ - ١٨٧٩

إهداء

إلى أناس جدد يحور بيننا دورنا ونفسنا

« الحق الحق أقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة في
الأرض وتمت فهي تبقى وحدها » ولكن ان هانت تأتي
بثمر كثير » (*)

(انجيل يوحنا ، الاصحاح الثاني عشر ، ٢٤)

إلى القارئ



أشرع فى قص حياة بطلى ، ألكسى فيدوروفتش
كارامازوف ، أشعر بشيء من الارتباك ، وهو
ارتباك له ما يبرره له : اننى أسمى ألكسى
فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق
المعرفة أنه رجل عادى لا يمتاز بشيء ، وليس فيه من العظمة كثير ولا
قليل ، لذلك أتوقع أن تعجب الأسئلة التى لا بد أن تطرح على ، من هذا
القبيل : « ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى
اتخذته بطلا ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت ،
وأين ؟ ولماذا يجب على أنا القارئ أن أضيع وقتى فى قراءة ما حفلت
به حياته من أحداث وحركات ؟ » •

وهذا السؤال الأخير هو الذى يُربكنى أكثر من سائر الأسئلة ،
هو الذى يقلقنى أكثر من سائر الأسئلة ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه
بغير قولى « اقرأوا الرواية ، فلربما تفهمون » • وما عسى أن يكون موقفى
إذا قرأ القارئ الرواية ، فلم يوافقنى على رأيى ، ولم يشأ أن يسلم
بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى أن
أساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر
سيكون كذلك • فهذا الرجل يبدو لى فذاً ، ولكننى أشك أقوى الشك
فى أن أصل الى اقناع القارئ بذلك • بل اننى لأراه بطلاً فعلاً ،

بمعنى من المعانى ، رغم أن فعله يظل غامضاً ، يصعب تحديده . وهل فى وسع المرء ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحاً مفهوماً فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه ؟ على أن هناك أمراً يبدو ثابتاً ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغربة والشنوؤ تسيلان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى عصر يجهد فيه الناس أن يوحّدوا ما اختلف ، وأن يسدّدوا ما نشز ، التماساً لشيء من الوضوح والفهم فى هذه الفوضى العامة الشاملة . والشنوؤ ، فى أغلب الأحيان ، سليل الى التميز ، والتفرد . أليس كذلك ؟

مهما يكن من أمر ! اذا كنتم لا توافقون على هذا الرأى الأخير كل الموافقة ، واذا كنتم تجميعون بأن « الأمر ليس كذلك » ، أو بأنه « ليس كذلك دائماً » ، فقد يردُّ الى هذا شيئاً من الثقة ببطل الكسى فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتماً - ليس دائماً - ذلك الذى يعتمد عن القاعدة ؛ حتى لقد يتفق ، خلافاً لهذا ، أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن القاعدة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة ...

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه التعليقات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأساً بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتى برضى القارىء ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر أننى أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنًا من الأولى ، لأننى أقص فيها أعمال بطل فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاماً ، وليست فى

حقيقة الأمر رواية ، وانما هي فصل بسيط يصور حياة بطلى فى صدر شبابه • وكان يستحيل علىّ أن أعدل عن هذه القصة الأولى ، ولو فعلت ، لاستحال فهم الأمور فى الرواية الثانية • وهذا ما يفاقم حيرتى الأولى كثيراً : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من الغموض والابهام ، فكيف أستطيع أن أتقدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعاء المريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للإجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولاً حاسماً عن محاولة أى تحليل • وواضح أن القارىء الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك دفعةً واحدة ما أهدف اليه من وراء ذلك ، وفهم أننى لم أزد على أن التمسث لنفسى العذر عن ذلك العدول ، ولا أشك فى أن تضييعى الوقت الثمين فى كلام لا طائل تحته قد أحققه • ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة مائل فى ذهنى • لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك لحظات ثمينة ، لسبيين اثنين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر • « وبهذا ألفت نظر القارىء الى ضرورة الحذر ، فى أقل تقدير » • ثم اننى لا يسوءنى كثيراً أن روايتى تنقسم قسمين ، مع الاحتفاظ بما فى « مجموعها من وحدة أساسية » • ان القارىء يستطيع ، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغى له أن يُحمّل نفسه عناء قراءة الثانية • وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل ان فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبداً • على أن هنالك قراءً أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، مهما يكلفهم هذا

من عناء ، وذلك من أجل أن يستطيعوا الخلوص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل • وهذا هو شأن انتقاد الروم عامة ، على وجه التخصيص • واليهم انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من قوة الوجدان ومن الحرص على الدقة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول •

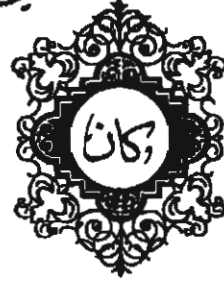
هذه اذن مقدمتى • وانى لأعترف بأنها زائدة لا محلّ لها • ولكننى كتبها ، ومن أجل ذلك أحفظ بها • لا بأس • ولنتقل الآن الى الموضوع •

الجزء الأول

الباب الأول: قصة السيدة الصغيرة طيبة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف



ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث
للملك الأتيان فيدور بافلوفتش كارامازوف* الذي
اشتهر جداً في مقاطعتنا ، وأحدثت نهايته
الفاجعة التي ظلت بلا تفسير ووقعت منذ
ثلاثة عشر عاماً على وجه الدقة* ، ضجة كبيرة في الماضي (وما يزال الناس
يتحدثون عنها الى يومنا هذا) سأروى قصة نهايته تلك متى آن
الأوان ، وسأقتصر مؤقتاً على الإشارة الى أن هذا « البومبستشيك » (كما
كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكذب يعيش أبداً في أراضيه) كان انساناً
عجيباً . انه ينتمى الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين - وهو نوع منتشر
انتشاراً كافياً والحق يقال - الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة
وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون
حق المعرفة كيف يصرفون أعمالهم المادية الصغيرة وليس فيهم من قلة
العقل الا المظهر . من ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر
ان صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ،
يأكل تارة عند هذا وتارة عند ذاك ، ويحيا حياة انسان طفيلي تماما ؛
ولكن وجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عدداً
وقدماً . هذا لا ينفي أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذاً

وغرابة • أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطني ان صح التعبير •

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وأنجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان والكسى اللذين ولدا له من زواجه الثانى • كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الفنية العريقة فى نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا • فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق - ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى - أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياما أن تتزوج « طرْحاً » نافهاً هذه التفاهة (كذلك يلقبه جميع الناس) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تحليله وتفسيره • لقد أتبع لى أن أعرف على كل حال فتاة - هى من الجيل القديم الرومانسى - ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء التى تحول بينها وبين تحقيق سعادتها ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطئ وعبر يشبه أن يكون جُرْفاً ، واذا هى تقضى نجبها على هذه الصورة ضحيةً لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطللة شكسبير ؛ حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالاً وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطئ منبسطة عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا • هذه قصة واقعية صادقة ، وهنالك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد



فيكتور بافلوفتش كلرامازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

بأن الأعمال التي من هذا النوع كانت كثيرة في حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال . فلعل زواج آديلايد ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غربية وخيال جامع ؛ لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوى ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقرباتها . لعل خيالا طيما قد أفتنها ، ولو خلال لحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش ، رغم ما استقر في أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلي ، هو واحد من أشجع الرجال وأطرفهم في عصر التقدم هذا الذي يصارع أخطاء الماضي ، على حين أن الرجل لم يكن في حقيقة الأمر الا مهرجا شريرا حقيرا لا أكثر من ذلك . وقد أضيف الى هذا أمر يؤثر في النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلايد ايفانوفنا وفتنها عن نفسها . أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئا تهيؤا خاصا ، بحكم وضعه الاجتماعي ، لحل من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة في ذلك الوقت أن تعرض له فرصة نجاح في الحياة ، بأية وسيلة من الوسائل . فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائة ضخمة كانا يفرسانه أيما اغراء . وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أى شأن في هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيئة ومن جهة الخطيب ، رغم ما كانت تنعم به آديلايد ايفانوفنا من جمال لا يُجحد ولمل ذلك كان حالة فريدة في حياة فيدور بافلوفتش الذي ظل طوال حياته انسانا تلهب عواطف الحب عنده التهابا شديدا ، لأنه بطبيعته شهواني يمكن أن يكلف في طرفة عين أى امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجع . ومع ذلك كانت آديلايد ايفانوفنا المرأة الوحيدة التي لم تستر هواه ولا أضربت عواطفه .

ولم تلبث آديلايد ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأسا ، أنها

لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار . ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج في مثل هذه الظروف أن ظهرت . فرغم ان اسرة المرأة قد سارعت تدعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بآثنة الهاربة ، فان حياة الزوجين سرعان ما أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات . وقد قيل ان المرأة عرفت كيف تبرهن في هذا الطرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلها فيدور بافلوفتش الذي استطاع ، كما نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعة واحدة ، وهى ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كاد يقبض هذا المبلغ الضئيل حتى كانت الزوجة قد فقدت رأس مالها الى الأبد . أما القرية وأما المنزل الرخى الذى كانت تملكه فى المدينة ، وهما جزء من البائنة ، فقد ظل الرجل زمناً طويلاً يحاول بجميع الوسائل أن ينقلها الى ملكيته بسند قانونى ، وكان يمكن أن يظفر بذلك حتماً لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز ونفور بتوسلاته الوقحة التى لحياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التى لا تنقطع ، كان قد حصنها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأمًا وضجراً ورغبةً فى التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلايد ايفانوفنا قد تدخلت فى الأمر فى الوقت المناسب فوضعت حداً لهذه المكائد وحالت دون ذلك التهديد . وقد عُرِفَ من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر فى تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلايد ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحاد والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوةً مذهشة . وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمل مربياً ويعيش فى فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتاً الذى كان يومئذ فى السنة الثالثة من عمره . وسرعان

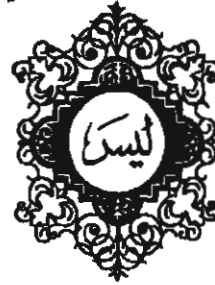
ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن في منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفي أثناء ذلك أخذ يطوف في أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلايد ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاة لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلاً من قصّها . وأغرب ما في الأمر أنه كان يجد نوعاً من اللذة في أن يمثل أمام الملأ هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذي خاتته زوجته ؛ وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التي ألت به مضيّفا إليها مزيّناً لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له في معرض السخر منه والتهكم عليه : « لكأنك يافيدور بافلوفتش قد نلت ترقية أو ظفرت بترقيع ، فأنت تبسّو مسرورا كل السرور رغم ألمك الشديد » . وزعم بعضهم أن فيدور بافلوفتش لم يسوّء أن تتج له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرج ، حتى لقد ألع هؤلاء الى أنه يتظاهر عامداً بأنه لا يلاحظ ما في وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلي مضحك . ومن يدري مع ذلك ؟ لعل جانباً من سداجة كان له شيء من تأثير أيضا ! وقد انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته الهاربة . لقد كانت المسكينة في بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحرراً لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج حتى دون أن يعرف هو نفسه الهدف الذي يسمى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر أكثر من أي وقت مضى بأن من حقه أن يسكر سكرأ قوياً بغية أن تشجع على القيام بهذه الرحلة .



ام اليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

وفيما كان يسكر هذا السكر علمت أسرة زوجته أن الشقية قد قضت
نحبها • لقد توفيت المرأة فجأة في غرفة حقيرة تحت السطح من أحد
النازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها
ماتت من البؤس والجوع اللذين هدماما تهديما • فلما تنهى هذا الخبر
الحزين الى مسامع فيدور بافلوفتش كان في حالة سكر شديد ، فأخذ
يركض في الشوارع زافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن
حررت عبدك يا رب ! » ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن في رواية أخرى
أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائي
أخذته به شفقة ، رغم ما يوقظه في النفس من اشمزاز وتقزز • وقد
تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال ، فلعل الرجل قد اغتبط
بما ظفر به من حرية ، ولكنه في الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التي
وهبت له هذه الحرية • ان في البشر - وحتى في أعنى المجرمين - من
السذاجة والطيبة فوق ما قد تتخيل • وهذا يصدق علينا نحن أيضا •

كيف تخلص من ابنك الأول



من الصعب طبعا أن تتخيل كيف يتصور مثل هذا الرجل واجباته أباً ومرياً • لقد تصرف من حيث هو أب ، التصرف الذي يجب أن تتوقعه منه : أى انه لم يعبا قط بالطفل الذى ولد له من آديلايد ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاماً ، لا لأنه يضرر للصغير كرها وعداوة ، ولا لأنه يحمل له حقداً وضغينة من حيث أنه زوج " خاتمه امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسي حتى وجود هذا الابن • وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه ، ويصدع رموسهم بنديه خطئه العائر ، مع اتخاذ منزلة مكانا للفسق والمهر والفجر فى الوقت نفسه ، فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا* الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمه اليه وعنى به ، فلولا أن هذا الجادم قد تولى أمر الصبي لما وُجد من يهتم به ، ولما تهاى له قميص يُستبدل بقميص • زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبي هى أيضا فى الآونة الأولى • كان جدُّ الصبي ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلايد ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ؛ وكانت أرملة ،

جدة الصبي، التي انتقلت الى موسكو، تمانى من آلام المرض ما لم يتبع لها
أن تدخل فى الأمر . أما أخوات آديلايد ايفانوفنا فكان قد تزوجن .
فكذلك لبث الصبي ميتا سنة كاملة مقيما مع الخادم جزيجورى فى كوخ
يسكنه فى آخر فناء المنزل . وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه فى
مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل أن له ابنا على كل حال)
لأسرع يطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبي عقبة فى طريق
عهره وفسقه وفجوره . ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلايد
ايفانوفنا ، واسمه بطرس الكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع فى ذلك
الأوان من باريس . ان بطرس هذا ، الذى سيعيش فى المستقبل سنين
طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا فى شرح الشباب ، وكان رجلا
من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد
نشأ وترعرع وتربى فى العواصم الكبرى ، وأحاطه اقاماته فى الخارج
رجلا غريباً ، فكان أوروبياً الى أن أصبح فى أواخر حياته لبرالياً على
طراز ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ؛ وكان على صلة بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم
تطرفاً فى زمانه ، سواء فى روسيا وفى خارج روسيا ، حتى لقد عرف
برودون وباكونين* معرفة شخصية . فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله
وترحاله كان يحلو له كثيراً أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام
الثلاثة الأولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ التى قامت فى باريس ،
وكان يحلو له كثيراً أن يفهم سامعيه فى هذه المناسبة أنه أوشك أن
يشارك فى تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس . كان هذا
الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر بألف نفس* .
وكانت أراضيه العظيمة تقع على مقربة من مدينتي الصغيرة وتاخم أراضي
ديرنا الشهير الذى أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أى بعد أن آلت
إليه هذه الأراضي فوراً ، قضية طال أمدها فما تنتهى . والقضية تتعلق

بحقوق الصيد فى النهر أو حقوق قطع الأشجار فى الغابات ، أو غير ذلك مما لم أذكره ، وهى قضية تافهة فى ذاتها ، ولكن صاحبنا قدّر أن من واجبه كمواطن صالح وإنسان متنوّز أن يقاضى « اكليركين » . فلما علم بمصير آديلايد ايفانوفنا التى لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها فى الماضى ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل فى الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ، ورغم ما كان يحسه ازاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبعى فى شاب . ففى هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفتش فأبلغه صراحةً بغير لفٍ ولا دوران أن فى نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبي . وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليرز أخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه فى أول الأمر أنه لا يفهم أى صبي يعنى ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن يسكن فى مكانٍ ما من المنزل . وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بطرس الكسندروفتش شيئاً من غلو ومبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيراً . فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثل وأن يظهر على حين فجأة فى دور ليس متوقفاً ، دون أن يكون هنالك داع الى ذلك ، ودون أن يجنى من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر فى كثير من الأحيان . وتلك صفة تقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء ، فليست وفقاً على فيدور بافلوفتش وحده وليست خاصة به دون سواء . وصرّف بطرس الكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة . هكذا مضى ميتاً يعيش فى منزل ابن عم أمه ، الذى لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم

فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبي الى احدى بنات أعمامه وهي سيدة من موسكو . وانهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبي هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التي أثرت في خياله تأثيراً كبيراً حتى أصبح فكره مشدودا اليها فلا فكاك له منها . وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبي الى منزل احدى بناتها المتزوجات . ويظهر أنه غيّر عشه بعد ذلك مرة رابعة ، ولكنني لا أريد أن أفيض في ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأنتى سأحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التي لا غنى عنها ، والتي بدونها يستحيل على أن أشرع في قصّ هذه الرواية .

فأقول قبل كل شيء أن دمترى فيدوروفتش هذا قد شبّ على الاعتقاد ، رغم أن لأبيه فيدور بافلوفتش ثلاثة أبناء ، بأنه يملك ثروة ضخمة سيؤول اليه أكثرها فيكفل له الاستقلال . وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياة مضطربة . لم يتم منى دراسته في الكوليج ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية . ولكنه تورط في مبارزة ، فجرّد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموال من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ مبلغ الرجال ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض . ولم يرَ أباه لأول مرة منذ تركه في طفولته ، ولم يعرفه ان صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه في أمر ميراثه . ويظهر أنه نفر من أبيه دفعة واحدة ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ

من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ربع أرضه
تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يمين له قيمة الأرض وإيرادها
(هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة في أذهانتنا) . وقد أدرك فيدور بافلوفتش
فى تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التى قالها ابنه (وهذه أيضا
نقطة يجب أن نسجلها) أن الفكرة القائلة فى ذهن ميتيا عن ثروته فكرة
مغالية . وسُرَّ الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له
مصالحه . لقد لاحظ أن الفتى خفيف بطاش مندفع تسيطر عليه أهواؤه
الجامحة ، وتحكم فيه رغباته العنيفة ، وأنه نافذ الصبر متمجِّل ، وأنه الى
ذلك يحب اللهو والقصف . فاستنتج من ذلك ببساطة أن الشيء الذى
يهم هذا الفتى خاصة هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته
المباشرة ، فمتى تحقق له ذلك هداً فوراً ، ولو الى حين طبعاً . أدرك
فيدور بافلوفتش الفائدة التى يمكن أن يجنيها من هذه الصفة التى يتصف
بها طبع ابنه ، وجنى هذه الفائدة فعلاً ، فكان يتحرر من مطالب ابنه
بدفعات زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعة من حين الى حين . حتى
اذا نفذ صبر ميتيا أخيراً ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوى قضية
الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه
أصبح لا يملك شيئاً البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب
تحديد ما على وجه الدقة ، ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل
حال ، فهو المدين لأبيه الآن ، وليس أبوه مديناً له بشيء ؛ وما كان أشد
دهشته حين عرف أنه بحكم الاتفاق الذى أبرمه مع أبيه أصبح لا يحق له
أن يطالب بشيء البتة ! الخ الخ ... صُعق الفتى ، وأحس بأنه خُدع
وغرَّر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فشارت ثائرته حتى بدا كمن
طاش ليه وذهب صوابه وجن عقله . تلكم هى الوقائع التى أدت الى

الكارثة •• الكارثة التي تألف من سرد قصتها روايتي الأولى التمهيدية،
أو قل تألف من سرد قصتها البناء الخارجي لتلك الرواية • ومع ذلك
ينبغي لي قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابني فيسندور بافلوفتش
الآخرين ، ينبغي لي أن أتكلم عن أخوي ميتا ، وأن أذكر كيف جاءا الى
هذه الحياة الدنيا •

الزواج الثاني ولين الفلاس الثاني



أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا
ولمّا يكّد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن
تزوج مرةً أخرى • وقد دام زواجه الثاني
هذا زهاء ثمانى سنين • وكانت امرأته الجديدة،

صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم
مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير خفير من أجل
قضية تتعلق بشراء أرض • ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على استرساله
فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا
عن الاهتمام باستثمار رموس أمواله، وقد عرف دائما كيف يصرّف شتونه
الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشئ من النذالة والغش فى
كثير من الأحيان كما يتوقع ذلك من مثله • وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة
يتيمة لم تعرف أسرتها يوما • انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت
فى منزل ارسقراطى ثرى هو منزل زوجة الجنرال فورديخوف ، التى
كانت تراقبها بعين يقظى ساهرة فهى تحسن اليها وتربها وتضطهدا فى
آن واحد • لست أعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن
هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجذالة وكانت مخلوقة
مسكينة عذبة دمثة ، قد وجدت ذات يوم تحاول أن تشق نفسها بمسمار

فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة
تصبها على رأسها هذه العجوز التى كانت فى الظاهر شريرة ، ولكنها
كانت فى حقيقة الأمر امرأة جعلها الفراغ متسلطة تسلطاً لا يطاق ،
مستبدة استبداداً أحق لا يحتمل . وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة
فسألوا عنه ، فرفضوه . فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة
الأولى ، فعرض عليها أن يختطفها . وأغلب الظن بل الأرجح أنها
ما كانت لتوافق على الهروب معه لو عرفت تفاصيل حياته خيراً مما عرفت.
ولكن السمعة السيئة التى نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت
حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينة لا تعرف الا
شيئاً واحداً هو أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى
منزل هذه السيدة المحسنة اليها . هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى
بيت محسن . ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة قرشاً واحداً ،
لأن الجلالة قد غضبت غضباً شديداً فلم تهب للعروسين شيئاً عدا اللعنة.
على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال فى هذه
المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وقتنه
ما رآه فى نظرتها من صفاء أحدث تأثيراً عميقاً فى نفس هذا الرجل
الشهوانى الذى كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الساقط
الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخمسية . « ان
تينك العنين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عندئذ كسكين » :
كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضحكة الساخرة
المهودة فيه . ومن الجائز أيضاً أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى
فاسق مثله الا صورة من صور اللذة الحسية . وقد اعتقد فيدور
بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتخرج مع
امراته أى تحرج ، واستغل شعورها بأنها « مذنبه » فى حقّه هو الذى

« أتخذها من الجبل » ، واستغل من جهة أخرى ما يتصف به طبعها من
عدوية مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التي
توحىها الحياة الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى
منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات . ويجب أن أذكر ،
في هذه المناسبة ، كسمة من السمات التي تميز هذه البيئة ، أن الخادم
جريجورى ، الانسان المماحك المتجهم القبي العنيد ، الذى كان قد كره
زوجة سيده الأولى ، أدبلايد ايفانوفنا ، قد اضطر في هذه المرة الى صف
الزوجة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش في
أمرها ، مستعملا في مخاطبته ألفاظا توشك أن لا تكون مقبولة من فم
خادم . حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا
القوة في طرد المخلوقات الفاجرة التي تجتمعت في المنزل . وقد أصيبت
هذه المرأة البائسة التي قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها ،
أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصة بين أبناء الطبقة الدنيا من
الشعب وبين الفلاحات اللواتي يسمّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى»* .
ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهبة من نوبات الهستيريا ، كان يهوى
بالمرأة الشابة في بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف . ومع ذلك
أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ،
وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين . وحين مات ،
كان الصغير الكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره . وانى لأعلم ، مهما
يبد لكم هذا الأمر غريباً عجيباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة في ذهنه
طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً . وقد كان مصير هذين
الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما
أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى
كوخه مثلما ضمّ اليه أخاهما من قبل . وهناك ، فى ذلك الكوخ ، انما

اكتشفتها الجبرالة المعجوز المهووسة التي كانت لأمرها محسنة ومنشئة . كانت المعجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين الثماني أن تغفر الإهانة التي ألحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تسقط أخبار « عزيزتها صوفيا » تفصيلاً ، فلما علمت نبأ المرض الخطير الذي ألمَّ بها ، كما علمت بأنباء اليثى الفاسدة الفاضحة التي اضطرت المسكينة أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عالٍ ، أمام صديقاتها ومحبياتها : « لقد استحققت ذلك ، فإن الله هو الذي يصاقبها على نكرانها الجميل وجحودها النعمة » .

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماماً ، ظهرت الجبرالة ذات يوم بشخصها في مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضح وقتها سدى . كان ذلك في نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذي لم يرها منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثماني قد هبَّ الى لقائنا الآن وهو في حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفقته منذ اللحظة الأولى صفتين مدويتين ، دون أن يراودها أى تردد ، ثم أمسكته من شعره وهزته في مكانه ثلاث مرات . ذلك ما رواه بعضهم . ثم اتجهت الى الكوخ الذي يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُفسلا ويُنظفا ، وأن ملابسهما الداخلية لم تُغَيَّر ، أسرع تصفع جريجورى أيضاً ، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، بعد أن لفتها بغطاء ، ووضعتهم في عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد تلقى جريجورى هذه الصفقة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يخرج عن أدبه ؛ بل لقد رافق السيدة المعجوز الى عربتها ، وقال لها وهو ينحن حتى مستوى الحزام ، قال لها فى اقتناع

كامل وإيمان قوى : « ان الرب سيجزيها جزاءً حسناً بسبب هذين
اليتميين » ، فصرخت الجنزلة تقول له وهى تنصرف : « أمت مع ذلك
أبله » ، وبعد أن قلب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة
انتهى الى أن كل شيء قد جرى على ما يرام . ثم لم يضع بعد ذلك أية
عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربى الصبيان فى منزل
الجنزلة وذيل بتوقيعه جميع الشروط التى اقترحت عليه . أما الصفات
التي تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها .

وحدث أن توفيت الجنزلة بعد ذلك بزمان قصير ، ولكنها أورثت
كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن
هذا المبلغ مخصص لتعليمهما ، فما ينبغي أن يتفق منه شيء إلا عليهما ،
ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ
الكبير كثير على طفلين مثلهما ، فإذا ظن بعض الناس أن هذا الميراث غير
كاف فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم ، الخ الخ ، . انتهى لم
أقرأ وصية الجنزلة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هذا
القبيل ، وانها قد كتبت بعبارة طريفة عجبية . ومن حسن الحظ أن
الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجنزلة كان رجلاً شريفاً هو
ايڤيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة . وقد كتب الى فيدور
بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع قرشاً واحداً فى سبيل
تعليم ابنه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ،
وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد
أحياناً الى التدفق فى أقوال عاطفية) . قرر ايڤيم بتروفتش عندئذ أن
يهتم باليتميين شخصياً ، وتعلق تعلقاً خاصاً بأصغرهما ألكسى ، فرباه فى
أسرته نفسها خلال سنين . أرجو من القارئ أن تظل هذه النقطة ماثلة
فى ذهنه . لئن استطاع هذان الشابان أن ينمعا فى حياتهما بتربية جيدة

وتقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى ايفيم بتروفتشس هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن تقع على مثلهما فى غيره . انه لم يمسس الروبيلات الألف التى ورثها كل من الصينيين من الجزالة ، فلما بلغا سن الرشد كان الألف قد صار بالفوائد ألفين . لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصينيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبيلات الألف طبعاً . لن أدخل هنا فى قصص تفصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها . فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشيء من التجهم والانطواء . صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرة هى أسرة أجنبية رغم كل شيء ، وأنهما يُربَّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، النخ النخ . وقد أظهر هذا الصبي فى وقت مبكر - منذ طفولته الأولى فيما يقال - استعداداً عظيماً للتعلم وتفوقاً واضحاً فى الدراسة . اننى لم أطلع على التفاصيل ، ولكننى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتشس وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره فيما يبدو ، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش فى « بنسيون » عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتشس فى طفولته . وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردّه الى « ما يتصف به ايفيم بتروفتشس من حماسة شديدة لأعمال الخير » ، لان ايفيم بتروفتشس قد استقر فى ذهنه أن صبيّاً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مربٍ عبقرى . على أن ايفيم بتروفتشس والمربى العبقرى كانا قد اشتقلا كلاهما الى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانسحب الى الجامعة . وقد تأخر استلام الروبيلات الألف

التي أوصت بها الجئالة المهووسة للطفلين والتي صارت بالفوائد ألفين،
تأخر استلامها نتيجة لسوء تدوين التدابير التي اتخذها اقيم بتروفتش،
وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والآجال الطويلة التي لا بد
منها ولا غنى عنها في بلادنا ... لذلك كانت الستان الأوليان اللسان
قضاها ايفان في الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات . لقد اضطر الفتى
أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته .
يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله في لحظة من اللحظات أن يستنجد
في ذلك الظرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم في نفسه ، واما عن احتقار
وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادئ قد حدثه بأنه ليس له أن يعول
على الحصول من أبيه على معونة ذات بال . المهم أن المصاعب لم تفت في
عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا . أخذ
في أول الأمر يعطى دروسا في المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع أخيرا
- بالسعى من ادارة تحرير الى ادارة تحرير - أن يكتب للجرائد اليومية
مقالات مقتضبة ، في حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلة
بتوقيع « شاهد عيان » . وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان
فيها من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً
سريماً . بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئك
الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما في عوز وفاقة ،
ويلم بهم في عواصمنا البؤس والفقر والشقاء ، ويحاصرون ادارات
تحرير شتى الجرائد والمجلات من الصباح الى المساء . انهم في المادة
لا يحسنون أن يتكروا شيئا غير تكرار طلبهم الأبدى ، وهو أن يكلفوا
بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال
المراسلة . فلما استطاع ايفان فيدوروفتش أن يصل الى ادارات التحرير
دبر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء السنين .

الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية • على أنه لم يظفر ، مصادفةً ، بأن يلفت إليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا يسونوه • كان هذا فى مناسبة طريفة جداً شائعة جداً • كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهاى بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريباً التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ؛ والعجيب أن المقال يعالج موضوعاً لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمى (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) • لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى * الذى كان فى تلك الأيام يهز جميع العقول ويحرك جميع الأذهان • فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى آراء شخصية • وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة • ومع ذلك فإن عدداً من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى المحدون ، يسربون عن تأييدهم للكاتب واستحسانهم لما تضمنه مقاله • وأدرك بعض أهل الصحافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة وقحة ومهزلة ساخرة • وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل بعد ذلك الى المدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، فاذا بمسألة القضاء الاكليركى تثير اهتماماً عاماً على حين فجأة • لقد قرىء المقال فى المدينة فأحدث هزة قوية ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن

الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه ، • وها هو ذا كاتب المقال يظهر فى مدينتنا بنفسه فى تلك الآونة نفسها •

تُرى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أننى قد أُلقيت هذا السؤال على نفسى منذ تلك اللحظة شاعرا بشيء من القلق • ان هذه الزيارة المشؤمة التى كانت السبب فى وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت فى ذهنى خلال زمن طويل ، بل ظلت فى ذهنى الى الأبد ، أمرا غامضا لم أستطع الى فهمه سبيلا • انه لشيء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقرر على حين فجأة أن يجرى الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن يجرى الى أب كهذا الأب الذى جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعرف شيئا عنه ، حتى نسى وجوده ذاته • والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذى كان سيرفض قطعاً فى أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنه شيئا من مال لو سأله ذلك ، كان فى خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبوا منه بعض المال واحدا بعد آخر • ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا آخر من الناس أيضا • وكان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف ، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان فى ذلك الحين يقيم عندنا فى الأرض التى يملكها بضواحي مدينتنا • فلقد رضى أن يترك باريس الى حين ، بعد أن اتخذها مقراً له • ان بطرس ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان ، فاهتم به وأصبح يحص

بالمناصفة بينه وبينه في شئون العلم والثقافة العامة ، على شيء من ألم يستشعره خفياً • كان يسر الينا في كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : « هذا رجل ذو كبرياء • ولن يصعب عليه أن يجني رزقه • ماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال ، لأن أباه لن يعطيه شيئا • أما أن يسكر وأن يسرسل في المجون فذلك ليس من أخواقه وميوله ، ومع ذلك فإن الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلقه به ! • • هذا صحيح • ولقد كان واضحا أن الشاب يؤثر في أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يعطيه في بعض الأحيان ، رغم أن طبعه ليس بالطبع الاجتماعي كثيراً ، ورغم أنه يكون في بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم في سلوكه قليلاً •••

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمان طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمترى قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحة • وفي هذه الفترة بسينها ، أثناء اقامته تلك بمدينةنتا ، انما عرف ذلك الأئخ الذي لم يكن قد رآه من قبل في يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يرامله قبل سفره الى موسكو في موضوع قضية هامة تتعلق خاصة بدمترى فيدوروفتش • وسأشرح للقارىء ماذا كانت تلك القضية ، حين يجيء أوان الكلام عليها • ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطلمت على هذه الظروف الخاصة ، ظللت أجبد سلوك ايفان فيدوروفتش سرّاً محيراً ، وظللت أعد زيارته لمدينتا أمراً لا أجسد له تعليلاً ولا تفسيراً •

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً في النزاع الناشب بين أبيه وأخيه الأكبر دمترى الذي ساءت علاقته بالأب الى حيث أقام عليه دعوى قضائية •

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع في تلك اللحظة لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها الذين لم يسبق لهم أن التقوا يوما ، يتعارفون في هذه المناسبة . ان الابن الاصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذي كان يقيم منذ سنة في مدينتنا التي وصل إليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا في هذه القصة التي هي تمهيد للرواية ، قبل أن أبرزه الى المكان الأول من الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضغ كلمات تكون مقسمة للدخول في موضوعه أيضا ، ولو لأوضح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : اننى مضطر في الواقع الى أن أقدم بطل القارئ في مسوح قتي يتأهب للترهب . انه يعيش في ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئا لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

اليوشا، اليوشا، اليوشا



بكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد
 دخل أخوه ايفان فى الرابعة والعشرين ؛ أما
 أخوهما دمترى فهو يشارف على الثامنة
 والعشرين) • أريد أن أقول على وجه الاحمال
 ان القتي اليوشا لم يكن فيه شئ من تعصب دينى فى رأى ، لا ولا كان
 صوفياً ؛ واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأى فيه قلت : انه ، بكل
 بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من
 حياته • فلئن اختار طريق الاعتكاف فى الدير ، فما ذلك الا لأن هذا
 الطريق كان يبدو له فى تلك الآونة السيل الوحيدة التى يجب أن تسير
 فيها حياته ، والملاذ المثالى لنفس مفتونة بالنور والمحبة ضد ظلمات الكرم
 والبغض فى هذا العالم • أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا
 بفضل التقائه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ زوسيم*
 الذى عدّ الشهاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقاً شديداً فيه كل الحرارة
 الأولى التى تتدفق فى قلبه الظامى • على أننى لن أنكر أن هذا الشاب
 كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ
 المهد • سبق أن ذكرت ، فى هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه فى السنة
 الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكرها ماثلة فى خياله طوال حياته ، فهو

يرى وجهها ويرى ملاطفاتها « كأنها حاضرة في هذه اللحظة نفسها
أمامي » ، ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكريات من هذا النوع
قد ترسخ في النفس ، حتى في سن أصغر ، وحتى منذ السنة الثانية
من العمر ، ولكنها لا تكون في مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة مبشرة
تبرز من وسط الظلام ، أو أجزاء منفصلة من لوحة كبيرة انطفاً سائرها
وبلغته الظلمات ، باستثناء تلك التفاصيل التي بقيت وحدها ساطعة . وذلك
بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أمامي
الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه
الأشعة المائلة هي ما يتذكره خيراً مما يتذكر أي شيء آخر) ، وصورة
مقدسة في ركن من الغرفة ، وسراج صغير يشتعل أمام الصورة ، والأم
راكعة على ركبتيها ناشجة متحبة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت
تطلق صرخات حادة وأنان موجعة ، ثم اذا هي تمسكه بذراعيها على حين
فجأة وتشدها الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء
أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذي كانت الأم تمدّه الى الأيقونة
كأنما لتضعه في حمى أم الرب وتظهر خادمة الطفل فجأة في
الغرفة ، فيبدو في وجهها زعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين
يدي أمه . يا لها من لوحة ! لقد انصرفت صورة وجه الأم في ذاكرة
أليوشا في تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعاً ولكنه كان
جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر
أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء
طفولته ومراهقته قليل الانصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن
شك وحذر طبعاً ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهّم في الطبع
والمزاج أبداً . . . بل بسبب شيء خاص في نفسه ، بسبب اهتمام
داخلي ، شخصي تماماً ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة

الشان أنه يسليه حتى وجود الناس . ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر . وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها فى اندفاع ثقة بالناس ، ومع ذلك لم يمد له أحد فى يوم من الأيام امرأ غراً أو ساذجاً . كان فى نفسه شيء لا أدرى ما هو ، شيء يشعر الآخرين شعوراً واضحاً بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانسان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن يرضى بحال من الأحوال أن يلقي اللوم على الملاء . حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شيء دون أن يحكم عليه ، ولكن بمرارة حزينة فى كثير من الأحيان . ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه شيء ، وأن لا يخيفه شيء ، وذلك منذ غضارة صباه . وفى منزل أبيه ، الذى كان مآخور فحش وعهر ، كان الفتى يقتصر ، وهو الذى بلغ العشرين من عمره محافظاً على عفته وطهارته ، كان يقتصر على الابتعاد صامتاً اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهر عليه شيء من الاحتقار أو النقد لأى انسان . أما أبوه ، الطفيل القديم الذى كان لهذا السبب سريماً الى ادراك الالهاته والشعور بها ، فقد استقبله فى أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بمواطف ليس فيها ود كثير (انه مسرف فى الصمت تجاهى ، مسرف فى التفكير دون أن يقول شيئاً) ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين فى أكثر تقدير يعاققه ويضمه الى ذراعيه فى كل لحظة . صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور . ولكن كان واضحاً مع ذلك أنه يحبه حباً صادقاً عميقاً ، كما لم يحب رجل من نوعه أحداً

وكان جميع الناس يحبون أليوشا على كل حال . لقد أيقظ عواطف المحبة والمودة له فى نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته . وأياماً كان يعيش فى منزل المحسن اليه والمربي له ، ايفيم بتروفنش بولينوف ، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه

ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا صغيرا فهو عاجز عجزاً تاماً عن أى مكر أو حساب ؛ لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سنٍ يجهل فيه الكائن الانسانى كل شىء عن فن المبالاة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه . لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه بحكم طبيعته ، فكأن هذه الموهبة قد ولدت معه ، فالتناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك . هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان . لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه فى فترات الراحة بين الدروس ، فيفرق فى التأمل . كان أليوشا يحب كثيراً ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتاباً من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيماً ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه غير منازع . كان لا يتحمس الا نادراً ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى نفوره من الناس ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية راقية . وكان لا يحاول أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى كذلك أحداً . ولكن الصية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ولا يُدلُّ بها ، بل يظل بسيطاً منطلقاً على طبيعته وسجيته ، كأنه لا يشعر بشجاعته وجراته وجسارته . وكان لا يحتفظ أبداً بذكرى اساءة نالته أو اهانة ألحقت به . وكثيراً ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة أو ألحق به الاهانة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والهدوء ما يشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين . كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه

يريد أن ينسى الاساءة أو يفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية ويسحرهم فورا . ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، فى جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خيثة فى السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشبع فى نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشنديد ، وخفوه العظيم المرتبط بالحشمة والعفة . ان الأحاديث التى يتبادلها التلاميذ عن النساء والتعابير التى يستعملونها فى هذا المجال ، كانت أمورا لا يطبق الصبى ألبوشا أن يسمعها . ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها . ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صفارا ، يجدون لذة كبيرة فى أن يتحدثوا فى هذه الأمور ، بصوت عالٍ فى كثير من الأحيان ، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحى حتى الجنود فى الثكنات أن يتكلموا فيها . الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون ، فى كثير من الحالات ، أمورا أصبحت فى أيامنا هذه مألوفا أو شبه مألوفا عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب . والحق أن ذلك لا يجب أن يعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية السطحية التى يحلو للتلاميذ أن يمدوها علامة رهافة فى النوق ، ودليل جرأة خليقة بأن تُقلّد . فلما لاحظ التلاميذ أن هذا الفتى الشهم ألبوشا كارامازوف ، يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على هذه الأمور ، أصبح يلذ لهم أن يتحلّقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة . فكان الفتى عندئذ يتخطب بينهم ، ويرتضى على الارض ، ويخفى وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل

الاساعة صامتا • وانتهى الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا
عن معاملته معاملة « بنت » ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد
حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه • وكان أليوشا من جهة
أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه في يوم من
الأيام •

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم
بتروفتش • ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التي لا يجد العزاء الى
قلبها سبيلا قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، وأقامت هنالك
زمناً طويلاً مع أسرته كلها التي تتألف من نساء فقط • فانتقل أليوشا
الى منزل سيدتين تمان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد
رأهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هي الترتيبات التي
استقبلته هاتان السيدتان على أساسها • تلك سمة بارزة من سمات طبعه ،
هي أنه كان لا يهجه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش!
كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان
فيدوروفتش الذى عاش حياة شديدة البؤس والفقر والعوز خلال
السنتين الأوليين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن
يجبى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه
كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله • على أننا
لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ،
اذ يكفى أن نعرفه قليلاً حتى نقنع بأنه كان فى شئون المال واحداً من
أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال
عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم متى سألهم ذلك أو أن ينفقوه فى
عمل من أعمال الخير ، أو أن يتيحوا لوغد حاذق أن يسطو عليه
ويسلبهم اياه • وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال

بوجه عام ، وإنما يجب أن نفهم هذه الكلام على المجاز لا على الحقيقة
طبعاً . كان أليوشا إذا أعطى شيئاً من المال ليكون في جيبه يتفق منه عند
الحاجة (وهو لا يطلب شيئاً من ذلك في يوم من الأيام) كان يتفق له
أما أن يظل المال في جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، وأما أن
ينفقه بلا حساب فإذا بكل شيء يختفى في غمضة عين . ان بطرس
ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة في شئون
المال ، ومن أشدهم تقديساً للأمانة البورجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما
بعد أن لاحظته عن كتب : « لعل هذا الفتى هو الإنسان الوحيد في هذا
العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيداً بلا مورد في وسط مدينة كبرى
لا يعرفها ، ثم إذا هو لا يهلك من الجوع والبرد ... انه سيدبر أموره
عندئذ بأيسر طريقة ... فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه ..
ولن يكلفه ذلك أى جهد ولن يحمله أية مذلة .. والشخص الذى
سيضمه إليه لن يشعر بعيبه ، بل لعله سيجد في ذلك لذة كبرى . » .
لم يتم أليوشا دراسته في الكوليج . كان قد بقى عليه أن يقضى
في المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن في ذات يوم
للسيدين اللتين كان يقيم في منزلهما أنه سيذهب الى عند أبيه لأمر
يتتويه . نددت السيدتان حظه كثيراً ، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن
عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته
- وهى هدية أهدتها إليه أسرة المحسن إليه قبل سفرها الى الخارج -
فقد زودتاه بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثياباً جديدة وملابس داخلية .
ولكنه رد إليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حرصاً مطلقاً على أن
يسافر في الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصل الى مدينتنا أبى أن
يجيب عن الأسئلة الأولى التى ألقاها عليه أبوه (« ماذا دهالك ، يا بنى ،
حتى جئت الى قبل أن تتم دراستك ؟ ») ، حتى لقد أظهر من الشرود

والتأمل أكثر مما عُهد فيه • ذلك ما قيل • وسرعان ما عُرِف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه • وقد اعترف هو نفسه ، على كل حال ، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذى دفعه الى المعجزة • ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه • ولعله كان يجهل هو نفسه فى تلك الآونة الأسباب العميقة التى حملته على المعجزة ، ولعله كان لا يستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعا لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها • لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدلّه على المكان الذى دُفنت فيه زوجته الثانية • انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت ...

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش • لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن ، أقام مدةً طويلة بعيدا عن مدينتنا • انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واستقر فى أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة • وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من « أنواع اليهود » على حدّ تصيره ، حتى أصبح يُستقبل « لا فى منازل يهود فحسب ، بل فى منازل عبريين أيضا » • فمن حقنا إذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حياته انما نمى وحسن وجودّ فنه فى تصريف الأعمال وارباء الأموال • ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول ألبوشا بثلاث سنين • وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيرا ، رغم أنه لم يبلغ من الشيخوخة بعد ؟ كما اكتسب عادات فيها مزيد من الاستهتار والوقاحة • من ذلك مثلا أن هذا المهرج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من الفطرسه والمعجزة أن يخفض الآخرين الى هذا المستوى ؟

وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والفش لا كما كان يتعاطى ذلك كله
فى الماضى ، بل بطريقة أدعى الى النفور وأبعث على الاشتمزاز أيضا .
ولم يلبث أن فتح فى مديرتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه
كان يملك رموس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا
جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديرتنا بقرضونه
أموالاً ، لقاء فوائد طيبة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتضعف وتفضن
فى الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الثقة ما كان يملكه
منها فى الماضى ؟ وأصبح سلوكه أقل تروياً وتأنياً ووعياً ، حتى لقد برهن
فى بعض المناسبات على شيء من التبلد والخبل ، فهو ما يكاد يشرع فى
أمر حتى يتركه الى غيره ، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط
بينها وبلا استمرار يصل بعضها ببعض . وأصبح يسكر مزبدا من
السكر ، فلولاً خادمه الأمين جريجورى الذى دلف الى الشيخوخة قليلاً
هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربى أو المربية قريبا ، اذن
للقى فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجيء ألكسى
قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسناً فيما يظهر ، فكأنه أيقظ فى
نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ
زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : « هل تعلم يا أليوشا
أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟ » (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أم
ألكسى .) واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى
الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم فى ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلّه
على صفيحة من الصلب كانت مهجورة فى مكان ضائع ، وقد نقش عليها
اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها فى أسفل
هذه البقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن
تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه

الصفحة المعدنية انما كانت قد وضعت في ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا . لقد حاول جريجورى أن يذكر مولاه مرارا بأن المتوفاة ليس لها ضريح ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالقبور ، وغير حافل بالذكريات . لم يظهر أليوشا أى انفعال أمام قبر أمه ؛ واستمع بغير اهتمام الى مارواه جريجورى جداً متعلماً متحذلقاً عن اللوح المعدني كيف صنعه ؛ وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضاً رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة . على أن تذكر الماضي هذا قد أثر في فيدور بافلوفتش بعض التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يتوقع منه . أخذ ألف روبل دون أن ينبئ أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية ، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلايد ايفانوفنا ، تلك التي كانت تضربه . وفي ذلك اليوم نفسه أيضاً ، سكر سكرأ شديداً وقال بحضور أليوشا كلاماً أسوأ من شق الرحبان . لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل الدين الى أقصى حد ممكن ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بقرش واحد أمام أيقونة . غير أن أفراداً من هذا النوع قد يتفق لهم أن يفزروهم على حين فجأة سيل من عواطف غريبة وآراء عجيبة ، على نحو لم يكن في الحساب ، ولكنه موقت على كل حال .

سبق أن قلت انه قد تفضن وجهه . والحق أن وجهه كان يحمل في تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التي عاشها ، وأنواع الأهواء التي عصفت به . فالى الجيوب الطويلة المنتفخة التي كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظللان دائماً باحتين مقشنتين

وقحيتين ساخرتين ، وإلى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التي كانت تضدد وجهه الذي كان صغيرا ولكنه مليء بالشحم ، قد أضيفت الآن ، تحت ذقنه الدقيقة ، مخدة من لحم سميك مستطيل كأنها كيس صغير ، تضفي على وجهه سيماء شهوانية حيوانية منفرة • وكان له أيضا فم كبير نهيم متنفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا أسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد تفتت تماما • فكلما فتح فاه للكلام سال منه اللعاب متناثرا • ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ؛ كان يلح في كلامه خاصة على شكل أنفه الذي كان صغيرا دقيقا جدا ولكنه شديد التقوس • كان يقول : « هو أنف روماني حقا ، فاذا ضمنت إليه ذقني المزدوجة كنت ترى نبلا من نبلاء روما في عصر الانحطاط • » • كان فيدور بافلوفتش يبدو معجبا بوجهه معترا به •

بعد أن اهتدى أليوشا إلى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوي أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئا • وأضاف إلى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أشواق نفسه وأحرر أمنياتها ، وانه في هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأل أباه بكل احترام أن يأذن له بدخول الدير • وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسима الذي انزوى في الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا في « ابنه الطيب العذب » •

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا إلى شروح أليوشا الذي لم يدهشه قراره هذا مع ذلك :

— لا شك أن هذا الشيخ زوسима* هو خير أولئك الرهبان ... هيم ! ... ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بني الطيب اللطيف • (كان

قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة فى ضحكة سكران عريضة لا تخلو من
مكر وخبت (.... هم ! لقد تنبأت أنا بأنك ستتهى الى حيث
انتهيت ، هل تعلم ؟ هانت ذا قد عزمت أمرك الآن . انك تملك ألفى
روبل هما لك وحدك تلك ذخيرة طيبة أما أنا يا ملاكى فلن
أتركك قط ، حتى انتى مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير كل
ما سيطلبه منى . ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، لن
نزعجهم أليس هذا صحيحا ؟ ثم انك لست بالمتلاف الذى ينفق
كثيرا ، ولست تحتاج من المال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيور
الكنارى تكفيك حبتان فى الأسبوع انتى أعرف ديرا يملك ،
فى خارج المدينة ، دورا صغيرة . وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور
تضم « زوجات الدير » ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة
هناك ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم . لقد ذهبت الى هناك ،
وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعاً ، من ناحية التنوع . ليس ثمة
الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالتساء جميعا روسيات ليس بينهن
فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز
رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن ذرافات ووحدا
أما هنا فلا شيء من ذلك ! ليس للدير زوجات وعددهم مائتان
هؤلاء الرهبان ! لا شيء هنا الا العفة والشرف . هم أناس أطهار
أعترف أن هم أتريد أن تكون راهبا ؟ انتى أرئى لحالك
قليلا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أنتى تعلقت بك ؟ على كل حال
رب مصيبة نافعة ، مصائب قوم عند قوم فوائد : سوف تدعو لنا الله على
الأقل نحن الضالين ، عسى أن يعفو عنا ويفر لنا ، ذلك أننا قد أئمننا
كثيرا على هذه الأرض . انتى أئسائل منذ زمن طويل : « ترى من ذا
الذى سيصلى لنا فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن

يصلى لنا ؟ ، يا ولدى المسكين ، انتى غيبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت ... غيبى جدا ، صدقنى ! ... ولكن مهما أكن غيبا فى هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا . صحيح أنتى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى فكرت فيها . قلت لنفسى : « يستحيل أن تنسى الشياطين انتقاطى بمجارفها حين أموت » ، ثم تساءلت : « مجارف ؟ من أين لها المجارف ؟ وممّ صنعت هذه المجارف ؟ أَلطهها صنعت من حديد ؟ فأين صنعت اذن ؟ أَلعل عندهم اذن مصنعا ؟ » . ان الرهبان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا . أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقد بوجود الجحيم ، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف . اتى أوتر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعانى . ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ انظر الى مسألة الجحيم هذه ما أسخفها ! ولكن اذا لم يكن ثمة جحيم ، لم يكن ثمة مجارف أيضا ؛ وبدون مجارف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه ... من عسى يلتقطنى بعد موتى ، من عسى يحملنى على معجزة ؟ وما عسى يحدث اذا لم تلتقطنى الشياطين ؟ أين تكون « الحقيقة » عندئذ فى هذا العالم ؟ لا بد اذن من اختراعها ، هذه المجارف ، من أجل أنا خاصة ، من أجل وحدى ، لأننى مذهب خالغ العذار يا أليوشا ، لو علمت ا

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه باتباه :

— لا ليس فى الجحيم مجارف .

— هه ! هى اذن أطراف مجارف فحسب ؟ فهمت ! فهمت ! هذا

يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى : « رأيت طيف حوذى * كان ينظف طيف عربية بطيف فرشاة » . من أين عرفت يا طائرئ الصغير

أن ليس ثمة مجارف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنَّ غير هذا الكلام •
اذهب اليهم على كل حال • ستبحث لديهم عن « الحقيقة » ، فاذا وجدت
تعال الىَّ فحدثني عنها ، فيكون الموت بعد ذلك أقل قسوة على ، لأنتي
أكون قد عرفت ما ينتظرني في الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسك أكثر
من منزلي الذي يعيش فيه أب سكير مع هاته النساء ... رغم أنك بما
لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ
بها ملاك • لا أدري هل تستطيع البقاء أيضاً مع هؤلاء الرهبان ... لذلك
آذن لك أن تلتحق بالدير ! ... انتي أعتمد على سلامة حكمك وحصافة
رأيتك • ليس الذكاء ما يموزك • ان النار تشتعل ثم تنطفئ • فمتى
شفيت رجعت الىَّ • لسوف أنتظرك • أنت الانسان الوحيد في هذا
العالم الذي لم يتهمنى ولم يدنني ، ذلك ما شعرت به ، ذلك ما أعرفه
يا صغيري الطيب الشهم ، وهل كان يمكن أن لا ألاحظه ؟
قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل • انه عاطفي : هو خبيث
وعاطفي معا •

مشايخ الرباه



يميل بعض قرائي الى الاعتقاد بأن الشاب، الذي
أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو
طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين
الصفراء وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية
أجسامهم ، والواقع أن أليوشا كان فى تلك الآونة عكس ذلك : انه
مراهق فى التاسعة عشرة من عمره فياض العافية شديد المهابة مورث
الخدين مضى النظرة ؟ بل لقد كان جميل الوجه قوى البنية ، وهو
مربوع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسمات على شئ من الاستطالة ،
تسطع فيه عيان شهابوان قاتمتان متباعدان تفيضان حياة ، انه يبدو شارد
الذهن كبير التفكير ، وهو فى الظاهر هادى همدوا كبيرا ، رب قائل
يقول ان تورّد الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى
الصوفية ، ولكنى أعتقد أن أليوشا كان واقعا أكثر من أى انسان آخر .
صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى
هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأى أن تزعزع فكر انسان
واقى . ذلك أن المعجزات ليست هى التى تولد الايمان لديه . ان
الواقى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة
والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها

بحادثة لا ميل الى جحودها أثر أن يشك في صدق حواسه على أن
يسلم بالواقع . حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عدم ظاهرة
طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة لا أكثر . ان المعجزات لا تولد
الايمان لدى الواقعي . بالعكس : فان الايمان هو الذي يستدعي لديه
المعجزات . فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجزات حتما ، بحكم واقعيته
نفسها . لقد أعلن الرسول توما * أنه لن يؤمن بشيء قبل أن يرى ، ولكنه
حين رأى . هتف يقول : « أنت الهى يا رب ! » . فهل المعجزة هى التى
أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا وأنه انما آمن لأنه كان
يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، فى أعماق
كيانه منذ كان يقول : « لن أوّمن ما لم أشاهد . »

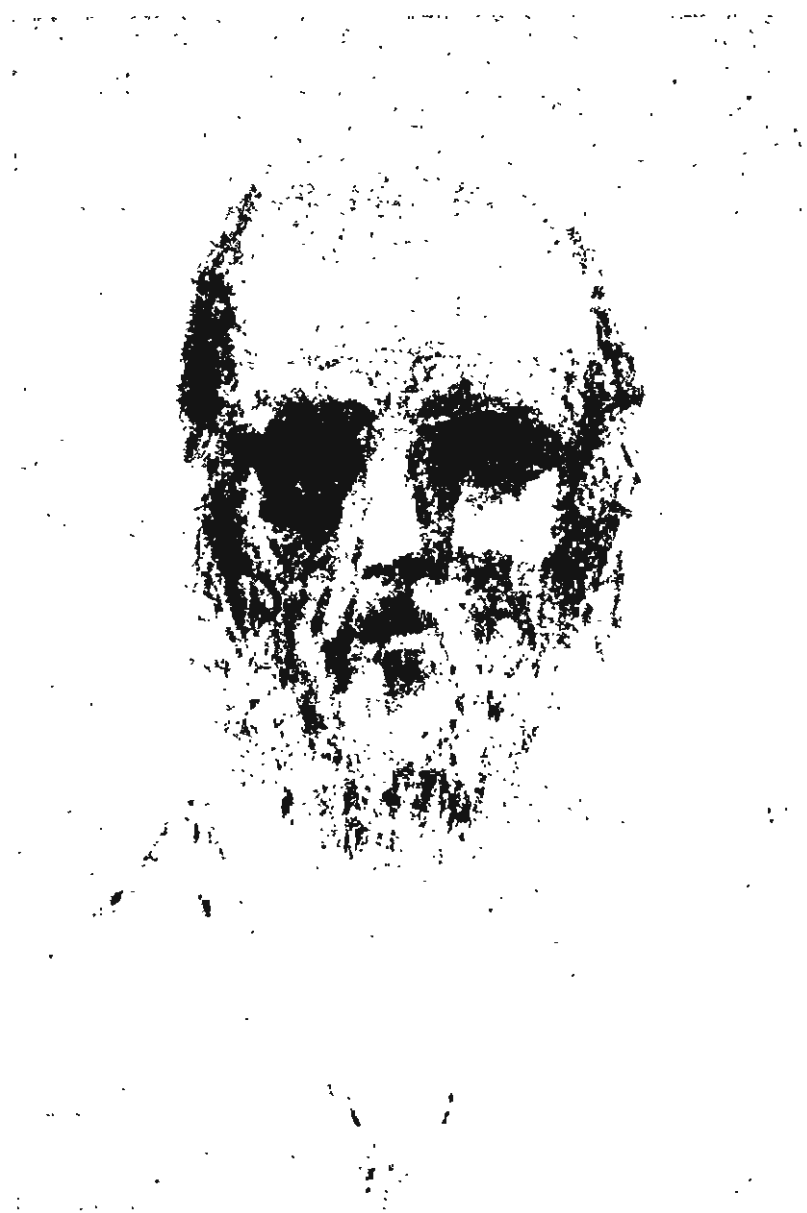
وقد يُظن أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، بدليل أنه لم
يتم دراسته فى الكلية ، النخ . فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ،
غير أن حسابانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير . ولا أستطيع
هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختار هذه الطريق الا
لأنها الطريق الوحيدة التى كانت تجتذبه فى تلك الآونة ، لأنها الطريق
الوحيدة التى تتيح له فرصة رائعة هى أن يتمكن مرة واحدة من حل
الصراعات القائمة فى نفسه ومن الخلاص من عالم الظلمات والانطلاق
نحو النور . تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء جيلنا بعض الشيء ،
أى كان انسانا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد « الحقيقة » وتسمى اليها
وتؤمن بها . فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة فى أن يقف على
خدمتها كل روحه ، وأن يؤكد ايمانه بأفعال من غير ابطاء أو تلكؤ ،
وأن يثبت عقيدته بالتضحية على الفور ، يحرقه الشوق الى العدول عن
كل شيء فى سبيلها والزهد بكل شيء من أجلها ، ولو كان هذا الشيء
هو الحياة ذاتها . من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع لا يدركون

أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع انواع التضحيات أقلها صعوبة فى كثير من الأحوال ، وان الزامهم انفسهم ببذل الجهد الشاق خلال خمس سنين أو ستة من الدراسة - ولو لمضاعفة وسائل تأثيرهم وأدوات عملهم بالمعرفة المكتسبة - بغية أن يخدموا بعد ذلك العقيدة التى يريدون ان يندروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا أعمالهم التى يحلمون بها تحقيقاً أتم وأكمل ، أقول ان الزامهم انفسهم ببذل هذا الجهد يتطلب شجاعة أكثر من الشجاعة التى تتطلبها التضحية بحياتهم . تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق فى كثير من الأحوال قوى هؤلاء الشباب . صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التى كان يسلكها فى ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع فى هذه الطريق برغبة قوية حارة فى الفعل والعمل لا تقل عن رغبة الآخرين . انه منذ فكر تفكيراً عميقاً فافتتح بوجود الله وخلود الروح قال لنفسه على نحو طبيعى تماماً : « اتنى أريد أن أعيش للخلود ، واننى أرفض التسويات وأنصاف الحلول » . ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فافتتح بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدًا واشتراكيًا (لأن الاشتراكية ليست نظرة الى مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق عليه اسم « الدولة الرابعة » ، وانما هى قبل كل شئ نظرة الحادية وتجسيد حديث للكفر بالدين . انها قصة برج بابل القديمة التى أراد البشر أن يشيدوه بلا اله كما يحاولون ذلك الآن ، لا ليرفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) . ما كان لأليوشا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش فى الماضى . لقد قيل : « هب كل ما تملك واتبعنى اذا أردت أن تبلغ الكمال » ، فحدث أليوشا نفسه قائلاً : « هل فى وسمى أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب » كل شئ » ؟ واذا أردت أن أمتعجب لنداء « اتبعنى » فهل أكتفى بالذهاب الى

الصلاة ؟ • من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا فى ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير فى الماضى للصلاة ؛ ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التى كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد جذبتة أيضا • ومهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا فى ذلك الوقت مفكراً حالمًا ، ربما للاستطلاع وحده ، ربما ليرى هل يعطى « كل شئ » أم يعطى روبلين فصحب • ولكنه التقى فى الدير بشيخ الرهبان ذاك •

انه شيخ الرهبان زوسيم ، كما سبق أن أشرت الى ذلك • وقد آن لى أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذى يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان فى أديرتنا • سوف أحاول ، رغم اننى أشعر ، على أسف ، بأننى لست بالعالم الكفء فى هذا المجال ، وبأن معارفى ليست راسخة جدا فى هذه الشؤون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحيًا • ويجب أن أذكر قبل كل شئ ان المختصين فى هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التى يمثلونها لم تظهر لدينا فى الأديرة الروسية الا فى عهد متأخر بعض التأخر ، فى عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت فى الشرق الأرثوذكسى كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آتوس منذ أكثر من ألف عام • ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا فى روسيا فى أزمئة بعيدة ، أو لملهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التترى والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود • ثم لم تهم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك فى بلادنا الا فى نهاية القرن الماضى على يد أحد كبار

المتاضلين منا فى سبيل الايمان ، ألا وهو الناسك بائيسى فيلثسوفسكى *
(كان يسمى ناسكاً) ، وعلى يد مريديه ، غير أنها لم توجد خلال تلك
المدة كلها ، وهى تقارب مائة عام ، الا فى عدد صغير من الأديرة ، بل
لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد والتعذيب
كما لو كانت بدعةً خارقة . ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصةً
(فى روسيا) فى الصحراء الشهيرة ، صحراء كوزلسكايا أوبينا * . أما
متى دخلتُ الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك
أمر اعترف بأبى أجهله ، ولكنى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير
ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيم . كان زوسيم يحس أنه يوشك أن
يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا
مات . ان لهذه المسألة شأنًا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك
شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها
معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط
بتاريخنا القومى . ان هذا الدير لم يشارك فى أى عمل باهر ، ولم
يسهم فى أى عمل وطنى . انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا
فى روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج ذرافات
من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة
فى رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم . فما هو الشيخ على وجه
التحديد ؟ انه السيد المطلق الذى يسيطر على النفوس والارادات ،
ويحتوى فى ذاته جميع ما تجهش به نفوس مريديه من صبوات وأفكار .
فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطاعة
مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان . والذى يختار هذا النظام القاسى ،
ويرضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهيبة ، انما يفعل ذلك بارادته ،
أملًا فى أن يصل ، بعد محنٍ طويلة ، الى التلب على ذاته ، والى



الشيخ زوسيم
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ، الى الحرية الحقيقية : أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوّفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدا الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل الى بلادنا . ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجرد « الطاعة » التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتا الروسية . فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفرض ثقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ فى اتصال روحى أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلا أن راهبا مبتدئا من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فيما يقال ، فاشتهر فى البلد الجديد الذى مضى اليه بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكهنة يفرغون من تلاوة الصلوات ، حتى رأوا التابوت التى يضم رفات الشهيد يرتفع فجأة ويخرج من الكنيسة مسرعا ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعُرف أخيرا أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، مالم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا * ، اعتكف فى دير بجبل آئوس ، وهذا شيخه

يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذي ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عده من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا . قال له الشيخ : « هنالك مكانك لا هنا » . حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خائق ويأس مضم ، فمضى الى القسطنطينية ، وسمى الى رئيس البطارقة ، ونوَّسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة . ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد في العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذي فرضه عليه وألزمه به . هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح في بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود . وذلكم هو السبب في أن أنصار هذا النظام قد تعرضوا في كثير من أديرتنا في أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد . ولكن الشعب قد أجل المشايخ اجلالا كبيرا وقدسهم تقديسا عظيما . من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من عليا القوم ، يظهرون لهم اكبارهم واعجابهم ويُسرتون اليهم ، في مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد . وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الخطوة التي نالوها وهذه الثقة التي اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة بدعة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوَّح به الرهبان المبتدئون أو الأشخاص العاديون لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف . غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا في بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى

أدبرتنا • يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع
عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح
روحى للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالاً
روحياً ، يمكن أن يصبح فى بعض الأحوال سلاحاً ذا حدين ، وأن يخلق
لدى بعضهم ، لا تواضعاً وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خيثة
وعنجهية شيطانية ، أى أن يودى الى استعباد النفس بدلا من تحريرها •
ان الشيخ زوسيمّا هو الآن فى الخامسة والستين من عمره ، كان
فى سالف الزمان « بومستشيك » انخرط فى العسكرية فى صدر شبابه ،
وعمل ضابطاً فى القوقاز • لا شك أن شيئاً ما كان ينبع من روحه ،
فأحدث فى نفس أليوشا تأثيراً قوياً • كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها
التي كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفاً كبيراً ،
فارتضى أن يكون له ولياً حميماً • يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم
أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية قاعدة ، ولم يكن
قد قيد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يقبض عن الدير ما شاء له هواه أن
يقبض ، وربما غاب عن الدير أياماً بكاملها • ولئن ارتدى مسوح الرهبان ،
فلقد فعل ذلك بإرادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شئ • على أن
من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضاً • ولعل خيال
أليوشا المراهق قد افتن افتتانا قوياً بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين
كانتا تحيطان بشيخه • ويقان ان زوسيمّا هذا كان قد اكتسب من طول
ما استقبل خلال هذه السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا
يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسسدى
اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة
النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح
فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرقه من أسرار وما أقضى به

اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجعون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستسرة ، قد أصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التي تجيش في نفسه وحتى الآلام الخبيثة التي تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليكاد يرمى في قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة . وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف ، حتى إذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج رابط الجأش ثابت الجنان هادئ النفس مطمئن البال مشرق الوجه متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة في أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة . ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة . بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح . وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ يحب خاصة أولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا . صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى في نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كراهة ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ، وكانوا لا ينتقدونه صراحة ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذي كان من أقدم رهبان الدير ، والذي اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام . غير أن أكثر الرهبان قد انحازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشك أن يكون تعصبا ،

فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قدس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك فى أنه قدس ؛ واذ كانوا يتنبأون بموته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وكانوا يسمعون سلفا للمجد الذى سيناله الدير فى مستقبل قريب ، لأنه سيضم رفات انسان مثله • وكان أليوشا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المبد • لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جامعا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا اذا هم يمودون فيرتمون على قدمي الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتسائل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحصنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى ، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة فوق الطبيعة كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له • كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضيء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجبين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينحنون أمامه ، ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصبحون صيحات الوجد والنشوة • وكانت النساء تمد اليه أطفالها أو تجيئه برجالها ليشفيهم • فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، وباركهن قبل أن يصرفهن • وقد أصبحت نوبات المرض فى الآونة الأخيرة تبلغ من اضعافه فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون خروجه أيا ما بكاملها • ان أليوشا يرى أن من الطبيعى أن يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة •

انه يفهم لماذا يرتمون على قدميه ويكون حناناً حين يرون وجهه • كان أليوشا يشعر شعوراً قوياً بأن نفساً مذعنة كنفس الشعب الروسى ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضئها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة - خطايا الناس وخطايا هى - كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك هيكلًا أو قديساً تستطيع أن ترفع أمامه متعبدة قائلة : « انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير ... ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ؟ فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هى الحقيقة ، فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضا فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما جاء فى الكتاب . » • كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم الشعب • فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايمانا لا يقل عمقا عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن ايمان الفلاحات اللواتى يمددن صفارهن الى الشيخ ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجدداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين أى راهب آخر • ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوما بعد يوم • وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائي فى هذا العالم رغم كل شئ • كان يقول لنفسه : « أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّاً بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض بغية أن يصير جميع الناس قديسين وأن يحب بعضهم بعضا ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعا سيصبحون كآبناء الرب ، وسيسود ملكوت

يسوع المسيح . . . ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا .
ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين
قد أحدث فى نفس أليوشا أثراً كبيراً فى تلك الآونة . لقد تفاهم مع
أخيه غير الشقيق ، دمتري فيدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمق من
تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل
دمتري . كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كتب ، ولكن
رغم أنهما يسشان تحت سقف واحد منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان
كثيراً ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقى : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً .
لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوى على نفسه فى نوع من
الخشية أو من الحرج الداخلى ؛ وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته
الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح
لا يهتم به . وكان أليوشا يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فرق
فى السن والثقافة . غير أن تعليلاً آخر كان يساور فكره أحياناً ، فكان
يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال
يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشغول
البال دائماً بشيء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جداً ، وأنه يتطلع الى
بلوغ هدف لعله رفيع جداً وصعب جداً ، فما يتسع وقته كثيراً لأن يلتفت
الى أخيه وأن يفكر فيه . أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقى الوحيد
لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن
أن يشتمل هذا الموقف على شيء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه
راهب مبتدئ غيبى ؟ لقد كان أليوشا يعلم أن أخاه لا يؤمن بالله . ان
مثل هذا الاحتقار - اذا وجد - قد لا يكدر أليوشا ، ومع ذلك كان
أليوشا ينتظر ، بقلق غامض تخالطه خشية ، اللحظة التى يقرر فيها
أخوه أن يقترب منه . أما دمتري فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه

ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها حماسة عظيمة . ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية التي خلقت بين الأخوين في الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشتت أحدهما الى الآخر شدةً وثيقاً . وكانت هذه الحماسة التي يظهرها دمترى في تقدير أخيه ايفان تكسب مزيداً من الدلالة في نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلاً لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يملكان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر في الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور اسمائين بينهما من قوة التعارف وشدة التفاوت ما بين هذين الأخوين .

وفي تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلي أو قل الاجتماع العائلي في حجرة الشيخ زوسيم بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة ، وذلك حادث كان له في أليوشا تأثير كبير . الحق أن الهجة التي اخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة . ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ في تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق . وان فيدور بافلوفتش هو الذي اقترح - مازحاً فيما يظهر - أن يُعقد اجتماع في حجرة الشيخ زوسيم بغية الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى المودة وأدنى الى الصفاء ، دون اللجوء الى تدخل الشيخ في الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا في الجميع تأثيراً يهدى النفوس ويصالح القلوب . وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذي لم يسبق له أن زار الشيخ يوماً والذي لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعاً أن الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويله بسلطان هذا الشيخ . ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدي ، لأنه كان في سرّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة

والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول
أحيانا كثيرة فى الآونة الأخيرة . ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن
فى منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وإنما كان يقطن وحيدا فى
الطرف الآخر من المدينة . وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بطرس
ألكسندروفتش ميوسوف الذى كان يقيم فى مدينتنا آنذاك ، أن تبني
الرأى الذى اقترحه فيدور بافلوفتش . انه ، وهو اللبرالى على طراز
سنوات ١٨٤٠ - ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد الكافر بالأديان ، قد ساهم
فى هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة
طائشة فى السخرية والاستهزاء . وقد انتهى فجأة أن يرى الدير وأن
يرى « قديس » الدير . واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد
طال عليها الأمد ، واذ أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضييه
وحود أراضي الدير ، وعلى الحقوق النامضة فى قطع أشجار الغابات
وصيد أسماك النهر ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع
بنتهز هذا الظرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان* شخصا ،
ففى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى
القضاء ! وقد ذكر فى تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية
الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالا لطف وأكرم من الاستقبال الذى
سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر .
وقد أتاحت هذه الاعتبارات المختلفة تحريك بعض المؤثرات فى داخل
الدير ، وفعلت فعلها فى الشيخ المريض الذى أصبح منذ زمن لا يكاد
يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا
أن يفدوا اليه . لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحدد موعد للمقاء ،
واقصر الشيخ على أن يقول لألبوشا وهو يتسم : « ما أنا فى الحقيقة حتى
يحق لى أن أكون حكما بينهما ؟ » .

حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلملهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسمى الى الشيخ وتجرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الإدراك . فأخوه ايفان والسيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربما بداعى الفضول اللفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرجة . ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفد بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء . غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ ، فكان يرتعد قلقاً عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدد للزيارة أن يبلغ أخاه دمترى بواسطة صديق لهما كليهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ،

ثم أجاب أخاه في رسالة مكتوبة بأنه سينزل قصارى جهوده في سبيل أن يسيطر على نفسه وفي سبيل أن يتجنب أى « صفار » ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احتراجه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فخاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وحتّم رسالته بقوله : « ومع ذلك فانتى أوثر أن أبلغ لسانى على أن أقول كلاماً يؤذى هذا الانسان المقدس الذي تجله وتعظمه . » • غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيّلة بأن تطمئن اليوشا •

الباب الثاني: اجتماع في غير محل

١

الوصول إلى الدبر



ذلك في صبيحة يوم من أواخر شهر آب
(أغسطس) ، يوم مضيء حار • ان لقاء الشيخ
قد حَدَّثَتْ له الساعة الحادية عشرة والنصف ،
بعد نهاية الصلاة الثانية فورا • ولكن أصحابنا
الزائرين لم يروا أن من الضروري أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا إلى
الدير لحظة انتهاء القداس • كانوا قد ركبوا عربتين • فأما الأولى فهي
مركبة أنيقة من مركبات السادة يجرها حصانان جوادان ، فيها بطرس
الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصحبه في نحو العشرين من عمره ،
اسمه بطرس فومتش كالجانوف ، وهو يمت إلى ميوسوف بقربى بعيدة •
ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريبا ، ولكن ميوسوف الذي كان
الشاب يعيش في تلك الفترة عنده ، يريد أن يصبط حبه إلى
الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات في جامعة
زوريخ أو جامعة فيينا • لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره
بعد • فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلا • هو فتى قوى البنية طموح
القامة حلو الوجه ، ولكن نظراته تجمد في بعض الأحيان جمودا غربيا :
كان يتفق له في بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع كبار الذاهلين ،
أن يحدق إلى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم • وهو

فى الماده كثر الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شىء من خراقة ، ولكنه
يتحمس فى بعض الأحيان - اذا خلا الى صديق - فينطلق عندئذ على
سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب
ظاهر . على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما ثبت بسرعة . والفقى
حسن الهندام دائماً ، على شىء من تألق . وهو يملك ثروة حسنة تكفل
له الاستقلال منذ الآن ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم . ولقد كان
صديقاً لأليوشا .

وأما العربى الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه ايفان
فيدوروفتش ، وهى عربى عتيقة مهترئة مترنحة مقرقة ، ولكنها فسيحة ،
يجرها حصانان عجوزان أشبهان كانا يلقيان عناءً فى اللحاق بمركبة
ميوسوف ويتركان لها دائماً أن تسبقهما .

أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء
وساعته ، منذ الليلة البارحة .

ترك الزائرون عربتهما قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب
الدير سيراً على الأقدام . يظهر أن أحداً من هؤلاء الزائرين ، باستثناء
فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ؛ أما ميوسوف
فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاماً . كان ينظر
حواليه بشىء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم
الاهتمام وقلة الاكتراث . ولكن ما من شىء فى داخل هذا الدير كان
يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المباني الدينية والمباني
الضرورية لحياة الرهبان المشتركة ، وهى مباني ليست على حظ وافر
من جمال فن العمارة . كان أواخر المصلين يخرجون من الكنيسة
ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رؤوسهم ؛ وهم أناس

من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان أو ثلاث سيدات ، وجرال عجوز جدا • كان هؤلاء جميعا قد نزلوا فى الفندق • وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يهتم بهم ولم يلتفت اليهم ، باستثناء بتروشكا كالجانونف ، فقد أخرج من حافظه نقوده قطعة عشرة كوبكات ، وسارع يدهسها مضطرباً بعض الاضطراب - لا أدري لماذا - سارع يدهسها خلسة فى يد احدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : « توزعوها جميعا » • لم يُبد له أحد ملاحظة على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه •

استغربوا أن أحدا لم ينجى لاستقبالهم فى الدير • يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يُستقبلوا استقبالا فيه حفاوة • ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل فى الآونة الأخيرة ؟ أليس الثانى منهم رجلاً غنياً جداً من أصحاب الأتيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهناً به فيما يتعلق بحقوق الصيد فى النهر اذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجيء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة ، وهمّ أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقّ لهم أن يدفنوا موتاهم فى مكان يبلغ هذا المبلغ من « القداسة » ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالسخرية اللبرالية تحرك فى نفسه نوعاً من غضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

— لا يعلم الا الشيطان من الذى ستتجه اليه فى هذه الفوضى ...

وعليتنا مع ذلك أن نسرّع فان الوقت يمضى ...

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصلع ،
متلطف النظرة • انه يرتدى معطفا فضفاضا من معاطف الصيف • رفع
الرجل قبعة ، وقدم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعذب مترقق ينطق
الجيـم زايـا ، قائلاً انه الملاك ماكسيموف من اقليم تولا • وسرعان
ما أدرك حيرة القادمين فقال :

- ان الشيخ زوسيمـا يقطن الصومعة فى مكان منزوٍ على مسافة
أربعمائة قدم من الدير • فيجب للذهاب اليه اجتياز الغابة الصغيرة ،
هذه الغابة الصغيرة •••

فأجاب فيدور بافلوفتش :

- أعرف أن منسكه يقع وراء الغابة الصغيرة ، ولكننا نسينا الطريق
اليه ، لأننا لم نجىء الى هنا من زمان طويل ••••
قال الرجل :

- يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأساً فى الغابة ••• الغابة
الصغيرة •• هيأ بنا •• هل أستطيع أن •• انى أنا أيضاً ، أنا أيضاً ••
الطريق من هنا ، من هنا ! ••

خرج الجميع من الباب وساروا فى الغابة • كان مالك الأفيان
ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ،
بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضاً ، وهو يتفرس فيهم بنوع من
استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعاً يدعو الى الدهشة •
قال ميوسوف بلهجة قاسية :

- يجب أن أقول لك اتنا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمر تتعلق بنا
وحدنا ، وقد فرنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه « الشخصية » ، فلعلك

تدرك اذن أننا مع شكرنا لك على أنك تدلنا على الطريق نسألك أن
لا تصحبنا في الدخول عليه .

– لقد كنت عنده ... كنت عنده ... هو فارس عظيم ..

قال الرجل ذلك وهو يصفق بأصابعه في الهواء .

سأل ميوسوف :

– من ؟ من هذا الذي تصفه بأنه فارس ؟

– الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ ... شرف هذا الدير
ومجده .. زوسيم .. ذلك الشيخ .

وفي تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد
النحول ، شاحب اللون جداً ، يرتدى برنساً ، فقطع على مالك الأطيان
حديثه المضطرب المفكك . توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف . وخاطبهم
الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحني أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه
مستوى الحزام :

– ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ،
حين عودتكم من الصومعة ، بالمجيء اليه جميعاً لتناول طعام الغداء .

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

– وأنت أيضاً مدعو .

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار له فرحاً بهذه الدعوة :
– سأجيء ، سأجيء حتماً ... لن أتخلف عن المجيء ! اعلم أننا
قد تمهدنا جميعاً بأن نتصرف هنا باحتشام . هل تجيء أنت أيضاً يا بطرس
ألكسندروفتش ؟

- سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لولا حرصى على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيد الذى يقلقنى الآن هو أنتى فى صحبتك يا فيدور بافلوفتش !

- نعم ! وما رأيكم فى دمترى فيدوروفتش الذى لم يتنازل أن يصل حتى الآن ؟

- ليته لا يصل أبدا ! أملك تظن أنه يسرنى أن أجد نفسى متحمماً فى جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

- اتنا تقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا .

فأجاب الراهب :

- أنا باق معكم ، لأنتى مكلف باصطحابكم الى الشيخ .

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقا :

- أما أنا فذهاب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأساً . أنا ذاهب اليه حالا .

قال الراهب متردداً :

- الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن ...

قال ميوسوف بصوت عالٍ بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة :

- يا للعجوز الصغير المزعج !

فصقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله :

- انه يذكرني بفون سون ! *

- كل شيء يذكرك بفون سون ؟ أى شبه بينه وبين فون سون ؟
وهل رأيته أنت ، فون سون هنا ؟

- رأيت صورة له • قد لا يشبهه بملامح الوجه ، ولكنه يشبهه
بشيء يصعب تحديده ••• هو نسخة عن فون سون • أنا لا يخطئني
الظن أبداً فى مثل هذه الأمور • تكفينى نظرة واحدة ألقيا على
الوجه •••

- طيب • لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال • ولكن
لا تنس يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على
أنفسنا عهداً ليكون سلوكتنا هنا محتشماً • تذكر هذا • راقب نفسك •
اتنى أطلب اليك ذلك جازماً قاطعاً اياك أن تأخذ فى تمثيل دور المهرج •
اتنى أرفض أن أؤخذ بجريرتك وأن أحمل وزرك •

قال سيوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

- أرايت أى نوع من البشر هو ؟ يميناً اتنى أخشى أن أذهب فى
صحبتة الى عند أناس محترمين •••

اوتمست على شفتى الراهب الرقيقتين الناويتين ابتسامة ناعمة
صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء • لقد كان واضحاً
كل الوضوح أنه انما يعتمد الصمت شعوراً منه بكرامته الشخصية •
قطب مبوسوف حاجبيه مزيداً من التقطيب • وقال يحدث نفسه : « شيطان
يأخذ جميع هؤلاء الرهبان مع أوضاعهم الخارجية المدروسة بعناية ،
الثابتة منذ قرون ! ما هذا كله الا سخف ودجل ! » •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

- هذه هي الصومعة ! هذا هو المنسك ! لقد وصلنا ! الحديد موصلد
والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين
التي تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه • وقال :

- لكل دير قواعد تجب مراعاتها • هم هنا خمسة وعشرون قديساً
على وجه التقريب ، يشدون الأمن والسلامة والخلاص في هذا المنسك ،
يتفرس بعضهم في بعض ويأكلون الكرنب المخلل • ولكن ما من امرأة
واحدة يُسمح لها باجتياز هذا الباب • ذلك أعجب شيء هنا ، ولكنه
حقيقة • فكيف نعلل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل في هذا المكان
سيدات في بعض الأحيان كما قيل لي ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجهاً به الى الراهب •
- ان نساء من عامة الشعب توجد هنا في هذه اللحظة نفسها •
تستطيع أن تراهن : انهن ينتظرن قرب الرواق جالسات أو راقدات •
أما سيدات المجتمع الراقى فقد خصصت لهن في الرواق ، ولكن على
الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراها من
هنا • فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلي متى أحس بأنه قادر على ذلك ،
دون أن يجتاز السياج طبعاً • وثمة سيدة من مالكات الأطيان هي الآن
هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة هوخلاكوفا • أغلب
الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن
أنه أصبح لا يكاد يخرج •

- هناك اذن ممر يؤدي من المنسك الى السيدات • لا يذهبن بك
الظن أيها الراهب المحترم الى أن في كلامي هذا شيئاً من غمز ! حاشاً ••
فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النساء ،

فى جبل آتوس ، ولا شك أن ذلك قد ذكر لك ، ليست وحدها
ممنوعة ، وإنما يُمنع هناك أيضاً وجود الأنثى من أى نوع من أنواع
الحيوان ... فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتل
وجودها هناك ؟ ...

- فيدور بافلوفتش ، اذا استمرت فسأنصرف وأتركك وحدك !
ولئن انصرفت أنا ليُخرجُكَ من هنا جراً من كتفك ! إننى
أحذرك ...

- وددت لو أعرف ما الذى يزعجك منى يابطرس ألكسندروفتش؟
كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج
المنسك :

- انظر الى وادى الأزهار هذا الذى يعيشون فيه ! ...

حقاً ... ان الناظر يرى أزهاراً رائعة نادرة ، وان لم ير وروداً
فى هذا الألوان • لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال • وكان واضحاً
أن يداً ماهرة صناعتها هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب • ان هناك
أحواض أزهار بين القبور وعلى طول الجدران • والبيت الصغير الذى
يضم حجرة الشيخ ، والذى كان مبنياً بخشب ومؤلفاً من طابق واحد مع
رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضاً بالأزهار تطوّقه من كل جهة •

- قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ،
الشيخ فارسونوف ؟ يُقال انه كان يكره الترف وان الأناقة كانت تنضبه
كثيراً حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات •

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يقترب من درجات المدخل •
أجاب الراهب الصغير قائلاً :

- كان مظهر الشيخ فارسونوف يومه حقاً فى بعض الأحيان أنه
إنسان بسيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التى قيلت فى حقه
ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد فى يوم من
الأيام ! انتظروا هنا لحظة يا سادة • سأبلغ الشيخ قدمكم •

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمم قائلاً ليفدور بافلوفتش :
- أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش ••• أحسن التصرف ،
والا جعلتك تندم ! •••

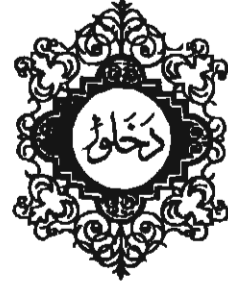
فأجابه فيدور بافلوفتش ساخراً :

- لا أستطيع أن أفهم ما الذى يجعلك تثير الأعصاب الى هذه
الدرجة • أهى خطاياك تعذب ضميرك ؟ أثبت خائف من قدرة هذا
الشيخ ؟ يقال انه يقرأ فى أعين الناس ، ويستشف كل ما يجيش فى
الضمائر وكل ما يثوى فى قرارة النفوس • هل يجوز لرجل باريسى
تقدمى مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأى هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا
ليدهشنى منك قليلاً ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخریات ، لأنهم قد دعوا
الى الدخول • وكان يشعر ، وهو يدخل ، بحرق يلم به وغيط يغزو
قلبه •

قال يحدث نفسه : • اننى أعلم ما سيحدث الآن • أنا أعرف
نفسى • سوف تور أعصابى ، سوف أغضب ••• سوف أتهمس ، فبذلك
أخفض قدرى وأغض من قيمة آرائى • • •

الحج العرفى



الحجرة فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الشيخ على عتبة مهججه قريباً • كان فى الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما • ان أحدهما هو الأب القيم على مكتبة الدير ، والثانى هو الأب بائيسى • ان الأب بائيسى رجل مريض جداً رغم انه غير طاعن فى السن كثيراً ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم • وكان هنا لك فتى يبدو فى الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف فى ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفاً حتى نهاية الاستقبال) • انه طالب سيصبح فى المستقبل لاهوتياً ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية • هو شاب طويل القامة ، نضر المجيسا ، عريض الوجنتين ، تضى وجهه عينان شهابوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه • وكان وجهه ينصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة • انه لم يسلم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالاً بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه ندأ لهم ، بل شخصاتاً نوياً مرعوساً •

دخل الشيخ يصحبه ألبوشا ومترهب مبتدى • نهض الراهبان

الكاهنان فسلّما على الشيخ سلاماً عميقاً وانحنيا له حتى لامست أصابعهم الأرض ؛ ثم تبادلوا كلمات المباركة . وقبلما يدي الشيخ ، فباركهما الشيخ أولاً ثم ردّ عليهما التحية منحنيًا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لاسماً يديه الأرض . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التي قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحسّ ميوسوف انهم يسكبون فيها شيئاً من التصنع والافتعال . وكان ميوسوف في مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه - وذلك أمر فكّر فيه طويلاً منذ الليلة البارحة - ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك في هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التي طبعها الرهبان على يدي الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتمى بأن حيّا الشيخ تحية عميقة منحنيًا له الانحناءة الكبيرة التي ينحنيها رجل مهنّب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه هادئاً وصيناً وقوراً . واقضى فيدور بافلوفتش أثره فحأكاه في كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده تقليداً ، ولعله فعل ذلك عامداً . وسلّم ايغان فيدوروفتش هو أيضاً سلاماً وصيناً مهذباً ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسي أن يسلم . وأنزل الشيخ يده التي كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا . صعد الدم الى خدي أليوشا . لقد كان يشعر بالضجل والخزي من ذويه . ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الأكلجو ، قديمة الطراز جداً ، مغطاة بجلد ؛ وأجلس ضيوفه ، بامسئاه الراهبين الكاهنين ، صفّاً

واحدا أمام الجدار المقابل مشيراً لهم إلى مقاعد أربعة من خشب الأكالجو
مغطاة بجلد أسود رثٍ جداً • وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ،
أحدهما قرب الباب والثاني أمام النافذة • أما الطالب واليوشا والمترهب
المتبديء فقد ظلوا واقفين • ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها
عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذى فيها عادى فقير يقتصر على ما هو
ضرورى لا غنى عنه • وهذان أصيصان للزهر يزينا حافة النافذة ،
وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدر في ركن من الغرفة ، احداها
للسيدة العذراء ، وهى أيقونة كبيرة جداً يرجع تاريخها الى عهد سابق
على الاشفاق الدينى * • وعلى جانبى العذراء صور " مقدسة أخرى فى
صناديق من معدن لامع محفور ؛ وبمدها بقليل يرى الرائي تماثيل أطفال
لهم أجنحة ، وبيضاً من خزف ، وصلباً كاثوليكياً مع أم محزونة تضم
الصلب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان
فى القرون الخوالى ، وهذا كله قد اختلط بمضه ببعض فوضى ؛ وإلى
جوار تلك الصور الفنية التى لها قيمة كبيرة يرى الرائي عدة صور
ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء ، هى من تلك
الصور التى تباع فى جميع أسواق البلاد بكوبك واحد • وهناك صور
ليتوغرافية أخرى هى وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين
الجدران الأخرى من الشرفة • طاف ميوسوف على هذه التفاهات ،
بنظرة سريعة ، ثم حدث إلى الشيخ • ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة
نافذ البصيرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن تغفره له حتماً اذا نحن
تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهى سن يكون فيها اللسان
الذكى الذى ينتمى الى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيد قد تمود أن
يحترم نفسه كثيراً ، على غير شعور منه فى بعض الأحيان •
لم يعجبه الشيخ فى الوهلة الأولى • والحق أن فى وجه الشيخ

شيئاً يمكن أن لا يرضى غير ميوسوف أيضاً • هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين ، عمره خمسة وستون عاماً فحسب ، غير أنه يبدو أظمن في السن بسبب مرضه الذي يُظهره أكبر من عمره بشر سنين في أقل تقدير • وإن وجهه النحيل الضامر المعروق مخدّد كله بقضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة • وليست عيناه بالكبيرتين ، غير أنهما واضحتان صافيتان ، فيهما كثير من الحركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين • ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين • أما لحيته الدقيقة فهي صغيرة قليلة زهيدة ؛ وأما شفتاه اللتان كبيرتا ما تعبران عن الدهاء فانهما تبدوان أرقّ من مسيور الجلد ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير •••

حدث ميوسوف نفسه قائلاً : « ان كل شيء فيه يدل على ان له طبيعة كالطيرة شرسة ، وعلى أن فيه زهواً سخيفاً وكبرياء مسكينة » • وأحسن ميوسوف باستياء من نفسه •

ودقت الساعة تقطع الصمت • ان ساعة صغيرة بخضة الثمن كانت معلقة بالخائط ومزوّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتى عشرة دقة متتابعة سريعة ، مؤذناً بحلول الظهر • فصاح فيدور بأفلوفتش يقول :

— هو الموعد المحدد ولما يصل ابني دمتري فيدوروفتش • أرجو أن تعذرني أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش أليوشا حين سمع قول أبيه هذا « أيها الراهب المقدس جدا ») • لقد تعودت أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعد في يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأننى أتذكر أن دقة المواعيد هي أدب الملوك •

— ولكنك لست ملكاً فيما أعلم •••

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه • فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :
- صحيح • لست ملكا • ثق يا ألكسندر بتروفتش أنتى أعلم حق العلم أنتى لست ملكا ، لا يراودنك فى هذا شك ! ولكن هذا شأنى دائماً : أقول كلاما فى غير محله ، كلاما لا معنى له •

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجئ غريب :
- يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرج عريق • كذلك أقدم اليك نفسى • هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب فى كثير من الأحيان ، ولئن كنت أكذب عامدا ، ولئن كنت أكذب كذبا لا معنى له ولا داعى اليه ، فأننى لا أفضل ذلك الا فى سبيل أن أضحك الناس وأن أبهجهم • أليس من واجب الانسان أن يبهج أخاه الانسان ؟ اسمع ... منذ سبع سنين مثلاً ذهبت الى قرية صغيرة لعقد بعض الصفقات ، فلم البث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار القرية • قررنا أن نزور الايسبرافنك (رئيس الشرطة) الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء • استقبلنا الايسبرافنك • انه رجل ضخم طويل أشقر متجهج المظهر • ان الأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات • ان أكبادهم مريضة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مباشرة ان صح التعبير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : « هلاً تازلت ياميدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك * بمعنى من المعانى ؟ » ، فما كان منه الا أن أجاب قائلاً : « ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟ » • فسرعان ما أدركت أن كل شئ قد ضاع • صمت الرجل قاسى النظرة كالح الهيئة صعب المراس • حاولت أن أعتذر • قلت : « لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة

بغية أن أُنسج المرح في الجو . وأنت تعلم أن نابرافك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا في حاجة الى شيء فالى نوع من رئيس أوركسترا يحقق لمشروعنا الاساق والانسجام ظننت أنني قدمت له بهذا الكلام تفسيراً معقولاً قائماً على تشبيه سليم ، أليس هذا صحيحاً ؟ . . . فأجبنى قائلاً : « عفواً ، أنا ايسبرافك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع الوظائف . . . قال ذلك وأدار لى ظهره وانصرف . ركضت وراءه صائحا : « أنت الايسبرافك ! أنت ايسبرافك لا نابرافك . . ولكنه هزّ كتفيه ببرود وقال : « لا تحاول . . . لقد سميتى نابرافك ، فحسبنا هذا ! » . هكذا غرقت صفتقتنا فى الماء . . . فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسيء الىّ دائما فى هذه الحياة . من ذلك أننى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : « زوجتك يا سيدى حسّاسة اذا دغدغت » ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أُسيء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية . ولكن الرجل أسرع يسألنى فجأة : « أنت دغدغتها اذن ؟ » ولم أملك أن أقول رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : « والله . . . دغدغتها قليلا ، وهكذا ، . . . فليترك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! . . . غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحي الآن أن أرويها . فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوموف يقول باحتقار :

- وانك لتستأنف الاساءة الى نفسك فى هذه اللحظة .

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر .

- صحيح يا بطرس الكسندروفتش . . . ولكننى أعرف ذلك ،

وقد تنبأت به منذ فتحت فمى • وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا • وفى مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خدائى فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بثشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابه ، الى الأيام التى كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، وألتمس رزقى بتلك المهنة ! أنا مهرج يا صاحب السعادة ، أنا مهرج حقيقى ، مهرج مفطور على التهريج ، وإن شئت فقل يا صاحب السعادة اننى انسان بسيط أبله ! ... قد تكون الروح التى تحركنى غير طاهرة ، أنا لا أبجد ذلك ، ولكنها روح صغيرة • فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لا اختارت لها مسكناً أفضل • على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضاً يا بطرس الكسندروفتش ، لأنك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورنى الشك الا فى الآونة الأخيرة ، وهأنذا الآن أمامك ، يا صاحب السعادة ، أنتظر كلمة تحررنى من اسارى • أنا يا صاحب السعادة مثل الفيلسوف ديدرو • لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الراهب المقدس جدا ، قد جاء يوماً الى البطريرك افلاطون فى عهد الامبراطورة كاترين* ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول فى برود : « الله غير موجود » • فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له باللغة السلافونية : « الطائش يقول فى سره : الله غير موجود » ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتبى فجأة على قدمي الكاهن صائحاً : « آمنت ، آمنت ، عمّدونى ! » • وسرعان ما تم تعميده على النور ، فالأميرة داخكوف* أمسكته على حوض التعميد ، وبوتمكين كان عرابه ...

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزاً عن كبح جماح نفسه :

— فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماماً أنك تكذب ،
وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، فقيم هذا
التمثيل ؟ •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول في حماسة فرحة :

— كنت طول حياتي أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه القصة كاذبة
لا أصل لها • والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها • غفرانك أيها
الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التي ذكرتها عن نعيم ديدرو إنما
اخرعتها في هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد
خطرت ببالي مرة واحدة من قبل ، وإنما أنا أضفتها رغبة في مزيد
من الملاحه ••• انتهى أمثل هذا التمثيل ليرضى عنى بطرس السكندروفتش
مزيداً من الرضى • ثم انتهى لا أدري أنا نفسى في بعض الأحيان لماذا
أفعل ذلك • أما عن ديدرو ذلك ، وعن قول الأسقف : « الطائش يكفر
بالله » ، فذلك نقطة سمعت السادة القرويين في هذه المقاطعة يروونها منذ
أكثر من عشرين عاماً ، وذلك في شبابي أيام كنت أعيش عندهم ؛ حتى
أن عمك نفسك يا بطرس الكسندروفتش ، عمك المحترمة مافرا
قوميننا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويها من أمور •
وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب
الى البطريك أفلاطون ليناقشه في مسألة وجود الله •

نهض ميوسوف نافذ الصبر ، شاعراً أنه فقد كل سيطرة له على
نفسه • لقد جن غضباً ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكاً هو أيضاً •
ان ما يجرى في هذه الحجرة لهو في الواقع أمر مستحيل لم يسبق أن
جرى مثله من قبل • فمنذ ثلاثين عاماً أو أربعين تتوافد على هذا المكان ،
حتى في عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن
أولئك الزائرين جميعاً بغير استثناء كانوا يجيئون ممثلين بروح الاحترام

والخشوع والتقديس • ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الحجرة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتضى على الأرض راکعاً وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة • وان أكثر الزائرين ، حتى أعلامهم مقاماً ، وأغزرهم علماً - وقد كان بينهم أناس يتصفون بحب النقد وكثرة المشاكسة والمييل الى الالحاد - أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الحجرة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم في هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، وما من أحد منهم أخلَّ يوماً بهذا الواجب أو خرج على هذه القاعدة ؛ لا سيما وأن الدير كان لا يطلب بأى مال ، وأن كل شئ فيه يتم محبةً واحساناً من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع الظمأ الى الحقيقة والرغبة القوية في حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب • كذلك كانت تجرى الأمور دائماً ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة في تهريج لا يليق بهذا المكان، تهريج لا بد أن يحدث في نفوس من يرون هذا المشهد أو في نفوس بعضهم على الأقل استغراباً شديداً ودهشة أليمة • فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردَّ الفعل عند الشيخ باتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً • وأما أليوشا فقد كان خافضاً رأسه مجاهداً مصابراً باذلاً قصاره حتى لا يبكى • ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفسان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذى كان يمكن أن يتدخل في الأمر ، قد لبث ساكناً على كرسيه ، غاضباً بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من

استطلاع ليس فيه اكتر اثار أو اهتمام ، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها . وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يحده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر ما يدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدبر على كل حال) .

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

— سامحنى ... لا شك أنك تمدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقة . ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن يحرص على أن يسلك سلوكا حسنا لائقا أمام شخص محترم مثلك ... فلو كنت تبتأت بأننى سيكون على أن أعذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن ...

لم يكمل بطرس الكسندروفتش جملته ، وكان قد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ صده عن عزمه وأوقفه . قال له وهو ينهض على ساقيه النحيلتين ويمسك بطرس الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

— لا تخش شيئا ، أرجوك ... هدىء روعك ، أرجوك ... ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة .

وبعد أن حيا مرة أخرى ، عاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة .

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

— تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتي هذه ، هل يسىء اليك اندفاعى هذا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعى المقعد بيديه كمن يستعد
لأن ينهض واثباً اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ
بصوت قاطع جازم :

- أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتخرج . لا تكرر نفسك على
شئ ، وتصرف كما لو كنت فى منزلك ... واياك أن تشعر بالخزى
من نفسك خاصة ، فان شعورك بالخزى من نفسك هو بعينه أصل البلاء .

- أنصرف كما لو كنت فى منزلى ؟ أتريد أن تقول ان على أن
أطلق نفسى على سجيته وأن أظهر على طبيعتى ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل
انه لجميل مسرف فى الجمال ، ولكننى أوافق ... اننى أقبل ما تقترحه
على شاعرا من ذلك بتأثر شديد وانفعال قوى . اسمع أيها الأب المبجل !
لا تدفنى الى حالة الطبيعة ، لا تتجاوز فتفعل هذا ... على اننى لن
أمضى بعيدا هذا البعد كله ، ولن أصل الى درجة الانطلاق على السجية
والظهور على حالة الطبيعة . وليس ما أقوله لك هنا الا تنبيهاً . أما فيما
عدا ذلك فان كل شئ ما يزال غارقا فى ظلمات الجهل ، رغم ما قاله
بعضهم فى وصف طبيعة نفسى . ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بطرس
الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذى هو ضياء كله ، فأننى أضع
عند قدميك اعجابى مندفعاً بغير حدود .

ثم نهض ورفع يديه الى السماء وقال :

- « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »* ،
نعم الثديان ... انك حين نصحتنى منذ هنيهة بأن « لا أشعر بالخزى
من نفسى ، لأن هذا هو أصل البلاء » ، قد نفذت الى سريرتى وقرأت فى
أعماق قلبى . ذلك بعينه هو ما أحسه . اننى أشعر دائماً ، حين أدخل
على الناس ، بأننى أخبت من غيرى ، وأن الآخرين جميعا يعدوتنى

مهرجاً ، فأخاطبهم عندئذ بيني وبين نفسي قائلاً : • ليكن •• سأمثل دور
المهرج طائفاً مختاراً ، ولست أخشى رأيكم ، لأننى أعرف أنكم جميعاً
شر منى وأجدر بالاحقار والازدراء ! • ذلك هو السبب أيها الشيخ
العظيم فى اتنى أهرج ••• اننى أهرج لشعورى بالخزى ، لشعورى
بمذلة عميقة ! اننى لانتدام ثقتى بنفسي اضطرب فأمثل دور المجنون !
آه ••• ليتنى ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقاً من أن
كل واحد سيعمدنى على الفور خير انسان وأذكى انسان فى العالم ، اذن
لأصيحت عندئذ رجلاً من أنبل الرجال •••

قال ذلك ثم ارتدى راحماً على حين فجأة يقول :

— ماذا يجب علىَّ أن أعمل ، يا معلم ، حتى أظفر بالحياة الأبدية ؟
انه ليصعب على المرء أن يقول فى تلك اللحظة هل كان الرجل
ما يزال يمثل ويهرج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟ •••
نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

— تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذى يجب عليك أن
تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك • امتنع عن الاسراف فى الشراب ،
لا تستسلم للفجور ، وتخلّ خاصةً عن عبادة المال • أغلق دكاكين بيع
الخمرة ، أغلق دكاكين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم تشأ أن تغلقها كلها •
وقيل هنا وذاك ، لا تكذب ••• فذلك أهم شئ •••

— أملك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

— لا ••• ليس الأمر أمر ديدرو ••• فانما الشئ الأساسى أن
لا تكذب على نفسك • ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تتطلى عليه
أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزاً عن رؤية الحقيقة فى أى

موضع ، فلا يعود يراها لا فى نفسه ولا فيما حوله .
لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غيره .
لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يبه الأمور .
أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء ويندفع وراء الملذات الخسيسة هذه
فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية
وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على
نفسه . ان من يكذب على هذا النحو يسرع كذلك الى اهانة نفسه .
ألا يشعر المرء بكثير من اللذة فى بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟
وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وإنما هو اخترع
الاهانة بنفسه اختراعاً فى سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالف
وغالى تزيناً للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على
غير معناها ، جاعلاً من الفأرة جبلاً ... هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع
الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذاً تلذذاً يبلغ حد الفرح ، فاذا هو
يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بكره حقيقى ... ولكن انهض
عن الأرض ، أرجوك ... اجلس فى مكانك ، أرجوك ، تلك كلها
أوضاع كذب أيضاً ...

— أيتها الانسان المقدس ، اسمح لى أن أقبل يدك العزيرة
اللطيفة ! ...

لقد نهض فيدور بافلوفتش بوثة ، واقترب من الشيخ بحرارة
وقوة ، وطبع قبلة رنانة على يده الضاوية المروقة .

— تماماً ، تماماً ، هذه هى الحقيقة . ان فى اهانة المرء نفسه لذة .
لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا
الكلام . لقد ظللت طوال حياتى أهين نفسى ، نشدائاً للذة ، بل وطلباً
للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أن يكون فيها جمال

فنى أيضا • ذلك ما نسبت أن تضيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم !
سوف أدون هذا فى دفترى الصغير • لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن
الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة • أنا فى الواقع كذب
يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لست للكذب أباه ••• لعل هذا التعبير
بقايا جملة قرأتها فبقيت فى ذاكرتى فاستيقظت الآن •• والأولى أن أقول
اننى ابن الكذب لا أبوه ••• يكفينى كبراً أن أكون ابن الكذب •••
ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت
عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ، أليس كذلك ؟ ان كذبة كهذه
لا تسمى الى أحد ، لا تؤذى أحداً ، على حين أن هناك أكاذيب ضارة •••
بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم ••• لقد أوشكت أن أنسى ••• اننى أنتظر
منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة اللقاء سؤال عليك • كنت أريد أن أعلم
منك ، كنت أريد أن أجيء الى هنا لهذا الأمر خاصة ، كنت أريد أن
أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً • ولكن أصدر أمرك أولاً
الى بطرس السكندروفتش بأن لا يقاطعنى • اليك ما كنت اريد أن
أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجل ان كتاب أسماء الشهداء القديسين
بروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد فى
سبيل إيمانه ، أى قطعوا رأسه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأسه من
الأرض ، ويعاينه فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملاً رأسه بيديه ،
حانياً عليه ملاطفاً له * • قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهنا صحيح أم لا ؟
قال الشيخ :

- بل هو غير صحيح •

وقال الراهب قيّم المكتبة :

- لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب أسماء

الشهداء • من هو القديس الذى تقصده ؟

- أنا لا أعرف عن هذا شيئاً • أنا أجهل كل شيء عن هذه الأمور •
لا شك فى اتنى خُذت وضُللت • لقد سمعت أحداً يروى هذه
القصة • وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بطرس
السكندروفتش هذا الذى ثار على منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذى
روى لى هذه القصة ، نعم هو ...

- هذا كذب • أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اتنى لا أكلّمك
أبدأ ، ولا أتحدث اليك يوماً !

- اعترف بأنك لم تروها لى أنا • ولكنك رويتها فى اجتماع كنت
أنا فيه • حدث ذلك منذ ثلاث سنين • ولئن كنت أتذكرها هذا التذكر
الواضح فلأنك قد زعزعت ايمانى فى ذلك المساء ، بتلك القصة
المضحكة ... نعم يا بطرس الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان
لك أن تتنبأ به ، ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن
يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيداً من
الهبوط • انك يا بطرس الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى
سقوطى الأخلاقى ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو ...

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثير ،
ولكن كان واضحاً لنا جميعاً فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرّج • ومع
ذلك شعر ميوسوف بأنه أودى ايذاءً شديداً أليماً • فقدم يقول :

- يا للسخف ! انك لاتقول الاحقات ! من الجائز حقاً أن أكون
قد رويت هذه القصة مرة ... ولكننى لم أكن أخاطبك أنت ! كنت قد
سمعت أنا هذه القصة ... حدث ذلك فى باريس • أكد لى فرمى أن
هذه القصة الواردة فى كتاب أسماء الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس •

وكان هذا الفرنسي رجلاً مثقفاً قد تعمق دراسة احصائيات روسيا تعمقاً كبيراً ، وكان قد عاش في بلادنا زمناً طويلاً ... أنا لم أقرأ كتاب أسماء الشهداء بنفسى ... ولست أتوى أن أقرأه على كل حال ... ما قيمة أحاديث تجري بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء ...

— أثناء عشاء ... ها ... ها ... يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى ! ...

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً !

فانفجر ميوسوف يصيح :

— ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه سرعان ما تاب الى هدوئه فقال بلهجة احتقار :

— انك تدنس كل ما تلمسه يدك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطباً جميع الحضور :

— معذرة أيها السادة • اننى مضطر أن أترككم لحظات • هناك

زوار ينتظرونى وقد وصلوا قبلكم !

ثم أضاف يقول بسرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

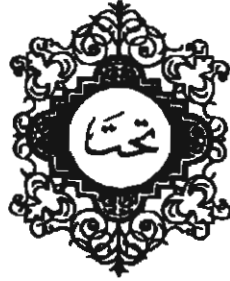
— أما أنت فاترك الكذب ! •• صدقنى ...

وخرج • واندفع اليوشا والمترهب المبتدىء ليمسكاه ويساعده على هبوط السلم • كان أليوشا قد نفذ صبره • وقد أسعده أن ينصرف • وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحباً دون غضب • وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك •

غير أن فيدور بافلوفتش وجد السيل الى استيقافه عند العتبة • قال بصوت
مخلتج :

- أيها الانسان المقدس جدا ، اسمع لى أن أقبل يدك المزيّزة
اللطيفة مرة أخرى • ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك دون أن يفقد
حبه للحياة وأقباله عليها وميله اليها • لا تظنّ أنّى أكتب هكذا طول
الوقت وأننى لست الا مهرّجاً • الحق أنّى فعلت هذا عامداً من البداية
الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحك ! لقد أردت أن أتأكد من
أنك رجل انساني ، ومن أن شخصي الهينّ يمكن أن يؤكد ذاته دون
أن يصدم كبرياؤك • فى وسمى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان
فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك • والآن لن أتكلم قط ، لن أقول
كلمة واحدة • سأجلس على هذا المقعد ، فألبث ساكناً حتى النهاية •
الكلام الآن لك يا بطرس الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن
تمثل دور الشخص الرئيسى • • مدة عشر دقائق •

إيمان نساء الشعب



قرب الرواق الخشبي المتاخم للحاجز
الخارجي من السور ، كان يزدهم جمهوز
ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددهن نحو
من عشرين فلاحه . لقد أبلغن أن الشيخ
سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتان هوخلاكوف
أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة
من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة هوخلاكوف الأم ، وهي
امراة غنية جداً أتيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهي لطيفة
باشئة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا موداوين على
سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها ،
وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهي في الرابعة
عشرة من العمر ، فهي مصابة بشلل في الساقين . لقد أصبحت العسيرة
المسكينة عاجزة عن المشي منذ ستة أشهر ، فهي الآن تخرج على كرسي
متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواء المرض قليلاً ، لكنه على
جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئاً من المكر يتراعى في عينيها
الصغيرتين القامتين اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى

منذ الربيع أن تمضي بها الى الخارج ، غير أن أعمالاً بدئت في أرضهما فأجبرتهما على البقاء في روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان في مدينتا الامنذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال في الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذي أصبح لا يكاد يستقبل الزائرين بسبب ضعفه وسوء صحته . لقد توسلتا بكثير من الاحلاح أن يُمنَّ عليهما « بأن تسعدا برؤية هذا انشافي العظيم مرة أخرى » . وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمي الى ديرنا ، ولكنه كان ماراً بالمدينة . لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع في منطقة نائية بشمال روسيا . ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضاً أن يحظى بمباركة الشيخ . ولكن الشيخ الذي ظهر على الرواق في تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقة الشعب . تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التي لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحفول الرواق الذي لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض . توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات ، وتلفع بجيبته وأخذ يبارك النساء اللواتي يزدهمن أمامه . قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة رهبة تدل على هذيان ، وهي ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها تعاني آلام ولادة . وضع الشيخ جيبته على رأس المريضة ، وتلا دعاءً قصيراً ، فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ . لا أدري ماذا يحدث الآن ، ولكنني في أثناء طفولتي قد أتبع لي مرارا أن أرى وأن اسمع هاته النسوة المريضات في قرانا وفي أديرتنا . كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو

نابحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة . فما ان يُقرَّب من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن كاملاً الى حين . لقد كانت المريضات تهدأ بعد الاقتراب من القربان المقدس في كل مرة ، الى أن توافيهن حالة « المس » ثانية . وقد أدهشني ذلك كثيراً في طفولتي وترك في نفسي أثراً قوياً . ولكنني حين سألت عن سرِّ هذا الأمر قال لي بعض الملاكين ، وقال لي معلوم مدرستي خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاتمة النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة . حتى لقد رُويت حكايات في بيان صحة هذا التفسير . ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة مني ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا في الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشاراً واسعاً في روسيا خاصة ، وأن مردَّة الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة في أريافنا من قسوة شديدة ؛ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات في بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن ؛ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مردها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبن من سوء المعاملة ، والى مايلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يدها غيرهن عادية لا غرابة فيها . فلما ذلك الشفاء المعجيب الذي تُنقذ به نساء مصابات بهذا المس متى أدنين من القربان المقدس - وهو شفاء يدعى بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجهن « رجال الدين » اخراجاً مسرحياً - فالحق أنه يرجع هو أيضاً الى أسباب طبيعية ؛ ثم ان النساء اللواتي يدنين المسوسات من القربان المقدس ، والمسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايماناً عميقاً



كليكوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

كإيمانهم بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخيثة التي حلت فيهم لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فإذا هي تبارحهم متى دنون منه وانحسرت له . لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى في جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبى نفسى مما منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؟ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذى لا بد منه فى نظرهن ، ولانتظار البرء الذى لا محيص عنه حتماً ، وهو نتيجة طبيعية لإيمانهم بالمعجزة إيماناً ليس له حدود . فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير . وهذا بعينه هو ما وقع فى الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة جبته وتلا دعاءه .

كان بين الجمهور الذى ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حاناً وخشوعاً وحماسة . واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأثر . وراحت قلة منهن ترتل بصوت خافت رتيب . باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن . وكان يعرف الكليكوشا التى قدمت إليه . انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؟ وما هذه أول مرة يؤتى بها إليه على كل حال .

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن فى السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ، لها وجه ليس ملوحاً ولكنه مسود اسوداداً غريباً (كانت راكعة على ركبتيها تحديق الى الشيخ بنظرة ساكنة جامدة ، وفى وجهها شيء من الوجد والنشوة) :

— هذه آتية من مكان أبعد .

فقالت المرأة بصوت كأنه الفناء وهى ترجيح رأسها ترجيحاً متواتراً موقفاً ، وقد أسندته الى راحة إحدى يديها :

— نعم يا أبى ، أنا آتية من مكان بعيد ، من مكان بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ .

كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى الترتيل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألماً أحرس مدعناً ، هو الم ينطوى على ذاته ويمتص بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجراً ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يمتص بعد ذلك بالترتيل . وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل من ألم الصامتين . ان الترتيل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيى جروح القلب بلا انقطاع ، وينكؤها بغير توقف . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسمى الى سلوى ، لأنها تقتضى من الشعور بسعة أبعادها ، فالترتيل انما يعبر عن الحاجة الى النزول الى هوة الألم وقاع العذاب .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

- لعلك من سكان المدن ؟

- أنا من المدينة أيها الأب الطيب ، نعم ... وان أكن قروية الأصل . نحن من سكان المدن لأننا نعيش في المدن . ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب ، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابني ، ابني الصغير ... فخرجت أضرب في الأرض حاجة ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقبل لي هنالك : « اذهبي اليه أيتها المسكينة نانا سيوشكا* » اذهبي لرؤيته هو ... يقصدون أنت .. اذهبي لرؤيته ... رؤية الأب العزيز جدا ... ، هكذا جئت اليك . أمس اعترفت وتناولت ، وهأنذا الآن أمامك .

- لماذا تبكين ؟

- أبكى صغيري أيها الأب الطيب . كان عمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر* . انني أبكى ابني ، أبكى صغيري . ذلك ما يعذبني . كان آخر أبنائي . كان لنا أنا وزوجي المسكين نيكيتوشكا* أربعة أبناء . ان

الأطفال لا يبقون عندنا • انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا •
دفنت الثلاثة الأول ، فسرعان ما تعزيت عنهم • أما ذاك ، الأخير ، فانتى
لا أستطيع أن أنساه • يخيل الى انتى أراه ، هنا ، أمامى ، أراه طول
الوقت • جفّت نفسى ، يس قلبى • أنظر الى ملبسه ، الى قميصه
الصغير ، الى حذاءيه ، فأخذ أنشج وأنجب • أعرض أشياء أمامى
لأناملها ••• أستعرض جميع بقاياها التى تذكرنى فأبكي • قلت لعزيرتى
نيكيتوشكا ، زوجى : « دغنى أمضى ••• أريد أن أضرب فى الأرض
حاجة » • زوجى حوذى • ولسنا فقراء أيها الأب الطيب • عندنا مال •
لا ترتبط حياتنا بأحد ، لا نحتاج الى أحد • نملك خيولا وعربة نفق
عليها من مالنا • فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزى نيكيتوشكا
الى طريق الضلال حين تركته • أخذ يشرب • أنا أعلم ذلك • وما هذه
أول مرة • كان يصفى كلما خولت عينى عنه • ولكننى الآن لا أحفل
بذلك • استوت غسدى جميع الأمور • أصبحت لا أفكر فيه • تركت
المنزل منذ ثلاثة أشهر • نسيته • نسيته كل شىء • أصبحت لا أريد أن
أتذكره • وما عسانى أفعل معه ؟ لقد أنهيت صلتى به ، أنهيت صلتى
بجميع الناس • لا أريد أن أرى منزلى بعد الآن يوما ، لا منزلى ولا
رزقى ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطه :

— اسمعى أيتها الأم الطيبة ! فى يوم من الأيام رأى قديس كبير
من قديسى الماضى ، رأى فى الهيكل أما تبكى ابنها الذى فقدته مثلما تبكين
ابنك الآن ••• كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه
الرب اليه • قال لها القديس : « ألسنت تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين
من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ ليس بين الناس
فى ملكوت السماء كله أحد أجراً من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون

للرب : « لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا ! » هم يكلمون الرب بهذه الجراءة ؛ وهم يتوسلون الى الرب أن يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة ، وهم يعرفون كيف يلحون في ذلك . . . وقال لها القديس بعد ذلك : « يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجي وافرحي ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنتك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة ! » بهذا حدث القديس في الماضي المرأة التي كانت تبكي . ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة . فاعلمني هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمي أن ابنتك الصغير يسكن الآن قرب عرش الرب ، فهو سعيد ، وهو فرح . . . وصلى للرب من أجله . كفالك بكاء . . . ابتهجي وافرحي ! . . .

كانت المرأة تصفي الى الشيخ مسندة رأسها الى احدى يديها ، غاضة بصرها . وتهدت تنهدا عميقا .

— بمثل هذه الأقوال انما كان يعزيني زوجي المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : « لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك في أن ابنتا هو الآن قرب الرب مع الملائكة . . . كان يقول لي هذا الكلام ، ويبكي هو نفسه ، وكنت أنا أرى أنه يبكي مثلما أبكي . . . قلت له : « أعلم ذلك يا نيكيتا . . . أعلم أن ابنتا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل ! ليتني أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر . . . وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيري الحبيب ! لن أقرب منه ، سأختبئ في ركن ، وسأصمت ! آه . . . أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتني أسمعه يلعب في فناء المنزل ، ثم يناديني بصوته الصغير كما كان يفعل : « ماما ! أين أنت ؟ » ليتني أسمعه يركض في الغرفة

على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض :
تلك .. تلك ولقد كان يجيء الى - اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا
جدا - يجيء الى راكضا صائحا ضاحكا .. آه .. ليتنى أسمع وقع
خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو ولكن لا
يا أيها الأب الطيب لن أسمعه بعد اليوم قط انظر هذا
حزامه الصغير أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من
الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام ! ..
قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبّها الحزام الصغير المزخرف ،
حزام ابنها الغائب ، فما ان رآته حتى هزّها النشيج ، فسارعت تخفى
عينها بيديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين
فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

- هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صفارها ولا يعزيها عن
فقدهم شئ . * . ذلك هو حظكن فى هذا العالم أيتها الأمهات ! لا تتمزى
يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أمت فى حاجة اليه . لا تتمزى بل
ابكى ما استطعت الى البكاء سيلا . ولكن تذكرى وأمت تبكين ، تذكرى
فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من
علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويفتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه
الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكين هذه الدموع ، دموع الأم
المفجوعة بابنها . ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادئ ، وستصير
دموع المرارة التى تحسّينها الآن الى عبرات حنان وادع ، وعاطفة
ساجية ، وتطهر روحى . سوف تتخلصين من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى
من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

- الكسى ، أيها الأب الطيب .



امراة مؤمنة في الدين
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكونا

- اسم جميل • مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله •

- نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

- ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى * • وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء • ذلك أن هجرتك أياه خطيئة ، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به • ان ابنك حين يرى من علماء السماء أنك تركت زوجك سوف يبكى عليكما كليكما • فهل تريد أن تدمرى راحة نفسه وأمن روحه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت • ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تريه • فكيف يمكن أن يجرى اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتعذبين ، فعودى الى منزلك يرسل اليك أحلاما تهدى روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه منذ اليوم !

- سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ، سأبضع نصيحتك ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرئ الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لآيبة ...

عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلاً ... ولكن الشيخ كان قد دنا من عبوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترقى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوباً عادياً من ثياب المدينة • كان فى وسع المرء أن يرى فى عينها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تتكلم فى هذا الأمر • قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش • انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد • وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسيبريا • كتب

اليها رسالتين في البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة . أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أبنائه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه قالت : .

— ان ستيانيدا ايليشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى :
« هلمنى فخذنى منذ اليوم شيئا من المال يا بروخورفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى الصلوات على روح ابنك ، فيتذكرك ويحن الى المنزل فيكتب اليك ذلك ما فاته لى تلك المرأة . وقد أكدت ستيانيدا ايليشنا أن هذه وسيلة مضمونة نجحت دائما غير أن فى نفسى شكوكا فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهل يجب على أن أتبع نصيحتها ؟

— دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالا كهذا السؤال؟
كيف يخطر ببالك أن يُصلّى على روح ابنك وهو ما يزال حيا ؟ أنفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ! ولكن هذه الخطيئة ستغفر لك بسبب جهلك ! والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك ، وأن تغفر لك هذه الفكرة الأثمة التى خطرت ببالك ! واسمعى ماسأقوله لك أيضا يا بروخورفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريبا ، أو سيكتب اليك حتما . كوني على ثقة . وانصرفى الآن بسلام . ان ابنك حى . صدقنى .

— جزاك الله خيرا أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعا ، وتستغفر عن خطايانا .

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحه شديدة النحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة . كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيها

تسألان شيئاً من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو • سألهما الشيخ :

— وأنت ماذا تريدان أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقال بصوت بطيء خافت :

— أأخذ نفسي أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الأرض •

— لقد أمنت يا أبتاه ، وأنا خائفة من الثمن •

فعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهي ما تزال جاثية •

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزها نوع من التشنج :

— ترملت منذ ثلاث سنين • كنت شقية مع زوجي • كان هرماً

وكان يضربني كثيراً • ففى ذات يوم ، بينما كان مريضاً ممتدداً على

سريره ، نظرت إليه وقلت بيني وبين نفسي : « ما عسى تكون حياتي إذا

شفى من مرضه ونهض من جديد ؟ » • فى تلك اللحظة انما برقت فى

ذهنى تلك الفكرة الخبيثة •

— انتظرى لحظة •

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها •

تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء

أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله • ولم تطل مسارتها •

سألهما الشيخ :

— أهذا منذ ثلاث سنين ؟

- نعم منذ ثلاث سنين • لم أكن أفكر فى الأمر من قبل • أما الآن
 فقد صرت مريضة • ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسى •
 - أأنت آتية من مكان بعيد ؟
 - من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا •
 - هل ذكرت هذا فى الاعتراف للكاهن ؟
 - نعم •• ذكرته مرتين •
 - هل قبلوا أن تتناولى القربان المقدس ؟
 - قبلوا • ولكننى خائفة ، خائفة من الموت •
 - لا تخشى شيئاً ! هدى روعك ! اطمئنى بالآ ! لا تدعى للخوف
 أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك • اجعلى الندامة مستقرة
 فى قلبك قوية ، عميقة ، فيغفر الله لك كل شيء • ليس على هذه الأرض
 ولا يمكن أن يكون على هذه الأرض خطيئة تبلغ من الهول أن الرب
 لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً • ثم ان الانسان لا يمكن أن
 تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستغفر رحمة
 الرب التى لا حدود لها • أفظنين أن فى هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق
 الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى بنفسك كلها ، واطردى من قلبك كل
 خوف • تهى أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصورى ، وأنه
 يحبك حتى فى خطيئتك ، ورغم هذه الخطيئة • ان الآثم الذى يندم
 ويتوب قد أعدت له فى الآخرة أفراح أكبر من أفراح عشرة لم يأتبوا
 فما ندموا * • كذلك قيل من زمان بعيد • امضى • لا تخشى شيئاً • ولا
 تحملى للبشر حقداً • انسى الاسماء • اغفرى فى قلبك للمتوفى ما أحلقه
 بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحه فى قسرة نفسك • أنت
 تحيين ما دمت تشعرين بالندامة • وما دمت تحيين فأنت لله ••• ان الحب

قادر على كل شيء ، انه ينقذ كل شيء . لكن كنت ، أنا الخاطيء ، أشاركك
ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن
يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل
عن خطايا الآخرين أيضا . انصرفي الآن بسلام ، وكوني بعد اليوم بلا
خوف .

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول
صورة مقدسة كان يحملها في عنقه فوضعها في عنق الفلاحة . حيثه
الفلاحة صامتة وانحنت حتى الأرض . ونهض الشيخ ببطء ، وأشرفت
نظراته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهي تحمل بذراعيها
رضيعاً .

— أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب .

— من فيشجوريه ؟ قطعت اذن ستة فراسخ حاملة هذا الصبي
على ذراعيك ؟ فيم ترغين ؟

— أردت أن أراك فقط . لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تتذكر ؟
ان كنت قد نسيتني فليست ذاكرتك اذن بالقوية . لقد قالوا عندما انك
مريض ، فأردت أن أراك بعينى . واني لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أنك
مريض . دعك من هذا ! لتعيشن سنة أخرى ان شاء الله .
ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن
تعرض ؟

— أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك من كل قلبي !

— لى عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً . البك خمسين كوبكاً فأهداها
يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر منى . لقد قلت لنفسى وأنا فى طريقى

الى هنا : « سأدفع هذا المال اليه هو ، فانه أدرى منى بمن يستحق أن
يذهب له . . »

- شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب . هذا يسرنى . سوف أفعل
ما تطلبين . هل طفلك هذا بنت ؟

- بنت أيها المبارك ! اسمها الزايبث .

- بارك الله فيكما كليكما ابنت وابنتك الزايبث . لقد أفرحت قلبي
أيتمها الأم الطيبة . الى اللقاء يا أصدقائي ، الى اللقاء يا أعزائي ، يا أولادى
الطيبين .

بارك الشيخ الحجاج وحياتهم جميعا تحية عميقة .

السيرة الضعيف الإيمانها



السيدة الزائرة تبكى بكاءً رقيقاً هادئاً من تأثرها
برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة ويباركها ؟
وكانت تجفف عبراتها بمنديل صغير • انها
امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة
الطيبة كثيراً • فلما اقترب الشيخ منها أخيراً ، تلقته بكثير من العاطفة
المتدفقة قائلة :

— ما كان أعظم انفعالي ، وأشد اضطرابي حين رأيت هذا المشهد
المؤثر ...

وقطع الاحتياج كلامها فلم تتابعه • ثم استأنفت تقول بعد لحظة :
— اننى أفهم أن يحبك الشعب • وأنا أيضاً أحب الشعب ، أنا أريد
أن أحبه • وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لا يحب
المرء هذا الشعب العظيم الطفل فى آن واحد ؟

— كيف حال ابتك ؟ كنت تريدنى حديثاً آخر معى ؟
— أوه ... لقد ألححت فى طلب هذه المنة • توسلت وتضرعت ،

وكنت مستعدة لأن أجنو على ركبتى ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك فى سبيل أن تستقبلنى • لقد جئناك ، أيها الشافى العظيم المقدس ، لتجبر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتى ليزا من مرضها ، شفيتها شفاء تاماً ، وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضى ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقييلهما ، هاتين اليتيمتين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثيرنا ، وأن نعرب عن تيجيلنا وتقديسنا •

— شفيتها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها متمدة فى مقعدها •••

— ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالاً تاماً ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تاماً • (كذلك أسرع تضيف السيدة قولها هذا بشئ من المصيبة) • وأكثر من ذلك أن ساقها قد اشنتنا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تاماً ، بعد أن نامت طول الليل • أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وما هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة • أصرت اليوم اصراراً مطلقاً على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقها ساعة كاملة دون أن تُسند • وقد راهنتنى على أنها ستكون بعد خمسة عشر يوماً قادرة على أن ترقص • استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهزّ كفيه وقال : « اننى لا أفهم شيئاً ! هذا أمر خارق ! » • فكيف تريد بعد هذا أن لا نجثك ونحن نحترق شوقاً الى أن نظير اليك ، وأن نصيح تميراً عن عرفانا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا ليزا ، عبّرى له عن عميق امتنانك •••

اكسى وجه ليزا الجميل الضاحك، هيئة الجسد ، ونهضت على كرسيها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامّة يديها • ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين

فجأة • قالت وهى تشير الى أليوشا خجلة غاضبة كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

— هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد فى تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، لاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة • وومضت شعلة فى عينيه اللتين سارع يفضهما •

تدخلت الأم قائلة :

— عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسى فيدوروفتش •

وأضافت الفتاة تقول وهى تلتفت نحو أليوشا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

— كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة متنبهة • ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها يده وهو يتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والخرج • وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الجسد والوقار والرصانة • وقالت له وهى تناوله رسالة صغيرة :

— كلفتنى كاترين ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة • انها ترجوك كثيراً أن تجيء اليها ، أن تجيء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء • انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظننها •

— تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ ••• لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت فى وجهه دهشة واضحة • وسرعان ما اكست سمحته تميرا عن هم أظلمت له عيناه •

قالت الأم تشرح :

- أوه ... الأمر أمر دمترى فيدوروفتشن طيبا ... وأمر هذه الأحداث كلها أيضا ... لقد اتخذت كاترين ايفانوفنا قرارا في هذا الشأن . ولكنها تريد أن تراك أولاً ... لماذا ؟ لا أدري ... ولكنها تصر اصرارا شديدا على أن تراك بأقصى سرعة . ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ! ... العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك .

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

- ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة !

قالت الأم :

- ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية النفس ... ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل ... تذكر ما عاتته وما تزال تعانيه ... وفكرت أيضا فيما ينتظرها ... أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟
قال أليوشا بعد أن تصفح الرسالة المقتضبة العجيبة التى لا تشتمل على أى إيضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

- طيب ... سأذهب ...

صاحت ليزا تقول وقد تحمست على حين فجأة :

- أوه ! ... ما أجمل هذ منك وما أنبله ... تباً لى ... لقد قلت لأمى : « لن يذهب حتماً ... سوف يرفض قطعاً ... لأنه اعتكف فى الدير ، « انك طيب جداً ، نبيل جداً » لقد قدّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم .
تدخلت الأم تقول بلهجة قاسية :

- ليزا ! ...

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت مخاطب أليوشا :

- لقد تركتنا جميعا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن ليزا أسرت الى مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك .

رفع أليوشا عينيه اللتين كاتتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد ، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا ! وكان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينة ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر قرب مقعد ليزا . كان واضحاً أن هذا الراهب واحد من أولئك الرهبان العاديين جدا الذين ينتمون الى فرقة رهبانية غامضة ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه آت من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك* ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا بسان سلفستر ، دير لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعا أن يزوره فى حجرتة متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومئ الى ليزا بإشارة رصينة ذات أبهة :

- ما تلك القوة التى تنجح لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى « الشفاء » بمعجزة .

فقال له الشيخ :

- لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاماً وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان نعمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر إلينا عن النعمة الالهية . لا شئ يتم الا بإرادة الله .

وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب :

- تعال زرني أيها الأب ، قبل أن يوافيني أجلى • انتنى مريض ،
وانتنى أحسن أن أيامى معدودات •

صاحت أم ليزا تقول :

- لا •• لا ••• ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ،
طويلاً جداً • ما عسى يكون مرضك ؟ ان فى وجهك كثيراً من الحياة
والفرح والسعادة •

- صحيح أنتى أشعر أن حالتى اليوم أحسن كثيراً مما كانت ،
ولكنتنى أعلم أن هذا لن يدوم • أنا أعرف الآن مرضى معرفة كاملة •
تقولين انتنى أبدو فرحاً • فاعلمى أنه لا شئ يمكن أن يفرحنى كما
يفرحنى أن أسمع منك هذه الملاحظة • لأن الانسان انما خلق للسعادة ،
والذى يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : « لقد حققت ارادة الله
فى هذا العالم » • ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع
الشهداء كانوا سعداء فى جميع ظروف الحياة •

هتفت الأم تقول :

- ما أجمل هذا الكلام الذى تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعانى
التي تعبّر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضى الى القلب رأساً •
ولكن أين هى السعادة ؟ من ذا الذى يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من
تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاًّ تحمّلت أن أتفضى
إليك اليوم بما سكت عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث
عنه فى المرة الأولى ! دعنى أكلمك فيما يعذبنى كثيراً منذ زمان طويل ،
منذ سنين • انتنى أنألم • انتنى شقية ! آه ••• معذرة •

قالت السيدة ذلك وهى تضم يديها أمامه فى سورة مفاجئة من
الانفعال •

— ما الأمر ؟

— اننى أتألم ••• من فقدى الايمان ؟

— أأنت لا تؤمنين بالله ؟

— ليس هذا ••• اننى لا أجرؤ حتى أن أفكر فى هذا • وانما أنا
أشك فى الحياة الأبدية • ذلك لفر لم أستطع أن أستبينه • وما من أحد
ما من أحد يستطيع أن يهب لى جواباً عن هذه المسألة • ما من أحد
يستطيع أن يقدم لى حلاً لهذه المشكلة • اصغ الىّ : أنت انسان تشفى
المرضى وتعرف أغوار النفوس • لست أطمع طبعاً فى أن أفوز بثقتك •
لست أطمع فى أن تصدقنى تصديقاً كاملاً • ولكننى أؤكد لك • أقسم
لك بأعظم ما فى هذه الحياة • أننى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة •
صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلنى الى حد العذاب • الى حد
الرعب • الى حد اليأس • لا أدري الى من يجب أن أتجه ••• لقد ظلمت
مترددة فى هذا الأمر طول حياتى • ولكننى أجازف الآن فأكشف لك
عن دخيلة نفسى • يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ ما عساك ترى
فىّ من رأى ؟ (قالت ذلك وهى تعقف يديها) •

أجابها الشيخ قائلاً :

— لا تهتمى برأى • أنا مقتنع بصدق ما تعانين من قلق •

— أشكر لك ذلك أعظم الشكر • اننى أغمض عيني وأفكر • أقول
لنفسى : « ان جميع البشر يؤمنون • فما تعليل هذا ؟ ألا يذهب بعضهم
الى أن الدين قد نشأ من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان فى الماضى

قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شيء من ذلك موجود فى الواقع ؟ ، ثم أقول
لنفسى عندئذ : « واذن فانتى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى
منى بعد الموت شيء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى ، كما قرأت
هذا الكلام لكاتب من الكتاب ؟ ذلك أمر مخيف ، ذلك أمر مرعب !
فكيف ، كيف أرتد الى الايمان ؟ على انتى لم أؤمن الا فى طفولتى ،
وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط . . . فكيف ، كيف السيل
الى البرهان على الحقيقة ؟ ، . لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضع أن
تنيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصة اليوم ، فلن يستطيع أحد
أن يجيبنى فى يوم من الأيام . أليس هذا صحيحاً ؟ انتى أريد أن أقتنع .
ما أشقائى ! انتى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه هذا الأمر ، وان جميع
الناس ، أو جميع الناس تقريباً ، لا يحفلون به ولا يكثرثون له ، وانتى
الوحيدة التى لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب .

— هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان .
ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .
— كيف ؟ بأية طريقة ؟

— بمعاناة الحب الفعّال . حاولى أن تحبى أقرانك حباً فعلاً غير
منقطع . فكلما ازدددت حباً ازدددت اقتناعاً بوجود الله ، وازددت اقتناعاً
بالحياة الأبدية . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخرين نسياناً
تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك
حقيقة من حقائق التجربة ، تلك حقيقة مؤكدة . . .

— أقول : الحب الفعّال ؟ هذه مشكلة أيضاً ، ويا لها من مشكلة !
انظر يا أبتاه : انتى أبلىغ من حبى الانسانية أنه يتفق لى فى بعض
اللحظات — صدقنى — أن يخطر ببالى أن أدع كل شيء ، وأن أنفصل

حتى عن ليزا لأصبح راهبة من راهبات المحبة ! اننى أغمض عيني ،
وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالب .
ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى . أنا أشعر بأننى
مستعدة لأن أضمدّها ، لأن أغسلها بيدي ، وأتمنى لو أصبح حارسة
للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم .

— انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور
بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة . بدأت أعتقد أنك ستتهين فى
يوم من الأيام الى أن تقوى بعمل جليل فعلاً .

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسة :
— نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك
هو السؤال الأساسى ، ذلك هو ، بين جميع الأسئلة ، السؤال الذى
يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة . اننى أغمض عيني وأسأل نفسى : « أتراك
تستمرين طويلاً فى هذا الطريق اذا لاحظت أن المريض الذى تستسلمين
قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبرّ لك عن شكره فوراً ، وانما هو
يرهقك بنزواته ، دون أن يقدّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية
المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلق
لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيان
أولئك الذين يعانون آلاماً شديدة) ؟ أتراك تستمرين فى حبك أم لا
تستمرين ؟ » . ولقد أجبت نفسى عن هذا السؤال ، هل تصور ؟ أجبت
نفسى عن هذا السؤال قائلة : « اذا كان هنالك شئ يمكن أن يطفىء جذوة
حبنى « الفعال » فوراً ، فذلك الشئ انما هو نكران الجميل . » . معنى
هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأننى أطالب بأن
يُجزى حبنى على الفور مديحاً وحباً . وما لم أتل هذا الجزاء ، لا أستطيع
أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها فى سورة صدق جامع ، حتى اذا فرغت من كلامها حدثت الى الشيخ وقد بدا فى وجهها عزم يوشك أن يكون تحدياً •

قال الشيخ :

— ذلك بعينه ما حدثنى به طيب منذ زمان طويل • كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء • وكان يتكلم بصدق وإخلاص كما تتكلمين ، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن ظاهراً فى مزاجه • قال : « اننى أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئاً فى نفسى يدهشنى : كلما ازداد حبى للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبى للبشر أفراداً ، أى أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة » وقال هذا الطبيب يسرُّ الى بدخيلة نفسه : « انه ليتفق لى كثيراً أثناء اندفاعى فى الأحلام أن تستبد بى حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة فى خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أٌصلب فى سبيلها اذا بدا هذا ضرورياً فى لحظة من اللحظات • ومع ذلك لو أريد لى أن أعيش يومين متتاليين فى غرفة واحدة مع أى انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك • اننى أعرف هذا بتجربة • فمتى وجدت نفسى على صلة وثيقة بانسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتى وتجور على حريتى • اننى قادر فى مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مسرف فى البطء فى تناوله الطعام على المائدة ، وهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مصاب بركام فهو لا يتفك يخطط • اننى أصبح عدواً للبشر متى اقتربت منهم • • • وأضاف الطبيب يقول مؤكسداً : « ولكننى لاحظت فى كل مرة اننى كلما ازدادت كرها للبشر أفراداً ، ازدادت حرارة حبى للانسانية جملةً • • • »

— فما العمل فى هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس

تماماً ؟

- كلا ... انه ليكفى أن تشعرى من ذلك بأنك تعيش شقية . افعل
ما تستطيعين أن تفعل ، وسيُحسب لك هذا . ولقد فعلت منذ الآن كثيراً
ما دمت قد استطعت أن تقرئى فى قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق
كله . وإذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى فى هذه اللحظة ،
الا لتسمعى منى ثناءً على حبك للحقيقة ، كما فعلت ذلك ، فانك لن تصلى
طبعاً الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك فى أحلام لا أكثر .
ولكن من المؤكد أنك ستسعين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل
وستنهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .
- لقد دمرتى ! الآن أدركت ، فى هذه اللحظة وحدها ، حين
سمعت كلامك ، أنتى كنت لا أتوق فى الواقع الا الى سماع ثنائك على
صدقى فى الاعتراف لك بعجزى عن احتمال تكرار الجميل . لقد نفذت
الى دخيلتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتى على أن أفهم نفسى
بنفسى .

- أصبح هذا الذين تقولين ؟ أنتى بعد اعترافك هذا قد اقتنعت
بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلباً طيباً . فإذا لم تبلغى السعادة ،
فلا تنسى أنك سائرة فى الطريق السليمة ، فلا تجيدى عنها . واهربى من
الكذب قبل كل شيء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب
الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب فى نفسك كل ساعة ،
وكل لحظة . وتجنبى الاشتمزاز أيضاً ، تجنبى الاشتمزاز من الناس ومن
نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه
ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل
حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد
تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفعالك السيئة نفسها
أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أننى لا أملك أن أقول لك شيئاً فيه

مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب اذا قيس بالأحلام
التي يحلمها المرء عنه . ان من يحلم بالحب يشعر بظلماً الى عمل مباشر
بطولى يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس ؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة
الى التضحية بحياته راضياً شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً ، وانما
يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن . ولا
كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضى جهداً ويتطلب صبراً ، وهو بالنسبة الى
بعضهم كالعلم يجب تحصيله . وثقى مع ذلك أنك حتى فى اللحظة التى
ستلاحظين فيها مذعورة أن جميع جهودك ضاعت سدىً بغير جدوى ،
فتعرفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربى منه ، ثقى أنك
فى تلك اللحظة نفسها تكونين فى الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ
بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب فى نفسك من فصل هو المعجزة ، فان
حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدّ أزررك وقاد خطاك وأرشدك الى
الصواب على نحو لا تعرفين سره . معذرة اذا كنت لا أستطيع أن أبقي
معك زمناً أطول ، فان هناك أناساً ينتظروننى . الى اللقاء .
كانت المرأة تبكى . ثم هتفت تقول كأنما هى ثابت الى نفسها على
حين فجأة :

- ليزا ، ليزا ، لا تنس أن تباركها . باركها !
فقال الشيخ مازحاً :

- هى لا تستحق حتى أن تحب . لقد لاحظت كيف أنها لم تزدد
على أن تتسلى هنا . لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟
كانت ليزا ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر . لقد
لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب ويحاول أن لا ينظر اليها ،
فكان هذا يسليها كثيراً . فهى اليوم ترقب نظرتة وترصدها بالحاح .
واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه ،

فقد كان يرفع رأسه دائماً رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبته نظرها عليه ، فيضطرب ألبوشا مزيداً من الاضطراب ويفضب • وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ • ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال العصية تراقبه أم هي كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن ليزا التي مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فاجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك في قهقهة بلغت من الاندفاع المبالغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

— لماذا تحاولين أن تضايقيه أيها العصية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن في الحسبان ، والتمعت عيناها ، واكتسى وجهها هيئة الجذ الشديد ، وأجابت بفتة بلهجة استياء عنيف ، وبعبارات سريعة عصبية ، أجابت تقول :

— ولماذا تركني هو ؟ لقد لعبنا معاً حين كنا طفلين صغيرين ، وكان يحملني بذراعيه ، وكان يجيء في الماضي الينا ليعلمني القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكّد لي ، حين ودعنا ، أنه لن ينساني في يوم من الأيام وأنا سنظل صديقين دائماً الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفاً مني كأنني سأكله ! لماذا لا يقترب مني ؟ لماذا لا يكلمني ؟ لماذا لا يجيء الينا ؟ أأنت الذي تمنعه ؟ نحن تعلم مع ذلك أن في امكانه أن يخرج بحرية • وليس عليّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجيء ، اذا كان لا يزال يتذكر • ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟

... انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض ...

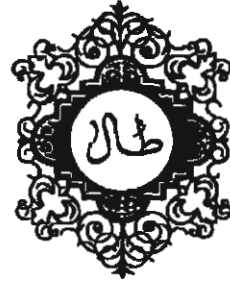
قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فإذا هي تعطى وجهها يديها على حين فجأة وتنفجر ضاحكة ضحكة كبيرة هي ضحكتها الطويلة العصية التي لا تستطيع مغالبتها والتي تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبة كثيراً . أصفى الشيخ إليها مبتسماً ، ثم باركها فى خان . فتناولت يده لتقبلها ، وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكى قائلة :

- لا تغضب منى . ما أنا الا حمقاء لا أساوى شيئاً . . . ولا نيك فى أن أليوشا على حق . . . انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية مخيفة هذا السخف كله . . .

قال الشيخ بلجهة جازمة :

- سأرسله اليكم حتماً .

لستكن مشيئة الرب



غياب الشيخ قسراية خمس وعشرين دقيقة •
 كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف
 ولمّا يصل بعدُ دمتري فيدوروفتش الذى عقد
 هذا الاجتماع من أجله • وكان يبدو أنهم قد
 نسوه ، حتى أن الشيخ وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا • ان
 المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين • أما ميوسوف
 فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ،
 ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية،
 والمتناقشون يجيئون ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه • لقد سبق
 له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فى ميدان سعة الاطلاع وغزارة المعرفة.
 فلم يستطع أن يطبق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان • كان
 يحدثه نفسه قائلاً : « كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أننى فى مستوى
 كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه
 يتجاهلنا عامدا » • وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن
 لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض
 الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بطرس ألكسندروفتش ، مبتسما ابتسامة

هزم وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حق وغيظ . انه يفكر فى أن يثار لنفسه منذ مدة طويلة ، ولا يريد أن يفوت فرصة جميلة كهذه الفرصة . واذا أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يطره بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

— لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة وإهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثار فيها لنفسك باظهار مواهبك الفذة وفكرك اللامع . وانى لأراهن على أنك لن تبارح هذا المكان قبل أن تحملهم على الاعجاب بكائك .

— استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا .

— دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخر

المنصرفين ! ...

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة .

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما يشجعهم على مواصلة المناقشة . ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وأن يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتقلب على تعبه . ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيوبات من شدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيوبة هذه عامة ، ها هى ذى تفتش وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضان . وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع . لا بد أن هناك سبباً يدعو

الى ذلك • ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ باتتياه شديد •

قال الراهب الكاهن جوزيف ، وهو قيّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان بتروفتش :

— كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التي نشرها هذا الشاب • لقد أورد آراء أصيلة في عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين • والموضوع هو موضوع القضاء الاكليريكي ومدى الصلاحيات التي يجب أن يُعطاه • كان أحد رجال الدين قد نشر كتاباً ضخماً في هذه المسألة* ، فردّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها في جريدة •••

أجاب الشيخ وهو يلقى على ايفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

— يؤسفني أنني لم أقرأ مقالتك ، ولكنني سمعت عنها •

استأنف الأب قيّم المكتبة كلامه يقول :

— ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقاً ، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الاكليريكي ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة • قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

— هذه في الحق فكرة شائقة ، ولكن بأي معنى تفهمها ، وما الذي تقصده بها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع في جوابه ذلك التعالي الذي يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة ميّنة أو حكم سابق • قال :

- ان فكرتى هى أن ذلك التوحيد الذى يفرضه هوانا على عناصر متعارضة فى جوهرها كتعارض الكنيسة والدولة ، سيظل قائماً الى الأبد ولا شك ، رغم أنه يخالف طبيعة الأشياء ولا يمكن أن يؤدى الى جعل العلاقات سليمة سوية بين السلطين بل ولا الى مصلحة بسيطة مهما يكن حظها من الاتساق والانسجام يسيراً • والواقع أن الكذب هو المصدر الذى ينشأ عنه هذا الحل أو هو الأساس الذى يقوم عليه • وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمرٌ مستحيل ولا يمكن تخيله إطلاقاً ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكاناً معيناً واضح الحدود • فأجبت بأتنى ، من جهتى ، أرى أن الكنيسة يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بماوى بسيط تعتصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى • وأضفت الى ذلك بقولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن تنظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل •

قال الأب بائيسى الراهب الكائن ، العلامة الشديدي الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية :
- هذا صحيح تماماً •

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقاً على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :
- ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال *

فانطلق الأب جوزيف قائلاً :

- دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متوجهاً الى الشيخ :

— ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه — ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس — وهى آراء يمدّها خصمه « جوهرية وأسامية » : الرأى الأول أو الموضوعة الأولى : « ما من طائفة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها » ، الموضوعة الثانية : « ان حق القضاء الجزائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة ، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضاً مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » ، الموضوعة الثالثة والأخيرة : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » .

فقال الأب بائسى يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاسياء واضحا :
— ذلك لعب بالألفاظ لا يليق فى رأى بعضو من أعضاء الاكليروس .

— لقد قرأت الكتاب الذى رددت عليه ، وقد أدهشنى أن أرى مؤلفه يقول : « ان ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم » . ذلك أنه ان لم يكن ينتمى الى هذا العالم فمن البديهي أنه لن يمكن عندئذ أن يتحقق فى هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير الوارد فى الأناجيل ، القائل بأن ملكوت السماء لا ينتمى الى هذا العالم ، ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقم الكنيسة على الأرض . صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمى الى هذا العالم ، لأنه فى السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التى أقيمت فى الأرض . لذلك يجب أن نعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطنع بالروح العصرية أمراً لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله فى هذا المجال . ان الكنيسة

هى فى الواقع مملكة • وان رسالتها هى أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء فى النبوءة على كل حال ...
قال الأب بائسى ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً •

وكان ايفان فيدوروفتش يصنى الى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة :

— ان الفكرة الأساسية التى تجعل مفاالى كلها هى أن المسيحية كانت فى الأزمنة القديمة ، أى طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسة فحسب ، وكانت لا تطمع فى أن تصبح أكثر من ذلك • ولكن حين قررت الدولة الوثنية التى هى الدولة الرومانية أن تعتشق الديانة المسيحية فان الذى حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية فى كثير من النواحي • ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال • فان روما من حيث هى دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها • وكان طبعاً أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت فى الدولة أن تضحى بأى مبدأ من مبادئها ، ولا أن تترك أى جزء من الصخرة التى بُنيت عليها • كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهى امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعاً لذلك • ويترتب على هذا أن الكنيسة ليست هى التى يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معين فى داخل الدولة ، « ككل طائفة اجتماعية أخرى » أو « ككل تنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية » (وذلك ما يقوله فى موضوع الكنيسة

مؤلف الكتاب الذى انتقدته) ، بل العكس هو الصحيح ، فان الدول الأرضية جميعها هى التى يجب عليها أن تستحيل فى خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصيح الا كنيسة ، متنازلة من أهدافها الخاصة عن تلك التى لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهذا التحول لن يفض من قيمة هذه الدولة ولن يتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئا من كرامتها ومجدها من حيث هى دول كبرى ، لا ولن يسىء الى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من طريق اجتماعى نتيجة للوظائف التى يقومون بها ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هؤلاء الملوك والقادة من طريق الضلالة والوثنية الذى ساروا فيه ، وسيضعهم فى اتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيد الذى يمكن أن يؤدي الى تحقيق غاياتهم الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب « أسس القضاء الاكليركى فى داخل المجتمع » كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولما يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التى عرضها والتي عدّها لنا الأب جوزيف بعضها منذ هنية هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويمارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تمس . ذلك كل ما قلته فى مقالتي التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائيسى يتدخل مرة أخرى مشددا على كل كلمة من كلماته :

- الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائمة كثيرا فى قرنا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تتحرك نحو الدولة ، منتقلة من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صرح التعبير ، وأن تذوب فى الدولة ، بعد أن أخلت



ایمان کلرمازوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساکوفا

المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فإذا هي رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرِضَ عليها عندئذ مكانٌ محدود تلوذ به وتأوى إليه ، تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم في أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهي ترى أن الكنيسة ليس عليها هي أن تستحيل إلى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا إلى صورة عليا من صور الوجود ، وإنما الدولة هي التي يجب عليها أن تحاول أن تصبح أخيراً إلى كنيسة وأن لا تكون شيئاً غير ذلك . هذا ما يجب أن يكون ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن في اتجاه معاكس :

– أعترف لك بأنك قد رددت إلى شجاعتي : إذا صح فهمي فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول إليه في زمان مقبل مايزال بعيداً كل البعد ، وربما امتد إلى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم جميل جداً ، فلا حروب عندئذ ولا دبلوماسية ولا بنوك ، الخ ؛ بل إن هذا يذكر بالاشتراكية بعض الشيء . لقد كنت أخشى في البداية أن تكون جاداً فيما تقول ، وأن تطمع للكنيسة ، منذ الآن ، في أن تمارس السلطة فتقضى في الأمور الجزائية مثلاً فتصدر أحكاماً بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بنبر تنثر ، فقال :

– حتى لو كانت المحاكم الاكليريكية هي السلطة القضائية الوحيدة المعترف بها اليوم في العالم ، فإن الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعدام أو بالأشغال الشاقة . إن صفة الجريمة وطريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل شيئاً فشيئاً ، على التدريج . ولكن هذا التبدل سيتحقق مع ذلك بسرعة كافية . . .

قال ميوسوف وهو يحدّث اليه بنظرة نافذة :

.. أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

.. يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحرم الخطاة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحداً . قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب ، بل بالمسيح أيضاً . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للإنسانية وعدواً للكنيسة المسيح . وان الأمر كذلك منذ الآن ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور ، ولكننا لا نعترف بهذا صراحة . ان السىء يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جداً ، سبيلاً الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : « صحح أنى سرقته ، ولكننى لم أناصب الكنيسة العداء .. » . اننى لست عدو المسيح . . . هكذا يفكر المذنب فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا . أما يوم تحل الكنيسة محلّ الدولة فسوف يصعب على المسىء أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ويرفض هذه السلطة رفضاً تاماً ، قائلاً : « البشر جميعاً على ضلال ، هم وكنيستهم على ضلال ، وأنا وحدى . أنا القاتل أو السارق . أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق » . وذلك موقف يصعب جداً اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر . وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يؤدى الى هجر الأساليب الجزائية الحالية الميكانيكية التى تقضى بتر العضو المريض ، كما يفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يكفل الغلبة لفكرة خلق الانسان خلقاً جديداً وبعمه بعثاً جديداً وتحقيق الخلاص والسلام له فى الحياة الواقعية هذه المرة .

قاطعه ميوسوف سائلاً :

— الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك • انك تعود الى الأحلام • هذا الكلام الذى تقوله غامض مبهم ، بل لا سبيل الى فهمه • عن أى حرمان تتكلم ؟ ما هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل أأست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفسان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة ، قال :

— ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع منذ الآن • ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المذنب لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة • فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات ، أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدىء فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه •

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

— كيف هذا ؟ هلا شرحتة لنا ؟

قال الشيخ :

— انظر • ان ارسال المذنبين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما كان يضاف اليه قبل الآن من تعذيب جسمى ، ان ذلك كله لم يصلح أحداً ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم • فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد • لا تستطيع أن تعترض علىّ فى هذه النقطة • يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة • فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم

آخر أو مجرمان آخران • فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ، واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انساناً جديداً ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضا الى قانون المسيح على نحو ما رُسِّخ فى قرارة ضميرنا • ان اعتراف المجرم بذنبه كإبن من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كإبن من أبناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة • فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب • فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم الكنيسة ، عرِف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا الى الاندماج فى الحياة الاجتماعية • ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهتمها العقاب الفعلى الذى يتم ازاله فى المذنبين • انها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحذب عليهم حذب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تفضن عليهم بتناول القربان المقدس • انها تتجددهم وتغيثهم ، وتعاملهم معاملة نساء أكثر مما تعاملهم معاملة جناة • وما عسى يقع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر ! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تضربهم هى أيضا ، فتحرمهم كلما حكم عليهم قانون الدولة ، وتضيف عقابها الى عقاب الدولة ؟ انك لا تستطيع أن تتخيل انحذاراً الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحذار الذى يمكن أن يهوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ، ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الروس ما يزالون محافظين على ايمانهم ! ومن ذا الذى يضمن أن

لا يحدث عندئذ شيء رهيب لدى هؤلاء الجناة ، كأن يزول الايمان من قلوبهم اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رموف ، وهى تعترف عن معاقبتهم فى الواقع ، لأنها ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هى ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقاب قاس ، فهم فى حاجة الى أحد تأخذ بهم شفقة على الأقل . وهى تمتنع عن معاقبتهم خاصة لأن عدالة الكنيسة هى العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة ، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنويا وعمليا مع أى قضاء أجنبى ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أى تنازل فى هذه النقطة . ان المجرمين لا يشعرون فى البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التى ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هى أعمال تمرد على القوى التى تضطهدهم ظلما وعدونا ، فالمجتمع ينبذهم من حصنه آليا ، ويطلبهم على أمرهم بقوته العليا ، وهو يشفع هذا الابدان للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله فى أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم وينساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شيء يجرى اذن دون أى عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها فى عدد من تلك البلاد التى لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبانٍ دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقى فقد سارت منذ زمن طويل فى طريق يجب أن يتقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهى مرحلة لجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التى يزعم أنها عليا وهى مرحلة الدولة ، بنية أن تفرق فيها غرقا كاملا . تلك هى على الأقل حالة الشعوب اللوثرية فيما يظهر . أما الكاثوليكية الرومانية فانها منذ ألف سنة قد أقامت الدولة مقام الكنيسة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو فى الكنيسة ، فهو حين ينبذ المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له أن يعود بعد ذلك الى

المجتمع ، فانه فى أكثر الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكره يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة . وفى وسعكم أن تخیلوا بسهولة الى أين يودى هذا . قد يترامى ان الامور تجرى على هذا النحو غالباً فى بلادنا أيضاً . ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الأخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبداً بالمجرم ، لأنها تعدّه ابناً عزيزاً ما يزال جديراً بالحب . هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليريكية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل على الأقل ، من حيث هى أمل على كل حال ، والمجرم نفسه يعترف بسلطانها فى فرارة نفسه حتماً . وانه لصحيح كل الصحة أيضاً ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليريكية ستساهم فى اصلاح المجرمين اصلاحاً لا تُعرف حدوده حتى الآن ، بل ربما نقص عدد المجرمين كذلك نقصاً كبيراً . ان الكنيسة نفسها - وهذا أمر مؤكد - ستستطيع عندئذ أن تكشف عن الشخص الذى سرتكب ذنباً فى المستقبل ، وأن تعرف الجريمة التى تنهى ، أكثر كثيراً مما تفعل اليوم ذلك فى أكثر الأحوال ، وسيكون فى وسعها أن تهدى الضالين ، وأن تبقي فى طريق الرشاد أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً ، وأن تنهض أولئك الذين سقطوا .

وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهياً ، وأنه غير باقى الا بفضل الصالحين السبعة ؟ ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعاً أى تنظيمًا انسانياً يشبه أن يكون

وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع •
هذا ما يجب أن يكون ، هذا ما يجب أن يكون ، ولو فى آخر الزمان ،
لأنه قد أريد وحدّد منذ الأزل • وما ينبغى أن يقلقنا طول الانتظار
وبطء الزمن ، ما دام مفتاح المصور بسيد الرب ، وما دام الرب يرتب
تعاقيها بحكمته وطيبته وسابق علمه • ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا
جدا فى تقدير البشر قد يكون فى بعض الأحيان على وشك أن يتحقق
بحكم المشيئة الالهية ، وقد يكون على عتبة حياتنا يوشك أن يدخلها •
لذلك أقول : فلتكن مشيئة الرب ، فلتكن مشيئة الرب •

قال الأب بائيسى مؤيدا فى رصانة ووقار :

— فلتكن مشيئة الرب •

قال ميوسوف بحرارة فيها استياء شديد :

— هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب جوزيف قائلا بحذر :

— ما هو الشيء الذى تراه فى هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

— شيء عجيب كل العجب ! شيء لم أسمع به من قبل ! يزيلون

الدول القائمة ليشيدوا فى مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا من عقائد

ما وراء الجبال فحسب ، بل هو تطرف فى الأخذ بعقائد ما وراء الجبال !

ان البابا جريجوار السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشيء من هذا القليل !*

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

— الأمر نقيض ما ترى تماما • نحن لا نعتقد أن الكنيسة هى التى

يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه • ان ذلك الحلم هو

حلم روما حقا ، وهو ثلاثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا

الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض عقيدة ما وراء الجبال ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الحقيقية الكبرى التى تحملها الارثوذكسية .
أن نجمة هذا الايمان المظفر ستطلع فى سماء الشرق .

كان ميوسوف صامتا صمتا وقورا . ان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته . وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع . وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب . لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه . ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يلاحظ كل شئ بانتباه ، ويسمع كل شئ باصغاء ، رغم أنه غاضب بصره . ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبت فيه هذا الاضطراب .

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيئة فيها تعاضم :
- اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة . حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بعيد الانقلاب الذى وقع فى شهر كانون الأول (ديسمبر) ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية ، وكنت على صلة بها قوية . فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره . لم يكن هذا السيد من رجال الشرطة بمعنى الكلمة ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية - ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها . انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع . واذ

لم يكن عند رب الدار عندئذ بصفته زائراً بل بصفته مرسوماً يقدم تقريراً ، فانه وقد لاحظ حقاوة رئيسه بى ، قد شرفنى بأن أقضى الى بعض الأمور وباح لى بعض الأسرار . طبعاً لم يفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاطفة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكننى استطعت أن أرى ما فى نفسه واضحاً كل الوضوح . لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين ، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، بل أدع هذا الموضوع جانبا وأقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جداً أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسرُّ الى : « الحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين الفوضويين الملحدون الثوريين . نحن نراقبهم من كتب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجلاً من طراز خاص ، وإن لم يكن عددهم كبيراً جداً : أولئك هم المؤمنون ، المسيحيون ، الذين يربطون الاشتراكية بايمانهم الدينى . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى شئ آخر . هؤلاء أناس خطرون جداً . إن رجلاً يجمع بين الاشتراكية والمسيحية مما لهو أخطر كثيراً من اشتراكى ملحد . » . لقد فجأتنى هذه الفكرة كثيراً فى تلك اللحظة ، وقد تذكرتها الآن حين سمعت كلامكم ، أيها السادة ، لا أدري لماذا . . .

سأله الأب بائيسى فجأة بنير لف أو دوران :

— هل تريد أن تقول إن هذه الفكرة تصدق علينا وإنا فى نظرك

اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بطرس الكسندروفتش الى جواب يقوله ، فتح الباب وظهر دمترى فيدروفتش بعد تأخر طويل جداً . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن وصوله المفاجئ ، هذا قد أحدث فيهم شيئاً من دهشة .

لماذا يحب أولاد عيسى مثل هذا الرجل



دمترى فيدوروفتش ، وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، قصير القامة لطيف الوجه ، يسدو فى الواقع أكبر من سنه . انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرأى أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان فى قسما ت وجهه شيئا مريضاً . هو نحيل المجيا خاسف الخدين ، فى لونه انعكاسات علية ضاربة الى صفرة . وان فى عينيه القامتين الواسعتين الجاحظتين تسيراً غامضاً مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة . وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً فان نظرته تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية ولا تجاريها وانما هى تفصح فى كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة فى بعض الأحوال . « ان من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور فى فكره » ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين . وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القائمة الواجمة يدهشهم فى أحيان كثيرة جداً أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها ويستسلم لها فى نفس اللحظة التى تتجهم فيها عيناه . على أن ما يظهر فى سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التى يعيشها

بمدينتنا فى الآونة الأخيرة • لاهياً قاصفاً مستهتراً ، ، أو هم قد سمعوا
عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضاً درجة الاحتياج المرضى الذى وصل
إليه فى خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ؛ حتى أن الناس فى
مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات • والحق أنه بطبيعته غضوب ،
وأنه • مندفع مشوش ، ، كما وصفه بذلك صادقاً كلّ الصدف قاضى
الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات • ولقد كان فى ذلك
اليوم يرتدى صدره ذات أزرار أنيقة أنيقة لا مأخذ عليها ، ويلبس
قفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية • وكما يفعل كل عسكرى
محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ،
ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين • وهو يمشى مشية حربية
حازمة واسعة الخطى •

توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور ،
اتجه نحو الشيخ قدماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيّاه منحنياً له
انتحاة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمتري
فيدوروفتش يد الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديداً بصوت
يدل على الخلق والامتناء ، قال يشرح :

— أرجو أن تفضلوا فتغفروا أنتى جعلتكم تنتظرون هذه المدة
الطويلة كلها • ان الخادم سمردياكوف الذى أرسله «باتيوشكا» * قد
أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الوانق أن الاجتماع قد حُدّت
له الساعة الواحدة بعد الظهر • وهأنذا أعلم الآن أن ...

قاطعته الشيخ قائلاً :

— اطمئن • ليس الأمر بذى بال • لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس
لهذا التأخر من خطورة ...

— أشكر لكم تسامحكم • ولقد كنت أعوّل على هذا التسامح لما
أعرفه عنكم من طيبة ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيّاً مرة أخرى ، ثم التفت نحو
أبيه (« باتيوشكا ») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان في تحيته للشيخ من
انحناء شديد واحترام عظيم • واضح أنه كان قد هيا هذه التحية سلفاً ،
وأعدّها مقدماً ، وأنه فعل ذلك صادقاً مخلصاً ، لأنه يرى أن من واجبه
أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نيّاته • وقد بوغت فيدور
بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن تاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً
فيرد تحية ابنه بمثلها • لقد اكسى وجهه على حين فجأة تعبيراً رصيناً
مفرطاً فى التصنع ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشرّاً • وبعد أن حيا دمترى
فيدوروفتش سائر الحضور فى الحجرة بالحناءة واجدة صامته ، اتجه
نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة العازمة ، وجلس قرب الأب بائسى ،
على المقعد الوحيد الذى كان لا يزال خالياً • ومال ب صدره الى أمام ،
متهيّئاً لمناقشة التى قطع حبلها •

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين ، وكان
لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فوراً • ولكن ميوسوف لم يرد فى هذه
المرّة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذى طرحه الأب بائسى
والذى يكاد يكون مزعجاً •

قال بشىء من الاهمال الذى يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

— اسمح لى أن لا أتعرض لهذه النقطة • ثم ان المسألة معقدة جداً
من جهة أخرى • وأنا ألتح أن ايفان فيدوروفتش يتسم وهو ينظر اليّ الياء
فلعله يخفى آراء أصيلة طريفة فى هذا الموضوع ، فاتجه بالسؤال اليه
ان شئت •

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلاً :

— ليس لدى شيء خاص أقوله ، الا ملاحظةً ثانوية . ان اللبراليين في أوروبا ، كسائر هواة اللبرالية في روسيا ، يخلطون في كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جداً ، بين الأهداف القصوى التي ترمى اليها الاشتراكية وبين الغايات التي ترمى اليها المسيحية . وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هي مع ذلك الصفة التي تتميز بها طريقتهم في التفكير . ويبدو من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به اللبراليون وهواة اللبرالية ، وانما هو يحدث كثيرا في أذهان رجال الشرطة ، أقصد رجال الشرطة في البلاد الأجنبية . وان حكايتك الباريسية هي من هذه الناحية ذات دلالة هامة يا بطرس ألكسندروفتش .

فكرر بطرس ألكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

— أرجوكم مرة أخرى أن تعفوني من معالجة هذا الموضوع ، وانما أنا أؤثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخرى شائقة جدا ومميّزة جداً ؟ والحكاية في هذه المرة تتصل بإيفان فيدوروفتش . لقد كان ايفان فيدوروفتش منذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، في مجتمع يتألف خاصة من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحة أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء في هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وأنه ما من قانون طبيعي يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ، فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد على هذه الأرض شيء من الحب ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعي ، بل الى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون . حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا الاعتقاد هو في الواقع الأساس الوحيد لكل قانون أخلاقي طبيعي ، فاذا فقدت الانسانية هذا الاعتقاد بالخلود فسرعان ما ستفيض جميع بنايع الحب ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة

حياتهم فى هذا العالم . أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شىء يصد منافياً للأخلاق ، وسيكون كل شىء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر . بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقى للطبيعة يتغير وجهه فوراً فى نظر كل فرد - فى نظرنا نحن مثلاً - متى كان هذا الفرد لا يؤمن بالله ، وان القانون الأخلاقى للطبيعة يأمر عندئذ بتقيض ما سلم به الدين من قبل وما جاء فى تعاليم الدين من قبل ، فاذا بالانانية التى تمضى الى حد الجريمة لا تصبح مباحةً للانسان فحسب ، بل تصبح كذلك مشروعةً وضروريةً من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول ، بل والمخرج الوحيد النيل . ففى وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التى يراها عزيزنا الخيال الكبير والسفسطائى العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التى سبق أن أعلنها وآراؤه التى لعله ما يزال ينوى أن يعلنها .

هتف دمترى فيدوروفتش يقول دون أن يكون هذا فى حسابان
أحد البتة :

- اسمح لى ! هل ما سمعته منك هو « أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعد كذلك ، فى نظر كل ملحد ، هى المخرج المعقول الذكى من وضعه » ؟

قال الأب بائسى :

- تماماً .

فقال دمترى فيدوروفتش :

- انتهى أسجل هذا .

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما

تكلم فجأة . فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول .

واتجه الشيخ فى تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :

— هل يمكن أن يكون فى تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود
الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

— نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فمضى أنه لا فضيلة بلا
خلود •

— ان الذى يفكر على هذا النحو هو أحد اثنين : فاما سعيد جدا
واما شقى جدا •

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

— ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

— لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود الروح
ولا بشئ مما كتبه عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية •

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف القريب وقد احمر
وجهه على حين فجأة :

— قد تكون على حق ... ولكننى لم أعبت الا نصف عبث ، لم
أمزح الا نصف مزاح !

— أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح • فان هذه المسألة لما تحلّ
فى قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهى ما تزال تعذبك • ان الذين يمانون هذا
العذاب يحبون أحياناً أن يعذبوا بعذابهم ، وتلك طريقة فى التعبير عن
كربهم ويأسهم • وهذا ما تفعله أنت • فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة

مقالات فى الجرائد ، أو بالاندفاع فى مناقشات فى الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل فى مرتك مثلاً ... ان هذه المسألة لم تحسم فى نفسك بعد . وذلك هو مصدر عذابك الكبير ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً ...

فقال ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ وقد تغيرت سحته تغيراً غريباً وحدق الى الشيخ مبتسماً ابتساماً لا يُعرف معناها :

- وهل من سبيل لى الى حلّها ؟ هل يمكننى أن أحلها ايجاباً ؟

- اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل كذلك الى حلها سلباً ، وذلك بسبب قانون فى قلبك تعرفه حق المعرفة : وذلك هو بعينه عذابك . اشكر الله مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعاني ألماً كهذا الألم : « ان الذكاء المتفوق يبحث عن الحقيقة فى الأعلى ، لأن وطننا فى السموات » . أسأل الرب أن يهب لك القدرة على أن تجد فى قلبك حلاً لهذا الصراع أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك .

قال الشيخ ذلك ومدّ يده يريد أن يرسم ، وهو فى مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفان نهض فجأة فاقرب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس فى مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهه فى تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد ورسامة . ان هذه البادرة التى قام بها وان تلك الكلمات التى تبادلها مع الشيخ والتى كانت لا تُتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث فى جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر ويشيع فيه من أبهة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه ألبوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف

بدد فجأة هذا الجو الأخاذ اذ رفع كتفيه مستهزئاً ، ثم اذا بفيسدور
بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مثيراً الى ايفان فيدوروفتش :

- أيها الشيخ المقدس الرباني ! هذا ابني ، هذا فلذة كبدي ، هذا
ولدي الحبيب ! انه أعلى أبنائي قدراً وأكثرهم احتراماً ؛ هو من نوع
كارل مور قليلاً ان شئت ... أما الذي وصل الآن ، أما دمتری
فيدوروفتش هذا الذي جئت أستعين بك عليه ، فانه أدناهم قدراً وأقلهم
احتراماً ، انه صنو فراتس مور ومنافسه . انك تعرف هذين البطلين من
أبطال مسرحية شيلر « قطاع الطرق » ، وأنا من جهتي أشبه نفسي في هذه
القصة بجراح فون مور * . فانظر في الأمر واقض فيه ! انقذنا ، فنحن
في حاجة لا الى دعواتك وصلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضاً .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك مكدود :

- لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ،
ولا تهين أهلك قبل أية مناقشة !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً
بعد شيء .

هتف دمتری فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار ،
هتفاً يقول :

- هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت الى هنا .
مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمتری بافلوفتش للشيخ) . أنا
امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى انني أجهل اللقب الذي يجب أن
أناديك به . لقد خدعوك وغرروا بك ، فكنت ضحية طيبة نفسك
وصفاء سريرتك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبي لا يسعى الا الى
الفضيحة والجحسة ... أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه ... ان

فى كل عمل يقوم به حساباً يجريه • وأظن مع ذلك اتنى أحرر ما يضر من نيات خفية فى هذه الساعة !

صاح فيدور ايفانوفتش هو أيضا يقول :

- انهم جميعا يتهموننى • هم جميعا يناصبوننى العدا • وبطرس الكسندروفتش يتهمنى أيضا ...

أضاف ذلك وهو يلتفت نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطباً ميوسوف :

- نعم يا بطرس الكسندروفتش ! لقد اتهمتنى • هم يأخذون علىّ أننى سلبت أولادى ثروتهم ، واغتيت على حسابهم • أليس هناك اذن محاكم ؟ اتنى ألقى عليكم هذا السؤال • هلا اتجهت الى المحاكم دمتري فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التى وقعتها ، والرسائل التى أرسلتها ، والاتفاقات التى أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ، وما هو المبلغ الذى بددته ، وكم بقى لك ؟ لماذا يرفض بطرس الكسندروفتش أن يقضى فى خلافنا هذا ؟ ليس دمتري فيدوروفتش شخصاً أجنبياً عنه ، فلماذا يرفض ؟ سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً يناصبوننى العدا ، مع أن دمتري فيدوروفتش ما يزال مديناً لى بعال فى آخر الحساب ! هو المدين لى ، وليس دينى عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق فى يدي ! ان حياة القصف واللهو والتبذير التى يعيشها ترجع أصداء اشاعتها فى مدينتنا كلها ؟ وهو منذ كان فى الجيش قد تعود أن يرمى ألف روبل أو ألفين فى سبيل أن يقضى على عفاف البنات الشريفات ! هه ... اتنى أعرف هذا يا دمتري فيدوروفتش ... اتنى أعرف أدق التفاصيل الخفية ، وأستطيع أن أبرهن على ذلك عند الحاجة ! ... فاعلم هذا اذن أيها

الأب المقدس جدا : لقد أفسد دمترى فيدوروفتش أخلاق أنبل فتاة من الفتيات ، فتاة تنتمى الى أسرة كريسة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة حنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هي ذى الآن تقيم فى مدينتنا كيتيمة مع أنها خطيئة ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء « الساحرات » يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدني مع رجل محترم جدا ، هي قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها - كزوجة شرعية تماما - لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة ... يمينا انها لفاضلة ! هي الفضيلة بعينها أيها الآباء الميجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يقتحم هذا الحصن بمفتاح من ذهب ، وذلك هو السبب فى هجومه على الآن ، لأنه يأمل أن يسلبنى مالا . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات ، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالا بعد مال . انه يستدين ، وهسل تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدور :

- صه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أسمع لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالامع اليها اهانة لشرفها ... لا لن أطيق هذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنفاً .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه الأئين وهو يحاول أن يمنع انسكاب

دموعه :

- ميتيا ، ميتيا ! ورضى الأب على ابنه ، ما عساك فاعلاً به ؟ ما عسى يحدث لو لعتك ؟



ديمتري كاراموزوف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

فزار دمتري فيدوروفتش يقول وقد جن جنونه غيظاً :

— ممثل هزلى وقع !

فقال فيدور بافلوفتش :

— اظفروا كيف يعامل أباه ! اظفروا كيف يعامل أباه ! وهو فى
معاملة الآخرين أسوأ من ذلك أيضاً . اسمعوا هذا أيها السادة : فى
مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؟ هو رائد (كابتن) مهال على التقاعد +
لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ، غير أن
كل شئ قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه
سليماً لم يمسسه أذى ولم ينله سوء . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة .
فهل تعلمون ما صنع به دمتري فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه
من لحيته فى إحدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً
لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع من جمهرة الناس !
كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل مرأى ببعض الأمور فى قضية
صغيرة ! ...

قال دمتري فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش خفقاً :

— هذا كذب ! هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر يكتب فى
الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوِّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى
تصرفت مع هذا الكابتن تصرف حيوان كاسر مفترس ، واننى نادى على
ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزى والعار من ذلك الغضب
المسور الذى استبد بى . ولكن ذلك الكابتن ، ذلك الرجل الذى تقول
انك عهدت اليه ببعض الأعمال ، انما ذهب الى تلك التى وصفناها منذ هنيهة
بأنها ساحرة ، فكلّمها باسمك ، وعرض عليها أن تشتري السندات التى
وقعتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودع السجن

متى أصبحت أزعجك بمطالبي فيما يتعلق بتصفية حساباتنا . فكيف
تجروا أن تأخذ على اليوم أنتى أميل الى هذه المرأة على حين أنك سألتها
أنت نفسك أن تجتذبنى اليها ! ثم انها لا تجد أى حرج فى أن تقص
هذا على جميع الناس ، ولقد روت لى أنا أيضا ، ساخرة منك متهمكة
عليك ! ولئن كنت تريد أن تدخلنى السجن فليس لهذا الا سبب
واحد على كل حال ، هو أنك تغار منى ، لأنك حاولت أن ترعج هذه
المرأة بجبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هى التى روت لى ضاحكة عليك ،
هل تسمع ؟ ضاحكة عليك ، مستهزئة بك ! تلکم هى ، أيها المباركون ،
حقيقة هذا الرجل ، تلکم هى حقيقة هذا الأب الذى يظهر امتعاضه من
سوء سلوك ابنه ! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد ، اغفروا لى
ما أظهرت من عنف ! لقد أوجست سلفاً ، وا أسفاه ، أن هذا المعجوز
الوقع انا جمعكم كلکم هنا من أجل أن يحدث وقعة وأن يثير مشاجرة
أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة اذا مدّ الى يده ، وعلى نية
نسيان الاساءة التى ألحقها بى ، والشر الذى نالنى به ، وعلى نية طلب
الصفح والمغفرة كذلك . أما وأنه أهانتى الآن ثم لم يكف بذلك بل
تجراً على أن يهين أبلى فتاة - وهى فتاة أمحاشى أن أذكر اسمها فى غير
طائل ، لأننى أحترمها احتراماً دينياً - فقد قررت أن أفصح لعبته الخفية
على رموس الأَشهاد ، رغم انه أبى ...

لم يستطع دمترى فيدرووفتش أن يتابع كلامه . كانت عيناء
تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً شاقاً . وكان جميع الحضور من جهة
أخرى مضطربين أشد الاضطراب . وقد تعجبهم وجها الرايين الكاهنين ،
ولكنهما ينتظران قرار الشيخ . ولم يكن الشيخ قد تحرك . كان وجهه
مصفراً اصفراراً رهيباً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض .
ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفثيه . وهو من حين الى حين يهمل ان

يرفع يده ليهديء روح هؤلاء المسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بحركته . ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادين باقتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافياً عنه مستعصياً على فهمه . وأخيراً شعر بطرس الكسندروفتش ميوسوف بأنه "أذل اذلالاً عميقاً ، وأنه جُلِّل بالخزى والعار . قال بحرارة :

— انا جميعاً تتحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشيء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أنني كنت أعرف مَنْ هذا الرجل . . . يجب أن ينتهى هذا الأمر فوراً . . . أيها الأب المبهجِّل ، تق أننى لم أكن على علمٍ دقيق بالتفاصيل التى كُشِف عنها الآن . لقد كنت أرفض أن أصدقها ، وانما عرفتُها فى هذه اللحظة لأول مرة . . . أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن . . . هؤلاء هم الناس الذين اضطرت أن أجىء معهم اليك . لقد غرَّر بى ، فأريد أن أصرِّح علانية أنني قد غرَّر بى وخذعت كما خُذع غيرى . . .

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :
— دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لتاديتك الى المبارزة فوراً . . . بالمسدس . . . على مسافة ثلاث خطوات . . . والأعين معصوبة . . .
ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :
— نعم ، والأعين معصوبة ! . . .

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثلون يلغون أحياناً من عمق تشبهم بالدور الذى يمثلونه أنهم يرتشون انفعالا

ويكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك « المقدس » ورغم هذه الدقة « المقدسة » من الحماسة والاندفاع . . .

قطب دمتري فيدوروفتش حاجبيه ، وأظلم وجهه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف . ثم قال بصوت رفيق مكظوم :
- ما كان أغبائى حين اعتقدت ، حين أمّلت وأنا أعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذه الملاك ، خطيتى ، أتنى سأستطيع أن أجمّل أيامه الأخيرة ، فإذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً فاجراً ، وممثلاً دنيئاً خسيساً !

زأر العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

- الى المبارزة ! أما أنت يا بطرس الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتنا كلها لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف - نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ - من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تخرج ولا حياء بأنها « مخلوقة » ! وأما أنت يا دمتري فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيتك فى سبيل هذه « المخلوقة » ، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها . تلکم هى المرأة التى سميتوها « مخلوقة » !

صاح الأب جوزيف يقول فجأة :

- هذا خذى وعار !

وانبرى الفتى كالجانوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف امتيأاً وامتاعاً واستككاراً :

— يا للفظاعة ! يا للشناعة !

وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا •

وزار دمتري فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحذب الظهر ، زار يقول في نوع من التخفف :

— لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاًّ قلتم لي ، هلا قلتم لي هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمتري فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع الحضور واحداً بعد واحد ، مومثاً الى أبيه بيده • وكان يتكلم ببطء مقطّعا ألفاظه •

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب جوزيف :

— هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو جوابه على قولك « هذا خزي وعار ! » • هلاًّ قلت لي أين الخزي والعار ؟ ان هذه « المخلوقة » ، ان هذه « المرأة السيئة الخلق » ربما كانت أقدم منكما أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون في الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت في شبابها ضحية بيتها ، ولكنها « أحببت كثيراً » ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التي أحببت • • • *

قال الأب اللطيف جوزيف صابراً :

— المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب !

— بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان • • • نعم ، من أجل ذلك الحب نفسه • تحسبون أنكم تحققون

لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرب الحامز ، وتظنون أنفسكم
بررة تقاة صالحين • تفتنون بالأسماك ، تفتنون بسمكة صغيرة في اليوم،
وتتخيلون أنكم تخدعون الله بأسمالككم هذه التي تأكلونها ! ...

— هذا لا يحتمل ولا يطاق ، هذا لا يحتمل ولا يطاق ... هذا
لا يغتفر بحال من الأحوال •

كذلك أخذ الحضور يقولون في كل جهة من الجهات •

غير أن هذا المشهد الذي بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على
نحو لم يكن في الحساب : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذي كاد
يفقد صوابه من شدة خوفه على الشيخ وعلى أهله ، هرع يستنه من
ذراعه • اتجه الشيخ نحو دمتری فيدوروفتش ، فلما وصل إليه هوى
يركع على ركبتيه • اعتقد أليوشا أن الشيخ قد سقط على الأرض ضعفاً
ووهناً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك • فحين صار الشيخ راكماً على
ركبتيه ، انحنى يحيى دمتری فيدوروفتش عامداً ، وبلغ من شدة انحنائه
أن جبينه كاد يلامس الأرض • دُهِش أليوشا دهشة عظيمة نسي معها
أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض • وهذه بسمة صغيرة
لا تكاد تُدرك ، تحرَّك شفَتَي الشيخ • قال وهو ينحنى لجميع ضيوفه
في كل جهة من الجهات :

— معذرة ، معذرة ...

لبث دمتری فيدوروفتش جامداً من الدهول بضع لحظات : لقد
ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة :

— يا رب !

ثم أخفى وجهه بيديه ، وأسرع يخرج من الحجرة •

اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يستأذنوا صاحب الدار بالانصراف + واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته .

- لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شيء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يعجزى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخطب واحدا بعينه منهم (كانوا يجتازون في تلك اللحظة نطاق الصومعة) .

فسرعان ما أجاب ميوسوف يقول بلهجة غضبي :

- لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعاً . لست أعبا بحركاتهم ، ولكنتى فى مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد . أين ذلك الراهب الصغير الذى استقبلنا منذ قليل ؟

ولكن « ذلك الراهب الصغير » ، وهو الذى كان قد دعاهم الى الغداء عند كبير الراهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات المدخل الذى تطل منه الصومعة على الحقول حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت .

قال له بطرس الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

- أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الراهبان احترامى العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرني ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن فى الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية فى تلبية هذه الدعوة الكريمة .

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلا :

- آ ... هذا أنا . الظروف الطارئة التي لم تكن في الحسبان هي
أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بطرس الكسندروفتش قد شتم صحبتي
ولولا ذلك للبي الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة
يا بطرس الكسندروفتش ، ستشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير
الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذي سأمتنع عن
حضور الوليمة لا أنت ! هياً اذهبوا اليه ، أما أنا فأعود الى منزلي ، وأكل
في داري ، لأنني لن أستطيع أن أبلع شيئاً هنا ، هل فهمت يا بطرس
الكسندروفتش ، يا قريبي العزيز جدا ؟

- أنا لست قريك ، ولم أكن قريك في يوم من الأيام أيها الانسان
الدنيء !

- لقد تعمدت أن أقول لك قريبي لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل
من هذه القرابة وتكرها . ولكنك قريبي مع ذلك ، وفي وسعي أن
أبرهن على هذا بصكوك الأحوال المدنية وتقويم القديسين . أما أنت
يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربدة لتعديك الى المنزل فيما بعد ،
فابق هنا ان شئت . ان اللبابة توجب عليك يا بطرس الكسندروفتش أن
تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعذر اليه عن الفضيحة التي
شاركنا فيها جميعا ...

- أصبح أنك منصرف ؟ أأنت لا تكذب ؟

- كيف أجرو أن أحضر المسأبة بعد الذي حدث يا بطرس
الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعاً طائشاً أيها السادة ، لقد نسيت
نفسى ، فاغفروا لى ذلك . هذا الى أنني مضطرب ، وأنتى أشعر بالخزى
أيضا . أيها السادة ، ان لبعض الناس شجاعة كشجاعة الاسكندر الكبير،

وان لبعضهم الآخر شجاعة كشجاعة الكلب الصغير « أمين » • وأنا كالكلب « أمين » أشعر فجأة بخوف ووجل ، فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، ان شعورى بالخزى أكبر من أن أستطيع ذلك ، فاعذرونى !

« الشيطان وحده يعلم أنه يقول الحقيقة أم هو لا يزال يمثل تمثيلاً بهذا حدث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرج الذى أخذ يتعمد بنظرة فيها دهشة وحيرة • والتفت فيدور بافلوفتش الى وراء ، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد •

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش فجأة :

— أأنت ذاهب الى عند الأب كبير الرهبان ؟

— ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوة خاصة •••

— المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لتعذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعاتها • ما رأيك ؟

كذلك قال ميوسوف بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه • فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلاً :

— صحيح • يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن • وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا •

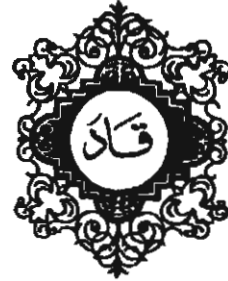
— أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

مضى المدعوون الى الغداء • كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهم

صامتاً • واقتصر على أن قال لهم مرة واحدة حين اجتياز الغابة الصغيرة
أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف
ساعة • ولكن أحداً لم يجبه •

ألقى ميوسوف نظرة على ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه :
« انه يحضر الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضمير
كارامازوفى ! » •

طالب اللهوت



أليوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير •
 هى حجرة صغيرة جدا لا تضم من الأثاث الا
 ما لا غنى عنه • السرير صغير من حديد ، عليه
 قطعة من لباد تقوم مقام فراش • وفى ركن من
 الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل • تهالك
 الشيخ على السرير منهوك القوى • كانت عيناه تلتزمان وكان تنفسه
 ثقيلًا • فلما جلس ، ألقى على أليوشا نظرة طويلة متبهة ، كأنه يفكر
 فى أمره ، ثم قال له :

— اذهب يا عزيزى ، اذهب • يكفى بروفير لمساعدتى • أسرع •
 هم فى حاجة اليك هناك • اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك
 النداء لتخدم على المائدة •

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع :

— اسمح لى أن أبقى قربك !

— أنت هناك أفيد ! ليس بينهم هناك سلام • سوف تخدمهم ، وقد
 يكون فى حضورك خير لهم • اذا استيقظت الشياطين فأتل دعاء • واعلم

أيضا يا بنى العزيز جدا (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم • تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعاني إليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، واذهب تماما !

ارتشش أليوشا • فقال له الشيخ :

- فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن • اننى أبارك بدايتك العظيمة فى هذا العالم ، ذلك أن هناك أشياء كثيرة ما يزال عليك أن تعرفها وأن تعانيها فى الحياة • وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تزوج • ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا • لن تخلو حياتك من الأثقال والأعباء • ولكننى لا أشك فيك • ومن أجل هذا انما أرسلك • المسيح معك • فاعرف كيف تحافظ عليه فى نفسك ، ليحميك ويحرسك • ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة فى العذاب • اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحث عن الفرح فى التجربة • اعمل ، اعمل بغير هوادة • تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أنتى أعلم ، ولو أتيت لى أن أتحدث اليك مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة •

عبر وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف • وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان •

سأله الشيخ وهو يتسهم ابتسامة عذبة رفيقة :

- ما بك أيضاً ؟ فليسكب أبناء هذا العالم دموعاً على موتاهم • أما نحن هنا فانتنا نغضب مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلى له • دعنى الآن • يجب على أن أصلى • هيأ أسرع • ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما •

ورفع الشيخ يده ليباركه • كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته فى البقاء معه قوية • وكان يحترق توقاً الى سؤاله عما تدل عليه أو تعلن عنه تحيته لأخيه دمترى ساجداً • وكان هذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به • انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدر أن ذلك فى الامكان • أما وأنه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل • غير أن تلك التحية قد أحدثت فى نفس أليوشا تأثيراً قوياً جداً : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية دلالة خفية ومعنى سرياً • ان هذه الحركة التى قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول • ولما خرج من نطاق الصومعة حائلاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعاً) ، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوى فى نفسه كلمات الشيخ التى يعلن فيها أن نهايته قد قربت • ان ما يتبأ به الشيخ يمثل هذه الدقة وهذا التحديد لا بد أن يقع • هذه فى نظر أليوشا حقيقة مقدسة • فما عسى تصير اليه حاله وجدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ أيمسك عن البكاء ويترك الدير ؟ يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل بمثل الذى يشعر به الآن من حزن • أغدأ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التى تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجزه عن احتمال خواطره التى كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التى تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتى تنتصب قائمة على جهتي الممر فى الغابة • ليست المسافة بعيدة ؟ هى خمسمائة خطوة فى أكثر تقدير ؟ وفى مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحداً • ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة • كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر •

سأله أليوشا حين أدركه :

- أنتظرني أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

- حشرت • أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلم ذلك • ان
عنده وليمة غداء • هل تعرف أنه منذ اليوم الذى استقبل فيه الأسقف
الذى كان يصحبه الجنرال باختوف - هل تذكر هذا ؟ - لم يعد مائدة
تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء • اذهب اليه
وحدك • قدّم المرق للضيوف • هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك
يا أليوشا : ما دلالة ذلك الرمز ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك
هذا السؤال •

- أى رمز تعنى ؟

- تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش • لقد بلغ
من السجود له أن جبينه صدم الأرض •

- هل تقصد الأب زوسيم ؟

- طبعا أقصد الأب زوسيم •

- صدم جبينه الأرض ؟

- أياكون فى هذا التعبير اخلال بواجب الاحترام ؟ طيب ...
لنفرض أتى أخللت بواجب الاحترام • ولكن ما معنى ذلك الرمز ؟

- أجهل معناه يا ميثا •

- كنت أعلم أنه لن يشرحه لك • وليس فى الأمر شيء من سرية
طبعا • هى تلك الحركات الثقية الجوفاء نفسها تكرر • ولكن الشيخ

لم يمثل هذه التمثيلية بنير نية يبيتها • ان جميع الثرثارين والاقليم سيتحدثون الآن فى هذا الأمر ويستساءلون : « ما دلالة هذا الرمز على المستقبل ؟ بأى شىء يؤذن هذا الرمز ؟ » • فى رأى أن الشيخ لا تعوزه حصافة الرأى ولا يعوزه نفاذ البصيرة • لقد أحسن أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة • ان الروائح فى منزلكم تنذر بشر مستطير •

— أية جريمة تقصد ؟

كان واضحاً أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الانفصاح عما يدور فى رأسه ويجول فى خاطره •

— فى أسرتك انما سترتكب هذه الجريمة • مستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبلك • وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيم الأرض بجبينه • فاذا وقع شىء فى ذات يوم قال الناس : « لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس ا » • ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض ! ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا ، وسيرفعون الشيخ الى السحاب ، وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم • ان معتهى القرية لا يفلتون الا هذا ؟ يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل •

— أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ أأنت مجنون ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضاً ، وقال يسأل أليوشا :

— أية جريمة ؟ أنزعم أنك تجهل الجريمة التى أعنيها ؟ ألا اننى أراهن على أنك فكرت فى هذا الأمر من قبل • وددت لو أعلم بهذه

المناسبة . اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائماً ، رغم أنك جالس دائماً بين كرسيين : أفكرت في هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟ أخطر ببالك أم لا ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

- خطر ببالي :

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلاً :

- ماذا ؟ خطر ببالك ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

- أقصد أنني ... لم يخطر ببالي ... ولكنني حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب جداً منذ هنيهة ، خيل لي أنه خطر ببالي .

- أرايت ؟ لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً . أرايت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطئ اذن ظني ...

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً مهموماً :

- انتظر ، انتظر ! من أين أدركت هذا كله ؟ ... ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولاً ...

- هذان سؤالان اثنان يتميز أحدهما عن الآخر ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة . فأما عن السؤال الأول وهو : من أين أدركت هذا كله ؟ فإني أقول لك أنني ما كان لي أن أدرك شيئاً وما كان لي أن أحزر شيئاً لولا أنني في لحظة معينة قد نفذت الى سريرة أخيك دمتری فيدوروفتش ، فرأيت ما في نفسه بمثل

ومض البرق • لقد فهمت كل جوانب نفسه بفضل مسحة من سمات طبعه • هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء فى حقيقة أمرهم ، ولكنهم مبالغون الى الملذات مقبلون على المباح ، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه فى معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عرييد لا يستطيع أن يسيطر على نفسه ، ولم يعرف القصد والاعتدال فى شئ من الأشياء ، يومًا ، فسينجرف الاثنان ، فتقع مصيبة فى يوم من الأيام •

— لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطئ ، وأنا أسترد تفاؤلى ، لن يمضيا الى هذا الحد •

— فلماذا أراك ترتعش اذن كورقة فى مهب الريح ؟ اسمع : ان أخاك ميتا رجل شريف ، أسلم لك بذلك (هو غيبي لكنه شريف) ، غير أنه يجب الملذات • ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر فى نفسه • وقد أخذ هذا عن أبيه الذى أورثه شهوانيته الخيثة • اننى لأستغرب فى بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا • كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ كيف استطعت أن لا تقارب امرأة ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف رغم كل شئ • • • • • والميل الجامع الى اللذة قد أصبح فى أسرتك مرضا فتاكًا ، أصبح قرحة فى الروح ، أصبح سلافاً مفترساً ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً فى كمة خنجرًا • لقد تجاهبوا هم الثلاثة أنفاً لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم •

— أنت مخطئ فى موضوع تلك المرأة • ان دمتري يحترقها • • • كذلك قال أليوشا فى تشنج • فأجابه راكيتين :

— من ؟ جروشكا ؟ * لا يا صاحبي • • • لا • • • انه لا يحترقها

البته • يكفى أن تعلم أنه قادر على ترك خطيئته فى سبيلها حتى تصيح على يقين من أنه لا يحتقرها ذلك الاحتقار الذى تتصوره ! هناك شيء • • شيء لا تستطيع حتى الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويمشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (ويجب أن يكون المرء مترف الذوق ليفهم هذا) ، فانهم يصبحون قادرين على أن يضحوا بأولادهم فى سبيلها ، وأن يبيعوا أباهم وأمههم من أجلها ، وأن يخونوا روسيا ارضاءً لها ، وأن يبيعوا وطنهم ليتألوا الخطوة لديها • قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون رفاقاً لطافاً انسانيين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم ينسون ويغدرون • ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بالمفاتن الجسدية للمرأة ، قد مجّد ساقيا الصغيرتين فى شعر * • وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويمتريهم من ذلك اضطراب عنيف • وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب • لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحتقر جروشنكا • قد يكون صحيحا أنه يحتقرها ، ولكنه لن يستطيع بعد اليوم أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها •

أقلت لسان أليوشا يقول فجأة :

— أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خيىث :

— هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا

النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها • ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك • وهذا يجعل لاعتراك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى اللذة !

ذلك هو اذن فتانا العف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوتنا أنك
انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى نقياً
برئاً هادئاً فإن الشيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى
أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر طاهر الذيل ، ولكنك
سبرت الأغوار السحيقة اتنى الأخطك وأرصدك منذ زمن طويل !
أنت واحد من أسرة كارامازوف أنت واحد من هذه الأسرة تماماً
كاملاً ولا بد أن تؤمن بأن للمعرق والورثة أثرأ رغم كل شيء .
أنت شهوانى من جهة أبليك ، بسيط من جهة أمك . مالى أراك ترتعد
فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت
الى جروشنكا منذ بضعة أيام قائلة : « جتنى به (كانت تتكلم عنك) ،
فأخلع عنه ثوب الراهب الذى يرتديه ! » . لينك تعرف كم أبلت :
« جتنى به ، جتنى به ! » ولقد تساءلت ما الذى يجعلها تهتم بك هذا
الاهتمام كله ، ما الذى يشوقها فيك الى هذا الحد ؟ هى امرأة
خارقة ، صدقنى

قال أليوتنا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

— بلغتها خجيتى ، وقل لها اتنى لن أجيء . أكمل ما كنت تريد أن
تقوله يا ميشا ، وسأجيبك بعد ذلك .

— ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شيء واضح ! اذا كان
فيك أنت انسان يحب اللذة والمتعة ، فما بالك يايفان ، أخيك من أبليك ؟
انه كارامازوف هو أيضاً ان مشكلة الاخوة كارامازوف جميعاً تكمن
هنا : هم أناس شهوانيون ، أناس طمأنعون ، أناس بسيطون . ان أخاك
اييفان يسلى نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً
فى ذلك لحساب لا أدري ما هو ، لأنه فى حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى
أن يعترف بهذه الحطة وهذا الصغار ، أخوك الطيب اييفان ! وعدا

هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتا خطيته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو .
كيف ؟ بموافقة ميتا ... ان ميتا مستعد لأن يتنازل له عنها ، بغية أن
يتحرر منها بأقصى سرعة ، وأن ينصرف الى جروشنكا انصرافاً كاملاً .
وهذا كله - لاحظ ذلك - لا يبت شيئاً من الاضطراب في نفسه النيلة
المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً .
الشیطان وحده يعلم ماذا يجري في نفوسكم . ان أخاك يعترف بحطته
وصغاره ، ولكنه يسرع الى هذا الاعتراف فرحاً به كل الفرح . اسمع
أيضاً : ان أباك ، المجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتا .
لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، وذهبت برشده ، فمتى لمحها سال
لمابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرة في حجرة
الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة خالصة
العدار . ان أباك مجنون جنوناً قط بقطعة ... لقد استخدمها في الماضي
بأجر في شئون حقيرة من شئون الخمارات التي يديرها . فلما لاحظ
ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعال نار الهشيم على الفور ، وهو منذ
ذلك اليوم يكد ويجهد في ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه
الخشيسة طبعاً ... ولكن الأب اصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما
جروشنكا فهي لما تعزم أمرها بعد ، ولا قررت أيهما تختار ، وانما هي
تمثل عليهما كليهما ، وتسلي بالهاب نار غرامهما . انها مترددة تساءل
أيهما أنفع لها وأجدى عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تستجيب منه
ملاً ولكنه لن يتزوجها ، وهي تعلم ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد
أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب في أنها
لا تهمل ميتا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتا لا يملك
ملاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيته
ذات الجمال الذي لا يضاهي ، يدع كاترين ايفانوفنا ذات المحدث النيل ،

ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشكا التي كان يعيها في الماضي تاجر
عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة . ذلك كله
ظرف يمكن ان يؤدي حقاً الى جريمة . وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك
ايفان . وهو ينجى من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحي : يظفر
بكاترين ايفانوفنا التي يتوق اليها ، ويظفر ببائنتها التي تبلغ ستين ألف
روبل ، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير مثله لا يملك قرشا واحداً .
لاحظ أيضاً أنه لا يكون في هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد
أحسن اليه احساناً يعتز به اننى أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ،
وقد كان منذ أسبوع في احدى الخمارات ثملاً يقضى وقته مع نساء
عجريات ، قد صرح بصوت عال أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا* ، وأن
أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً . أما كاترين ايفانوفنا فمن المؤكد أنها
لن تصمد مدة طويلة أمام رجل منور مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها
منذ الآن مترددة بين الاثنين . ألا اننى لأشاهل ما الذى تجدونه أتم جميعاً
في ايفان هذا حتى تفتنوا به هذا الافتان ، وحتى تكونوا أمامه فى حالة
تشبه أن تكون وجداً ! صدقنى اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك
عليكم جميعاً .

سأله أليوشا بلجهة جافة وهو يقطب حاجبيه :

- من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكد هذا التأكيد
القاطع الجازم واثقاً من صحتها هذا الوثوق كله ؟
- تسألنى هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابى . انك تسلم اذن ،
فى قرارة نفسك ، بأننى على حق .
- أنت تحمل عداوة لايفان ! ليس ايفان بالرجل الذى يرضى أن
يفريه المال .

- صحيح ؟ طيب ... وما قولك بجمال كاترين ايفانوفنا ؟ ليست
المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مفر .
- ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يرضى أن تقتنه ألوف
الروبلات . انه لا يسعى الى المال والترف والرخاء . ربما كان يتوق الى
الآلم ويرنو الى العذاب ! ...

- ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً متشابھون ، هؤلاء النبلاء !
- اسمع يا ميثا ! ان نفس ايفان قلقه عاصفة ، وان عقله مهموم
بمسائل خطيرة . ان فكراً عميقاً يقطن فيه ويعذب . هو من أولئك
الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات الحياة
الروحية .

صاح راكيتين يقول مفصيحاً عن كره أصبح لا يخفى نفسه :
- ترهات لفظية ! وسرقات أدبية فوق ذلك ... انك لم تزد على
أن كررت أقاويل شيخك !
قال راكيتين ذلك ثم تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفاهه ، وتابع
كلامه :

- ولكن ليس فيه سر ، ليس فيه لغز ! ما أغبى كلامك ! ما من
شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة . يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم
كل شيء . ان مقالته التي نشرها في الجريدة مضحكة سخيفة باطلة !
أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! لا فضائل بغير
ايمان بخلود الروح . كل شيء مباح اذا لم نؤمن بخلود الروح .
(وقد صاح أخوك ميتكا عندئذ يقول : : اننى أسجل هذا الكلام ، ،
هل تذكر ؟) . هذه نظرية تنرى أناساً أوغاداً أوباشاً - مالى أصبح
فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! - لا ... لا أناساً أوغاداً أوباشاً ،

بل مثقفين أذعياء يحملون في أنفسهم « مشكلات عميقة لا تحل » !
ألا انهم لم يتبححون ! ان جوهر تفكيرهم هو ما يلي : « من جهة أولى
يستحيل عدم التسليم ، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الإنكار ! » .
ليست نظريته كلها ، من أولها الى آخرها ، الا سفاهة ! ان الانسانية
ستجد في نفسها القدرة على أن تحيا للفضيلة ، سواء آمنت بخلود
الروح أم لم تؤمن . لسوف يكفيها من أجل ذلك أن تستلهم معاني
الحرية والمساواة والأخوة ...

لقد أصبح راكبتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة .
وها هو ذا يصمت فجأة كأنه تذكر شيئاً ما .

قال وهو يتسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة
السابقة :

- كفانا كلاماً في هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحييني نصاماً
خيئاً ؟

- لا ... ليس يخطر ببال أن أحسبك نصاماً . انت انسان ذكي
... ولكن فلندع هذا الموضوع ... ثم اننى قد ضحكت بغير سبب .
أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تدفع هذا الاندفاع يا ميسا . لقد
أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة في أقوالك أنك أنت أيضاً
لست تشعر نحو كاترين ايفانوفنا بعدم الاكتراث . انك لا تحق منها
موقف من لا يبالي بها ... وقد راودنى هذا الظن منذ زمن طويل أيها
الأخ ، فذلك هو السبب في أنك تكره ايفان . أنت تغار منه عليها .

- لعلى أغار منه على بائنتها أيضاً ؟ هه ؟ ما رأيك ؟

- لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك !

- أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكما الشيطان ، أنت

وأخاك ايغان ٠٠٠ ألا يمكنك أن تفهم اذن أن في وسع المرء أن يكرمه بصرف النظر عن كاترين ايغانوفنا ؟ هلاً قلت لى لماذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عنى سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضاً ؟

— لم أسمعته يتحدث عنك يوماً ، لا بخير ولا بشر ٠٠٠ انه لا يهتم بك •

— تذكرت الآن مع ذلك أنه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عنى ، فى منزل كاترين ايغانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق • انه يجهل من أنا ، انه يجهل خادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فان لى فى هذا رأياً ٠٠٠ لقد تفضل فقال عنى اننى ان لم أقرر فى مستقبل قريب جداً أن أصبح أرشمندريت ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى صحيفة يومية كبرى ، كناقد طبعاً ٠٠٠ وأبقى محرراً مدة عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب الجريدة ، وأوجه الجريدة فى اتجاه آخر ، فأجعلها جريدة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، مراعىً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر ٠٠٠ معنى هذا أننى سألعب على الجبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ، أكون قد جمعت — فى رأى أخيك — رأس مال ضخماً رغم الصبغة الاشتراكية ، فأسثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى سان بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير الجريدة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً • حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب الجسر الحجرى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا بين حى ليتاينى وحى فيبورج ٠٠٠

- ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا مisha نقطة نقطة في أغلب الظن !

كذلك هتب أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه .

- أنت أيضا أصبحت ساخرآ يا ألكسى فيدوروفتشن !

- لا ... لا ... تلك مزحة ... سامحني ! وإنما كنت أفكر في شيء آخر تماماً . ولكن قل لي : من قصص عليك هذه التفاصيل ، ومن أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضرا عند كاترين ايفانوفنا فيما أتخيل ، حين دار الحديث عنك !

- لم أكن حاضراً عند كاترين ايفانوفنا حين دار هذا الحديث عني ، ولكن دمترى فيدوروفتشن كان حاضرا . ومنه انما سمعت هذا هذا الكلام بأذني . أو قل ان شئت انه لم يذكره لي أنا ، ولكنني سمعته على غير ارادة مني طبعاً ، لأنني كنت في غرفة نوم جروشكا ، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن ايفسان فيدوروفتشن كان متلبساً في الغرفة المجاورة .

- صحيح ... تذكرت الآن ... هي قريبتك فيما أظن ، أليس كذلك ؟

- قريبتي ؟ جروشكا قريبتي ؟ أتراك بجنت ؟ أياكون عقلك مختلفاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

- لماذا ؟ أليستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان ...

- سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر السادة كارامازوف ،

تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النسيلة العريقة ، على حين أن أباك كان مهرجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبة يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم أنتى لست ابن قس ، وهذا يجعلنى فى نظرك انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كافٍ لتهينى بهذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضاً يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت المبذولة ، فاعلم هذا ! ...

كان راكيتين غاضبا مهتاجا •

معذرة ... سامحنى ... أرجوك ! لم يكن فى ومسمى أن أعرف هذا • ثم لماذا تصفها بأنها مبذولة ؟ ألعلمها ... واحلة من تلك النساء ... ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة • ثم أردف يقول :
- أعود فأقول لك اننى قد ذكر لى انها قريبتك • وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب • •
فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحتقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

- قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها • لن أقول لك أكثر من ذلك • أما القرابة مع جروشنكا فإن أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها عليك أنت لا على أنا ...
ها نحن وصلنا الآن • الأفضل أن تمضى رأساً الى المطبخ • أه • • ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك ! اللهم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبوا «مقلبا» مما عهد فيهم ! أكيد ... هذا

أبوك يتعد ، ووراء ايفان فيدوروفتش • انهما يهربان من عند الأب
كبير الرهبان • وهذا هو الأب ايزودور على درجات المدخل يصيح لهما
بكلام • ان أباك يصيح أيضا ، ملوِّحاً بيديه • انه يقذف شتائم ، فيما
يبدو ... أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته • هل تراه ؟
وهذا ماكسيموف يركض فى تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن
لم يتم النداء ... أتراهم ضربوا كبير الرهبان أيضاً ؟ اللهم الا أن يكون
الآخرون هم الذين ضربوهم ! ... وددت لو أرى هذا ...

لم يكن تعجب راكيتين فى غير محله • لقد وقعت فضيحة فعلاً ...
فضيحة لم تكن فى الحساب ... فضيحة لم يسمع بمثلها من قبل ...
وقعت بمجرد « وحى والهام » ...

فضيحة



وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند
رئيس الدير (كبير الرهبان) ، تغيرت حالة
بطرس ألكسندروفتش النفسية فقيراً سريعاً ،
بتأثير طبيعته المهذبة الموهقة : لقد شعر فجأة
بالخجل من حنقه . أحس في قرارة نفسه أنه
كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من
الاحتقار ، فما يفقد هدوءه في حجرة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه
زمام سيطرته على نفسه . قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى
مسكن كبير الرهبان رئيس الدير : « مهما يكن من أمر ، فإن الرهبان
لا يتحملون تبعه شيء مما حدث ، فما ينبغي أن أؤاخذهم .. وما داموا
هم أيضاً أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب يقولوا ، رئيس الدير ،
يرجع الى أصل نبيل هو أيضاً) ، فلماذا لا أكون في معاملتهم لطيفاً رقيقاً
مهذباً ؟ لن أتجهج على آرائهم ، بل سأظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ،
وسأبرهن لهم أخيراً على اننى لا شيء يجمعنى بهذا الرجل الجافى الغليظ ،
هذا الازروب ، هذا المهرج ، هذا التافه ، وأنتى فى هذه المغامرة كلها
ضحية مثلهم ! » .

أما حقوق قطع الأشجار فى الغابة ، وحقوق الصيد فى النهر

(وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلاً كاملاً نهائياً ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة . سوف يسحب القضية من المحاكم ، ويضع حداً لهذه الدعوى القديمة التى أقامها على الدير .

وقد تمزرت نيته الطيبة هذه فى نفسه مزيداً من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير . والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين . ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ ، فإن الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة : هو أثاث من خشب الأكاجو منجّد بالجلد ، ولكنه من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن . حتى أن الأرض لم تكن مطلية . ولكن كل شيء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة وزهاء ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار جميلة ثمينة . على أن الشيء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة إنما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف جداً ، وأوان لامة ، ثلاثة أصناف من الخبز أحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليشان بشراب العسل اللذيذ الذى عرف به الدير ، إبريق كبير من زجاج فيه شراب التفاح الذى يُصنع بالدير وهو شراب اشتهر كثيراً فى المنطقة كلها . ولم يكن على المائدة كحول . وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساء سمك ، فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، فأضلاعاً من سمك الحفش ، فمثلجات ، فثماراً مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة * . كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شيء . انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فسلل

حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات فى كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس . ان له نفساً قلقة حسودا . وكان لرضاء العظيم عن كفائته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل الى تضخيمها والمبالغة فيها . وكان واثقا من أنه سيصبح فى المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل فى الحياة دورا كبيرا . ولكن أليوشا الذى كان يحبه كثيرا كان يؤله أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظة أنه كذلك : ان راكيتين ، لثقته بأنه لا يسرق مالا من دروج الناس ، كان يعد نفسه مثال الكمال الأخلاقى . وما كان لأليوشا ، ولا كان لأحد فى العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه فى هذه النقطة .

ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين جوزيف وباتيسى قد دُعيا اليها ، كما دُعى كذلك راهب كاهن آخر . وفى اللحظة التى وصل فيها بطرس ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايغان فيدوروفش كان هؤلاء ينتظرون فى غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالسا كذلك فى أحد الأركان . استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة . انه شيخ قارع القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى اليينة ، له وجه طويل صارم وقور . حيا ضيوفه باحترام ، ولكن هؤلاء اقتربوا فى هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده فى الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل ... أما ايغان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعى بل وشعبى ، وطبعاً على يده قبلة كبيرة سُمع صوتها .

بدأ بطرس الكسندروفتش الكلام وهو يتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

- نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا • لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه • لقد سمح لنفسه ، فى حجرة الأب المبجل زوسينا ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله ••• أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا ••• وهذا أمر أظن أن سيادتكم قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) • وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل والعار ، فرجأنا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن نعرب لك عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق تدمه • وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه • صمت ميوسوف • انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه أنه لم يبق فيه أى أثر للخطئ الذى ألم به من قبل • أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه •

أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصانة ، ثم أخنى رأسه قليلاً ، وقال يجيبه :

- يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف • فلمله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة • تفضلوا فآخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة •

ووقف أمام الأيقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عالٍ ، فخفض جميع الضيوف رموسهم باحترام ، وخشوع ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاماً يديه الصغيرتين احدهما الى الأخرى مبرأ عن هوى خاصة .

وفى تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته
آخر مكيدة • يجب أن نذكر أنه قد كان فى نيته حقا أن ينصرف •
كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد
سلوكه الشائن الفاضح فى حجرة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ،
لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ،
ربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة
سيكون خالياً من الاحتشام فى هذه الظروف • ولكن ما كادت عربته
الترجحة توصله الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسّ بتردد
مفاجئ • ، فتوقف فى اللحظة التى كان يهمل أن ينزل فيها من العربة •
تذكر أقواله نفسها التى نطق بها فى حجرة الشيخ : « اتنى أشعر كلما
دخلت على بعض الناس اتنى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدوننى
مهرجاً ! فأقول لنفسي عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرج ، لأنكم
جميعاً أكثر منى غباوة ، وأخبت سريرة » • تمنى فى تلك اللحظة لو
يتقم من صحبه بحقارته • وتذكر بهذا الصدد ، فى الوقت المناسب
تماماً ، أنه سئل مرة عن السبب الذى يجعله يكره فلاناً من الناس ،
فأجاب فى اندفاع من اندفاعات تهريجه الوقع قائلاً : « لماذا ؟ سأقول
لكم • صحيح أنه لم يسيء الى أية اساءة • ولكننى ارتكبت أنا فى حقه
حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة
التي ارتكبتها فى حقه ! » فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش
ضحك ضحكة خيشة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه ،
وارتمشت شفتاه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : « لقد صُبَّت البخمرة
فيجب شربها • سوف أتم ما بداثة • • • ان الشعور الخفى الذى خضع
له فيدور بافلوفتش فى ذلك الطرف يمكن التعبير عنه على النحو التالى :
« لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسى • فالأولى ما دام الأمر كذلك أن

أمضى الى النهاية ، وأن أهينهم مزيدا من الالهانة ، فسوف يرون عندئذ على الأقل اننى لا أخشاهم ، وأتى لا أحفل بما عدا ذلك ! • • • وهاهو ذا يأمر الحوزى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعود أدراجه الى الدير مستحثاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً • لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه والتحكم بسلوكه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحدود القصوى من الدنائة - دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعد من ذلك ، ودون أن ينجرّف الى ارتكاب جريمة أو الى اقرار أى عمل يمكن أن يؤدي به الى المتول أمام المحاكم • انه يعرف دائماً كيف يحجم فى اللحظة المناسبة ، بل كثيراً ما كانت تدهشه سيطرته على نفسه فى هذا المجال • ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقرب الضيوف من المائدة • وقف ساكناً جامداً على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة متفطرسة خيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز • وصاح يقول بصوت دوى فى الغرفة كلها :

— ها • • • لقد ظنوا أننى انصرفت • • • فهأنذا أعود •

اتجهت اليه جميع الأنظار خلال لحظات فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شئ كريبه أهوج طائش ، وأن فضيحة توشك أن تقع • ولم يلبث بطرس ألكسندروفتش أن انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مسموم • ان الفيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقاً قويا • صاح يقول :

- لا ... هذا كثير فى هذه المرة • لن أطيق ذلك ولن أحتمله •
اننى لا أستطيع الصبر على هذا بأى وجه من الوجوه وأى حال من
الأحوال •

ازدحم الدم فى رأسه ، وتعثرت كلماته واختلطت أقواله ...
ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! ... وها هو ذا يتناول قبعته •
قال فيدور بافلوفتش :

- ما الذى لا يستطيع أن يحتمله وأن يصبر عليه • بأى وجه من
الوجوه وأى حال من الأحوال ، ، أيها الأب المبعجل ؟ أتأمرنى بالدخول
أم تأمرنى بالانصراف ؟ أتقبلنى ضيفاً مدعوّاً الى مائدتك أم لا ؟
فأجابه رئيس الدير كبير الرهبان :

- أهلا وسهلا • اننى سعيد برؤيتك •

ثم أسرع يقول للحضور :

- أيها السادة ، اننى أسمع لنفسى بأن أرجوكم من أعماق قلبى
أن تنسوا خلافاتكم العابرة المؤقتة ، وأن يلثم شملكم حول هذه المائدة
مصلّين لله بموافقة المحبة ووافق الأخوة •

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

- لا ... لا ... هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

- اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة اليه ، فهو مستحيل بالنسبة الى
أيضا • لن أبقى أنا ما لم يبق هو • فعلى هذه النية انما جئت • لن أترك
بطرس ألكسندروفتش بعد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بطرس

ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا • ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس • انه لا يريد أن يكون أخى ! انه ينكر القرابة التى بيننا ! أليس كذلك يا فون سون ؟ لقد عثرت عليه واهتديت اليه ، صاحبي فون سون ! نهارك سعيد يا فون سون !

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

— أنا الذى ... تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور ايفانوفتش :

— طبعاً أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ أملك تحسب أن الأب الرئيس هو الذى يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

— ولكننى لست فون سون ، وانما أنا ماكسيموف ؟

— بل أنت فون سون ! هل تعرف يا صاحب السيادة من هو فون سون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة • لقد قُتل فى ماخور - أحسب أن هذا هو الاسم الذى يطلق على تلك الأماكن فى بلادنا - قُتل ... وجرّد من كل ما كان معه ؛ ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمّر على الصندوق لوح من خشب ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من سان بطرسبرج الى موسكو بالقطار البلى • وبينما كان الصندوق يسمّر كانت الموسسات تغنى وترقص على أنغام البساتريون ، أعنى على أنغام البيانو • ان فون سون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم • لقد بُعث بعد موته • أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟

— ما هذا الكلام ؟ ماذا يريد أن يقول ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة •

صاح بطرس الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالبانوف :

فلتنصرف !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى
الأمام خطوة أخرى :

— لا •• لا •• اسمحوا لى •• تحملوا أن أنهى كلامى أولاً •
لقد ادعى أنتى تصرفت تصرفاً خالياً من الاحتشام والاحترام فى حجرة
الشيخ منذ قليل • لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان
بطرس الكسندروفتش ، قريبي المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام من
الرفعة أكثر مما فيه من الصدق أما أنا فأقول : فلنذهب الرفعة الى
الشیطان ! أليس هذا صحيحاً يا فون سون ؟ أيها الأب الرئيس المحترم !
قد أكون مهرجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرجاً ولكنتى فارس من فرسان
الشرف ، وأحب أن أتكلم هنا بصراحة تامة • نعم ، أنا فارس من فرسان
الشرف ، على حين أن بطرس الكسندروفتش هذا ليس الا حزمة من
غرور جريح ، ولا شىء غير هذا ! لئن جئت الى هذا الدير ، لقد جئت
على نية أن ألاحظ وأن أحكم • ان ابنى الكسى يحقق فى هذا الدير
خلاصه • وأنا أبوه • فمصييره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه •
لقد ظللت أمثل طول الوقت ، ولكن دون أن تفوتنى كلمة واحدة مما
كان يقال • لم يفوتنى شىء البتة ، وأحب أن أعرض عليكم الآن الفصل
الأخير من تمثيلتى ! اننى أعرف كيف تجرى الأمور عندنا • ما سقط
فقد سقط ، أليس هذا صحيحاً ؟ ان الخطأ الذى يرتكب يستمر قروناً !
ولكن لا ••• اننى لا أقبل هذا ••• اننى لا أسلم بهذا ••• اننى أثور
وأتمرد ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى أعماق الاستياء

والاستنكار ! الاعتراف سرُّ مقدس أشعر أنا نفسي تجاهه بتأثر قوى ، وتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس فى تلك الحجرة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ . فهل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً فى الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سرّاً مقدساً . تلك قاعدة قديمة محترمة معظّمة . كيف تريدون منى مثلاً أن أروى بحضور جميع الناس أتنى فعلت كيت وكيت - هل تفهمون ؟ - كيت وكيت ... أقصد كيت ... وكيت ... قد لا يكون من الحشمة أحياناً أن يروى المرء أموراً بعينها . تلك فضيحة أيها الآباء المجلّون ! من ذا الذى يضمن أن لا تصيروا من هذا شيئاً بعد شيء الى ملة الخلستيس ؟ * ... لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسى الأعلى عند أول مناسبة ... أما ابنى ألكسى فقد قررت أن استرده الىَّ وأصطحبه الى منزلى ...

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا . كان فيدور بافلوفتش قد سمع فى الماضى صدىً ضعيفاً عن الخلافات الاكليركية ، فهو اذن يعرف على أى وتر يجب أن يضرب . ان وشايات خيثة كانت قد انتشرت فى الماضى ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا فى مدينتنا وحدها بل حدث كذلك فى أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) . قيل فيما قيل ان الاحترام الذى يحاط به الشيخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعى اليه ، بل قيل أيضاً انه يسىء الى مهابة رئيس الدير ويسىء الى كرامته . وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سرِّ الاعتراف ، وقيل أيضاً حماقات كثيرة من هذا النوع . ثم سقطت هذه الاتهامات من تلقاء نفسها بعد ذلك ، سقطت عندنا ، كما سقطت فى كل مكان على كل حال . ولكن الشيطان الأحق الذى ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوى به متوتراً الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذى كان

فيدور ايفانوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سيما وأن أحدا لم يكن قد جئنا على ركبته أمام الشيخ فى ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عالٍ ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئاً وإنما هو يردد ما كان قد سمعه ، متذكراً أقاويل قديمة . لكنه وقد أخرج هذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاماً سخيفاً فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصة ، أن ما قاله ليس فيه شيء من سخف . ورغم أنه كان يدرك ادراكاً كاملاً أن كل كلمة أخرى يقولها إنما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى فى الطيش والحماقة مزيداً من التردى ، فإنه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر ، بل أخذ يهوى الى القاع منكس الرأس .

صرخ بطرس السكندروفتش يقول :

— يا للحقارة ! يا للصغار !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

— اسمح لى . جاء فى كلام الأقدمين : « قد قيل عنى سوء ، وقد اتهمت بأشياء منكرة . فلما سمعت تلك الأقوال ، قلت لنفسى : « ان المسيح هو الذى أرسل الى هذا الدواء لأشفى ، انه يفرض على هذه المحنة لأخلص نفسى من غرورها » . لذلك أشكر لك كلامك أجزل الشكر .

قال كبير الرهبان ذلك وحيّاً فيدور بافلوفتش منحياً له انحناءاً كبيرة .

— ته ته ته ! .. نفاق قديم وجمل مهترنة ! .. معروفة هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعنى هذه التحيات ! « قبله على الشفتين وطعنة

فى القلب ، * تمامأ كما ورد فى كتاب شيللر « قطاع الطرق » ! اننى أكره الكذب أىها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست فى أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك • هلاً قلتى لى أىها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة فى السماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا اننى مستعد أنا أيضاً لأن أصوم راضياً فى سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أىها الراهب المقدس ! لأن تمارس الفضيلة فى الحياة ، ولأن تكون نافعا للمجتمع ، خيرٌ من أن تلوذ بدير لتحمى نفسك من الحاجة الى العمل ، ولتتال فوق ذلك مكافأة فى الحياة الآخرة ! ولكن لعل هذا يبدو لك أصعب وأشق ... أنا أيضاً أجيد الكلام أىها الأب الرئيس •• قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف :

— فللنظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام ... خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر الاخوة اليسايف * : فليس الأمر أمر أسماك صغيرة فى هذه المرة ، أليس كذلك أىها الآباء الطيبون ؟ هيه ... هيه ... ما أروع هذه الزجاجات التى أخرجوها ! ... ومن ذا الذى أمد المدير بهذه الأشياء ؟ من ؟ الفلاح الروسى الطيب الشهم الذى يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالدريهمات التى جنتها يدها المتشققتان ، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أىها الآباء المبعجلون !

قال الأب جوزيف :

— عيب ما تقول •

أما الأب بائيسى فقد أصرَّ على الصمت فى عناد • وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجائوف •

قال فيدور بافلوفتش :

- اننى أترككم أيها الآباء الطيِّسون ، تماماً كما فصل بطرس
الكسندروفتش ! ولن أجيء بعد اليوم الى هنا ، فلو تضرعتم الى جاتين
على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هذا
شهوتكم وأسأل لعابكم ، أليس كذلك ؟ انكم تحاولون أن تكونوا لطافا
... ها ها ... لا جدوى من هذا ... لن أعطيك بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به سورة
عنف مقصود :

- لشبابى انما أنتقم الآن ... ان هذا الدير قد لعب فى حياتى
دوراً ... جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجَم على زوجتى
الكليوكوشا . أتقلتمونى باللعنات فى جميع معابدكم ، وأسأتم الى سمعتى
فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الرهبان ! اتنا نعيش فى عصر لبرالى ،
اتنا نعيش فى عصر سفن البخار وسكك الحديد . لن أعطيك لا ألف
روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبك ... لن أعطيك شيئاً البتة .

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتل فى حياته مكاناً فى يوم من
الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة . ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه
فى التمثيل أنه أوشك أن يصدّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم
الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه مما عاناه من
هذا الألم المزعوم . ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة أنه قد آن له أن
يتوقف .

أما كبير الرهبان فانه لم يردّ على أكاذيبه الخيثة التى نطق بها
الا بأن انحنى برأسه انحناء خفيفة ، وقال بصوت رصين :

- لقد قيل أيضاً : «افرح للالهانة الظالمة التى تلحق بك على رموس

الأشهاد ، دون أن تضطرب ، ودون أن تنضب ممن أهانك . • وذلك ما سنفعله •

— ته ته ته ... سفاسف وترهات ! لكم ما تشامون أيها الآباء الطيبون ! ... أما أنا فذاهب • وسأخذ ابني من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لى عليه من سلطة الأب على ابنه • يا ايفان فيدوروفتش ، يا بنى الطيع ، هلاًّ تحملت أن أمرك بأن تتبعنى • وأنت يا فون سون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال الىّ بالمدينة فى غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروّح عن نفسه • وليست المسافة بعيدة • هى فرسخ صغير • وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل ينسبك مطبخ الدير • سوف تتغذى عندى • وسيكون على المائدة كونيّك وخمور شتى • عندى خمرة رائعة من فاكهة التوت • هيه ! فون سون ! لا تفوّت هذه الفرصة ، والا كنت تجهل سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محرّكاً يديه • وفى تلك اللحظة انما لمحّه راكبتين منصرفاً ، ودلّ عليه أليوشا •
فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

— ألكسى ! عد الى البيت فى هذا اليوم نفسه ... عد الى البيت نهائياً ... خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد ، فما يراك أحد فيه بعد اليوم !

توقف أليوشا مذهولاً ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس • كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه فى عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهاى لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون أن يلتفت الى وراء ليودّع أليوشا • وفى تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجى عجيب ، كان لا بد أن يختم آخر ذلك النهار • ان

المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربى • كان يلتهث لهائناً شديداً بعد أن ركض ركضاً سريعاً حتى لا يصل متأخراً • كان راكبتين وألبوشا قد رأياه يندفع راكضاً • وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربى بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربى وأخذ يبذل جهوداً كبيرة ليشب الى داخلها •

صاح يقول بصوت نجيسل وهو يقفز الى العربى ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدأ عليه أنه مستعد لكل شئ :

— جئت ، جئت معكم •

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

— ألم أقل انه فون سون ؟ انه فون سون الأصلي رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ بأى واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذى دعاك الى العدول عن غنائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لى جبهة أنا أيضاً ، ولكن لا يسعنى أيها الأخ الا أن أعجب بعجبتك ! هيّا اففز ، اففز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا * ... سيكون هذا مضحكاً ... سوف يجد مكاناً بين أقدامنا. أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون سون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذى ؟ اففز الى المقعد بجانب الحوذى يا فون سون ! ...

ولكن ايفان فيدوروفتش الذى كان قد استقر فى العربى ، لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فاذا بمكسيموف يطير مسافة ثلاثة أمتار ! وكانت معجزة أنه لم يسقط • وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذى بصوت غاضب :

— امش !

فسأله فيدور بافلوفتش :

— ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت • ولم يجب ايفان فيدوروفتش •
أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس
النظر الى ابنه :

— عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعته
اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

— كفَّ عن قول هذه السخافات ! أو لى بك الآن أن ترتاح !

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخيم :

— قليل من الكونياك لن يضر الآن •••

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب •

قال الأب :

— ستشرب مئى قليلا من الكونياك فى المنزل •

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا •

فأردف فيدور بافلوفتش يقول :

— أما ألبوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد

لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور •

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا • ثم

أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق • ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة

الى أن بلغا المنزل •

الباب الثالث: الشهر والفرس

١

في الحرفة



منزل بافلوفتش ، رغم أنه بعيد جدا عن وسط المدينة ، لم يكن مع ذلك في أقصى الضاحية . هو مبنى أميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق أرضي واحد ، رمادي اللون ، يغطيه سقف من صفيح أحمر ؛ قد أحسن بناؤه جدا ، ففي امكانه أن يصمد لأذى الزمن طويلا ؛ مريح واسع ، يضم حجرات مظلمة متعددة ، وأركاناً منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفئران فيه كثيرة ، ولكن فيدور لا يقلقه وجودها ، حتى لقد كان يقول : « ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا في المساء ، اذا كان هنالك فئران » . ذلك أنه قد تعود عند هبوط المساء أن يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع في الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد أقام مطبخه . صحيح أن المبنى الرئيسي كان يضم مطبخا ، غير أن فيدور بافلوفتش كان يعمق الروائح الكريهة ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن أن نقول على وجه العموم ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على أساس أن يضم أسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن أن يسكنه عدد من السادة والخدم

يساوى خمسة أضعاف العدد الذى يقيم فيه منهم الآن • ومع ذلك لم يكن يقطنه فى الآونة التى جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون فيه الا ثلاثة : جريجورى العجوز ، وامراته العجوز مارفا ، والخدام سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا • يحسن أن نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة • الحق أنه ليس هناك أشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق أن قلناه عن جريجورى فاسيلفتش كوتوزوف الذى أسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية • انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأى ، يعضى الى هدفه فى عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الا جحودها (وذلك لأسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) • وفى وسعنا أن نقول عنه انه رجل شريف عفيف نزيه • لقد ألحت عليه امرأته مارفا اجئتنا ، رغم أنها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا أعمى ، ألحَّت عليه إلحاحاً قوياً ، ولا سيما غداة تحرير الأتقان ، أن يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئاً من مال ادخراه) • ولكن جريجورى أيقن عندئذ يقيناً نهائياً أن امرأته تقوده الى الخطأ والضلال ، لأن « كل امرأة ناقصة العقل » ، وأضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما أن يتركا مولاها القديم ، مهما تكن عيوبه • لأن ذلك هو الواجب الذى يقع على عاتقهما الآن • وسأل الرجل زوجته مارفا قائلاً :

— هل تفهمين أن هنالك واجباً لا يجوز التخلي عنه ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

— أنا أعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا أفهم أبداً ما هو الواجب الذى يلزمنا بالبقاء هنا •

فقال لها :

- سيان أن تفهمي وأن لا تفهمي • وعليك بعد الآن أن تسكبي !

وكذلك كان • بقي جريجورى ومارفا • ولقد حدّد لهما فيدور بافلوفتش أجراً ليس بالأجر المرتفع طبعاً ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الأجر فى مواعيده بغير تأخير • وكان جريجورى يشعر من جهة أخرى • أن له على مولاه نفوذا لا ينكر • كان جريجورى يحس ذلك ، وكان على حق فى احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرّج ، الماكر ، العنيد ، الذى يعرف كيف يكون صلباً فى « بعض شئون الحياة » على حد تعبيره ، كان ضعيفاً الى أقصى درجات الضعف فى « شئون أخرى من شئون الحياة » • وكان يعرف أنواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصراً بمخاوف شتى • كان يرى أن على المرء « فى بعض شئون الحياة » أن تكون أذناه دائماً بالمرصاد ، وأن يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جداً • وكان جريجورى شخصاً موثقاً حقاً حتى لقد اتفق ليفدور بافلوفتش مراراً (أثناء حياته) أن أوْشك أن يضرب ، وأن يُضرب ضرباً مبرحاً يلحق به أذى شديداً ، ولكن جريجورى كان ينقذه دائماً من المأزق ، مع ازجاء النصيح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات • على أن الخوف من الضرب ما كان له أن يكفى وحده لاقفاد فيدور بافلوفتش شجاعته فى بعض الأحيان • ان هناك ظروفاً أخطر من ذلك كثيراً ، وان هناك ضروباً من القلق أشد ، وان هناك حالات نفسية دقيقة معقدة كان فيدور بافلوفتش يعانيها دون أن يستطيع تفسيرها هو نفسه ، هى حاجة مفاجئة قوية صارمة عارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصاً قريباً منه مخلصاً له • تلك لحظات يمر بها فيدور بافلوفتش وتشبه أن تكون مرضاً : انه وهو الفاجر الماهر الى أقصى حدود الفجور والمهر ، انه وهو الرجل القاسى فى

شهوانيته قسوة خسرة رهيبة ، كان يحس في بعض لحظات من السكر
بنوع من خوف سرى وتضعف نفسى يرهقانه جسمياً ان صح التعبير ،
حتى لقد كان يصف ذلك أحيانا بقوله : « يبدو لى فى تلك اللحظات أن
روحى تندفع خارجة من أحشائي » • ففى تلك اللحظات انما كان
يجب أن يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الأقل ، ان لم يكن
فى غرفته نفسها ، رجل موثوق أمين مخلص ، رجل يختلف عنه كل
الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والمهر شيء ، لكنه رغم معرفته
بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على أسرارهِ ، يغفرها له من باب الاخلاص
ولا يمارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصة ، ولا يهدده بعقوبات مقبلة
لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ••• رجل يمكن أن يحميه عند
الحاجة ••• مِمَّنْ يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر ••
كان لا بد له حتماً فى مثل تلك الساعات من أن يوجد على مقربة منه
كائن « آخر » ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن أن يعده
صديقا ، حتى يستطيع أن يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وأن يستدعيه
لا لشيء الا أن يرى وجهه ، وربما بادلَه عندئذ بضع كلمات فى أى
موضوع من المواضيع : فاذا أظهر له هذا الرجل شيئا من لطف وتسامح
ولم يؤنبه ولم يقرعه أصبح حزنه أقل ثقلاً فى قلبه ، واذا توجهم له
وقسا عليه ثقلت كآبته مزيدا من الثقل • حتى لقد كان يتفق لفيدور
بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) أن يذهب الى جريجورى فى
المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلاً ، ليطلب اليه أن يلحق به • وكان
الخادم ييجى عندئذ الى مولاه الذى يأخذ يُجرى معه حديثاً قافهاً يدور
على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن ، ثم ما يلبث أن يصرفه ؛ ويعود الى
سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئا بعد أن أفرغ ما فى جوفه • ولقد
مرَّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله •

ان هذا الفتى قد « طعن قلبه » لأنه « يعيش معه » ويرى كل شيء ، ثم هو لا يُدين شيئا من الأشياء . * وأكثر من ذلك أن أليوشا قد حمل الى حياة أبيه عنصراً جديداً كل الجدة ، عنصراً لا عهد للأب بمثله من قبل ، هو أن أليوشا لم يحتقره البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر تحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون أن يكون أبوه جديراً بها . ان موقفا كهذا الموقف خليف بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذي كان يعيش بغير أسرة ويركض وراء النساء ويعتز بأنه قليل الاحساس ولا يسعى الا الى خسيس الملذات . ذلك موقف ما كان لهذا العجوز أن يتوقمه . وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه أدرك في ذاته أشياء لم يشأ أن يقبلها وأن يسلم بها قبل ذلك .

سبق أن ذكرت في مطلع هذه القصة أن جريجورى كان يكره آديلايد ايفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، أم ابنه ديمتري ؛ وأنه فى مقابل ذلك قد تعلق بزوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا ، الكليكوشا ، وأنه تحيَّز لها ضد كل من يمكن أن تسوّل له نفسه أن يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث أو عن طيش . وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، استحالت فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة أنه أصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق أن يسمع من أى انسان ، كائناً من كان ، أية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل أحد ذلك أمامه لهب يهاجم من هاجمها على الفور . وكان جريجورى فى مظهره رجلاً هادئاً وقوراً رصيناً ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعراً بوزن كل لفظ من ألفاظه ، لا يلقي الحديث على عواهنه ، ولا يقول قولاً خفيفاً ولا ينطق بكلمة لاداعى اليها ولا محل لها . وكان يستحيل عليك أن تعرف من النظرة الأولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطبيعة أم هو لا يحبها . ولكن الحقيقة هى أنه

كان يحبها ، وكانت هي لا تجهل ذلك • ولم تكن مارفا اجناتنا هذه بالمرأة الفية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء أكثر مما كان يملك منه زوجها ، ولقد كانت على كل حال أصدق منه حكما وأصوب منه رأيا في شئون الحياة العملية • ومع ذلك خضعت له منذ أن تزوجا ، فلم تبجد سلطته عليها ، وكانت تحترم احتراماً أعمى ما كان ينعم به من تفوق أخلاقي • يجب أن نذكر أنهما كانا ، طوال حياتهما ، قلما يتبادلان الكلام ، فإذا اتفق أن دار بينهما حديث جرى الحديث على المسائل التي لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية • لقد تعود جريجورى الوقور الرصين المهيب أن يفكر فى أموره وحده ، فكان لا يفضى الى أحد بمشاغله ولا يشرك أحدا فى همومه ، وقد بلغ من هذا أن امرأته أدركت نهائيا أنه فى غير حاجة الى نصائحها • وكانت تحس أن زوجها يقدر لها صمتها ، وأنه يرى فيه دليلا على ذكائها • ولم يضربها زوجها فى حياته الا مرة واحدة - وكان ضرباً خفيفاً على كل حال • واليكم كيف حدث هذا : أثناء السنة الأولى من زواج فيدور بافلوفتش بأديلايد ايفانوفنا ، فإن نساء القرية وبناتها ، ولم يكن قد تحررن من القنانة فى ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم فى فناء منزل السادة يغنين ويرقصن ، فبينما كانت الفلاحات تغنى أغنية « فى المروج » ، اذا بمارفا اجناتنا التى كانت ما تزال فى مبة الصبا وريعان الشباب ، اذا بها تندفع فجأة الى أمام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصاً خاصاً ليس هو الرقص الذى تمودت الفلاحات أن ترقصه ، وانما هو الرقص الذى تعلمته أيام كانت ما تزال تعمل خادماً فى منزل أسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذى أقامته تلك الأسرة فى أملاكها والذى استدعت له من موسكو أستاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص • رأى جريجورى زوجته تندفع فى ذلك اللهو فرحة كل الفرحة ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى أدبها التأديب

الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها • تلك هى المرة الوحيدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شئ من هذا فى حياتهما بعد ذلك • ثم ان مارفا اجناتقنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص وميلها اليه •

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعيش طويلا • ومع ذلك كان جريجورى يحب الأطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، أى أنه كان يعترف به ويجاهر به فى غير خجل • فلما هربت آديلايد ايقانونفا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، قرابة سنة ، يعنى به ويعطف عليه ويحبه ، متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق أن أتيت على ذكرها • أما ابنه هو ، فانه لم يندق الا فرحة انتظاره مدة حبلى أمه به • حتى اذا ولد الطفل امتلأ قلب أبيه هولاً وحزناً • ذلك أن الصبي قد جاء الى هذا العالم بست أصابع فى كل يد • وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصاعاق أنه أصر لا على أن يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على أن ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق • كان ذلك فى الربيع • وقد قضى الرجل الأيام الثلاثة التى سبقت التعميد ، قضاها يمزق الأرض فى بستان الخضار • فلما حل اليوم الثالث الذى سيُحتفل فيه بتعميد الصبي كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه • فهذا هو يدخل على مسكن الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبي عرّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : « الأفضل أن لا يُعمد الطفل البتة • • • لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى كلام لا داعى اليه ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحة » ، وقاله وهو يلقى على الكاهن نظرة قائمة عنيدة •

سأله الكاهن مدهوشاً ضاحكاً من كلامه :

— لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

— لأنه ... تين !

— ماذا ؟ أى تين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات • ثم دمدم يقول مضطرباً أشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزم ، وكان واضحاً أنه لا يريد أن يدخل فى شروح أوسع ، دمدم يقول :

— اختلط الأمر على الطبيعة !

ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبى المسكين مع ذلك • صلتى جريجورى بحرارة وخشوع أمام جرن التعميد ، ولكنه لم يغير رأيه فى الوليد • على أنه لم يخلق أية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الأسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على أن لا يراه ، متظاهراً بأنه يجهل وجوده ، قاضياً أكثر وقته فى خارج مسكنه • ولكن حين مات الصبى بعد أسبوعين بمرض القلاع ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلاً بحزن شديد • وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيثاً القبر منحنيًا حتى الأرض • ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجي جريجورى على ذكر هذا الصبى مرة واحدة ، كما أن مارفا اجنأنا لم تذكره بحضور زوجها فى يوم من الأيام • فاذا اتفق لها أن تكلمت مع أحد عن « صغيرها » ، تكلمت هامسةً همساً حتى فى غياب جريجورى فاسيلةتش • وفى رأى

مارفا اجناقتنا أن هذه الجنازة هي أصل الاهتمامات الدينية التي أصبحت تلاحظ عند جريجورى الذى انصرف منذ ذلك الحين الى دراسة « الأمور الالهية » ، فهو يكب على قراءة كتاب أسماء الشهداء صامتا معتزلا فى كثير من الأحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة فى كل مرة نظارته الضخمتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة • كان يندر أن يقرأ جريجورى فى هذا الكتاب جهراً ، الا فى أيام الصيام الكبير • وكان يجب أن يقرأ « سفر أيوب » خاصة ، كما استطاع أن يحصل من مكان ما على كتاب يضم أفكار ومواعظ « أبينا حبيب الله » اسحاق السورى * ، فكان لا ينسى يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون أن يفهم منه شيئاً بطبيعة الحال ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يقدّر هذا الكتاب مزيداً من التقدير ويحترمه مزيداً من الاحترام • وقد عنى فى الآونة الأخيرة بأراء ملة الفلاجلان ، فدرس ، من كتب ، هذه الحركة التى التقى ببعض المنضمين اليها فى القرى المجاورة ، فاهترت نفسه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنه رأى أن الانضمام الى العقائد الجديدة ليس بالأمر المستحسن • وطبعى أن العكوف على قراءة « الكتب الدينية » قد أضفى على تعبير وجهه مزيداً من الخطورة والرصانة والوقار •

لعل جريجورى كان ميالا الى الصوفية • وهذا حادث من أغرب ما يمكن أن يقع من حوادث ، حادث لم يكن فى الحساب قط ، يحدث كأنما على عمد ، فى تلك الآونة نفسها التى شهدت ميلاد ابنه ذى الأصابع الست وشهدت موته السريع ؛ وهو حادث خلّف فى نفسه ، خلال سنين طويلة بعد وقوعه ، كما رضى أن يعترف هو نفسه بذلك مرة ، خلف فى نفسه « أثراً لا يندرس » وألقى عليها « طابعا لا يندثر » • اليكم ما حدث : فى الليلة التى أعقبت دفن الصبى الصغير ، استيقظت

مارفا اجناتفا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء آتياً من بعيد ، بكاء يشبه بكاء وليد . ذعرت مارفا اجناتفا ، فايقظت زوجها . وأصاخ الرجل بسمعه فقال ان الأصوات التى يسمعا هي أصوات أنين . كأنه أنين امرأة . . ونهض فارتدى ملابسه . هي ليلة حلوة من ليالى شهر أيار (مايو) . خرج جريجورى الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا أن أصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة . فدهش واستغرب : ان الحديقة تغلق فى الليل من جهة الفناء بقفل قوى ، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لأنها محاطة بسيياج عالٍ قوى . عاد جريجورى الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون أن ينطق بكلمة واحدة ، غير عابىء بذعر امرأته الهسرى التى أكدت أنها تسمع سماعا واضحا أصوات بكاء طفل وليد ، وأن هذه الأصوات لا يمكن أن تكون الا أصوات ابنهما يبكى فى الحديقة ويناديهما هذا النداء . وأدرك جريجورى عندئذ أن أصوات الشكوى آتية من الحمامات المقامة فى الحديقة على مقربة من الباب الحديدى ، وأنها أنثى امرأة ما فى ذلك ريب . فلما فتح باب الحمامات جمده فى مكانه دهشة من المنظر الذى رآه : ان معنوه المدينة التى تجوب الشوارع كل يوم والتى يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة . وقد أطلقوا عليها لقب اليزابث سمردياستشايلا * . . قد تسللت الى الحمامات ، فولدت هنالك ولداً . وكان الصغير راقدا قرب أمه التى تنحضر . لم تنطق المعنوه بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو أنها لا تعرف أن تتكلم . يحسن مع ذلك أن نتحدث عن هذه المرأة بمزيد من التفصيل .

اليزابث سمرويا ستسايا



هذا الحادث في قلب جريجورى اضطرابا عميقا ،
 وذلك بسبب تفاصيل ذكره هذا الحادث بها ،
 وعزّز في نفسه شبهة أليمة مفرّزة كانت قد
 ساورته من قبل • اليزابث سمردياستسايا بنت
 قصيرة القامة جدا • لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين • كما أصبح يحلو
 لعجائز النسوة التقيات في مدينتنا بعد موتها أن يقولوا • وكان وجه هذه
 المرأة الشابة التي تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا ملونا ، ولكنه
 يفصح عن العته والبلاهة افصاحا تاما : ان نظرتها جامدة ، وهي نظرة
 تشتمل رغم هدوئها على شيء يؤلم النفس • وكانت تسير حافية القدمين
 منذ ولدت ، في الشتاء وفي الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قنب •
 وكان شعرها ، الأسود تقريبا ، الكثيف جدا ، المتجعد كأنه جزائز
 شاة ، يتكوم على رأسها كطاقة ضخمة ؛ وهو على كل حال ملطخ
 دائما ، زاخر بالتراب وأوراق الأشجار والنصينات والأقذاء والنشارات ،
 لأنها اعتادت أن تنام على الأرض في الغبار والوحل • وكان أبوها ايليا
 وهو رجل من سكان المدينة مسكين مدمّر مريض لا مأوى له قد آدمى
 على الشراب ، وأصبح منذ عدة سنين يعيش في دار رجل من أهل مدينتنا

حصل عنده على وظيفة غامضة مبهمة هي وظيفة عامل • أما أم اليزابث فكانت قد ماتت منذ زمن طويل • وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب اليزابث ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هي جاءت الى الدار • على أن اليزابث كانت لا تجيء الى الدار الا نادرا ، لأن جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هي امرأة « مجنوبة » يحبها الرب • وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين في مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يعملون في التجارة ، حاولوا مرارا أن يكسوا اليزابث بما هو أقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدنرونها كل عام ، في أوائل أيام البرد ، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قديمها حذاءين • فكانت اليزابث تدع لهم أن يفعلوا بها ذلك طائفة بغير احتجاج ، ولكنها ماتلت أن تبعد عنهم ، وتمضى الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية في أغلب الأحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التي ألبستها - اللقمة والتورة والمعطف والحذاءين - فتدعها هنالك ، ثم تمضى كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص • وقد حدث مرة أن حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا في جولة تفتيشية ، فلما رأى اليزابث هذه صدم منظرها أفضل عواطفه ، ورغم أنه أدرك أن المرأة هي « يوروديفايا » * ، وقد ذكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على أن منظر فتاة شابة تعجوب الشوارع بقميص شيء يؤذى الأخلاق العامة ، وأمر بوضع حد لهذه الفوضى • ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم أحد بعد انصرافه باليزابث وتركتم تعيش كما يحب لها هواها أن تعيش • ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك أن جعلها أقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو أن جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين

كانوا يتمتعون عن مشاركتها ويعفون عن تنكيدها ، مع أن الأطفال فى مدينتنا ، ولا سيما أطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة . كانت اليزابث تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال أحد أن يطردها . بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها ، ويمطيها فرشا أو قرشين ، فكانت تأخذ هذه الاعطيات الصغيرة من النقود ، ولكنها ماتلت أن تلقىها فى صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس أو سجن من السجون . فاذا أعطاها أحد فى السوق رغيفا من أرغفة الخبز الطرية الصغيرة التى تسمى « بوبليك » أو « كالاتش » ، لم يفتها أن تهبها لأول طفل تلقاه فى طريقها أو هى تستوقف فى الشارع سيده من أغنى سيدات مدينتنا فتعطيهما الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحة . كانت لا تريد أن تنفذنى الا بخبز أسود وماء . وكانت فى بعض الأحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شئ فى متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن أصحاب المتاجر لا يخطر ببالهم أن يراقبوا لتقتهم بأنها لن تسرق شيئا فى يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبك واحد ولو صفت أمامها ألوف الروبلات ثم نسيت . وقلما كانت تُرى فى الكنيسة ، ولكن كان يحلو لها أن تقضى ليلالى بأسرها مضطجعة فى فناء معبد من المعابد ، حين لا تسلك الى بستان من بساتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الأسيجة التى تقوم مقام الحواجز كثيرة فى منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار - أغنى دار أسياد أبيها المتوفى - مرة فى الاسبوع تقريبا أثناء الصيف ، وفى جميع الأيام أثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهى تلتو عندئذ فى دهليز من الدهاليز أو تقبع فى الاسطبل . والناس يستقربون كيف تستطيع اليزابث أن تحمّل هذا النوع من الحياة ، ولكن اليزابث كانت

قد تعودت ذلك ، وهي رغم خآلة جسمها قوية البنية شديدة الاحتمال •
صحيح أن بعض الأشخاص الذين خصتهم الأقدار فى مدينتنا يحفظ وافر
من الهناء كانوا يؤكدون أن الزبابت انما تتصرف هذا التصرف من باب
الكبر والزهو والخيلاء • ولكن هذا التفسير يصعب على المرء أن يصدقه ،
لأن هذه الفتاة كانت لا تعرف حتى الكلام ، فهي لا تزيد على أن تحرك
لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمه لا تبين • فهل يمكن الحديث
يصددها عن كبر أو زهو أو خيلاء ؟

ففى ذات ليلة من ليالى شهر ايلول (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد
جدا) ، ليلة مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة
مرحة من اللاهين العابثين من أصحاب اليسار فى مدينتنا عائدة من النادى
بعد افراط فى الشراب والطعام ، فهي تعود قاطعة أفنية الدور وبساتين
المنازل • كان الوقت ساعة متأخرة من الليل بالنسبة الى عادتنا ، وكانت
العصبة خمسة رفاق أو ستة • ان الشارع الصغير الذى يجتازونه الآن
محفوف بسياج من كل جهة ، ووراء السياج تمتد بساتين لخضار فى
المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضى الى الجسور الضيقة الممدودة
عرضاً على غديرنا الطويل الآسن الذى اعتاد الناس أن يسموه فى بعض
الأحيان نهرا • وان العصبة لتسير اذا هى تلمح الزبابت على حين فجأة
نائمة قرب السياج بين نباتات القرّاص والأرقطيون • توقف العابثون
القاصفون يضحكون لهذا المشهد فى قهقهة مجلجلة مدوية ، وأخذوا
يطلقون الأمازيج البذيئة فى غير حياء • وفجأة خطرت ببال أحد أبناء
الأسر فكرة عجيبة هى أن يطرح سؤالاً من طبيعة خاصة جداً فقال :
« هل يمكن أىّ انسان أن يرى فى هذه البهيمة امرأة ، فى هذه الملحظة
نفسها مثلاً ؟ » الخ • • • • • فضج الجميع يظهرون اشتزازا متكبرا ونفورا
مستعليا ، مؤكدين أن ذلك غير وارد • ولكن فيدور بافلوفتش الذى كان

أحد أفراد العصابة تقدم فورا فقال : « بالعكس : ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان في وسع المرء تماما أن يمد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاتارة اللذينة ، الخ الخ ... » . يجب أن نذكر أن فيدور بافلوفتش كان في ذلك الأوان يسألي في ابراز دور المهرج الذي يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التي يتاح له فيها أن يلعب نجهه في هذا المجال وأن يسأل رفاقه وأن يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم في الظاهر ولكن بروح العبودية الدينية لهم في حقيقة الأمر . وقد حدث هذا في الآونة التي كان قد تلقى فيها من سان بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلايد ايفانوفنا ، فكان وقد وشح قلبه بشريط أسود يسترسل في السكر ويرتكب من الأعمال الفاجرة ما كان يثير الاشتزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة في نفوس كثير من الناس ، حتى أشدهم انحلالا وأكثرهم دعارة . طفت العصابة الفرحة تضحك طبعا لهذا التصريح الذي لم يكن في الحسبان . وقد مضى أحد العائنين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على أن يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشتزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد أنه انصرف مع رفاقه في وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها أحد يوما على وجه اليقين . غير أن ما حدث هو أن المدينة كلها أصبحت بعد خمسة أشهر أو ستة لا تتحدث الا عن اليزابث التي صار واضحا أنها حبل ، وأن المدينة تحدث عن هذا الأمر باستياء صادق واستكار عميق ، وأن السؤال الذي تلقى جميع الشفاء هو هذا السؤال : « من الآثم ؟ من الجاني ؟ » . وفي تلك اللحظة انما انتشرت في مدينتنا شائعة رهيبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصابة

الفرحة التي كانت عائدة من النادى فى تلك الليلة من ليلالى شهر ايلول، لم يبق منها فى مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان . ومن المحقق تماما أنه لم يقصص شيئا ، حتى ولو كان يعرف شيئا . أما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا أثناء تلك المدة . ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهامها ملحا عنيدا . والحق أن فيدور بافلوفتش قد استاء من الامر . ولو قد سئل فيه يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى أولئك الصغار من سكان المدينة . لقد أصبح فيدور بافلوفتش فى ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده ، لا يصاحب الا الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا أن يسلبهم ويضحكهم . ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى لقد طفق يشتم الواشين ويهينهم ؛ كما أنه اندفع يقيم الأدلة الطويلة ويدلى بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ، بحيث أن عددا كبيرا من الأشخاص تبددت شكوكهم وزايلتهم شبهاتهم . كان جريجورى يؤكد قائلا بלהجة جازمة : « ان هذه البنت السيئة هى وحدها مسئولة ، وان الجانى لا يمكن أن يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب » . (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب فى تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ فى مدينتنا) . لقد بدا هذا الافتراض مقبولا ، لأن الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا أنه فى تلك الليلة نفسها من ليلالى شهر ايلول قد حام فى شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم . على أن هذا الحادث وما أثاره من ترثرات كثيرة لم يحرم اليورودينايا المسكينة من عطف الناس عليها . بالعكس : أصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا

من الرعاية ويعملون على حمايتها قصاراهم • حتى أن التاجرة كوندراتيفا
وهي أرملة ثرية جدا ، قد قررت في نهاية شهر نيسان (أبريل) أن
تضم الشقية الى منزلها وأن تحتفظ بها عندها الى أن تضع طفلها • وقد
روقت الزايت ببقطة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة اليقظة المستمرة
استطاعت في آخر يوم أن تهرب مع المساء من عند السيدة كوندراتيفا
لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش • أما كيف استطاعت وهي في حالتها
تلك أن تجاز الحاجز العالي المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى
حد ما • فبعضهم يزعم أن هناك « أناسا » قفلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم
يذهب الى أن « قوى خفية سرية » قد أعانتها على اجتياز الحاجز • وأغلب
الظن أن الامر قد تم على نحو طبيعي تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان
اليزايت ، الماهرة في تسلق الأسبجة للتسلل الى بساتين الخضار ، لا بد
أنها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم
حملها ، فأذت نفسها بذلك طبعا •

هرع جريجورى الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضي الى اليزايت
لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز تسكن من حسن الحظ
في قرية قريبة من المدينة • ولقد أمكن انقاذ الطفل • أما الأم فقد فاضت
روحها عند الفجر •

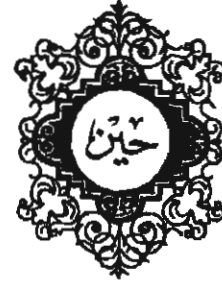
وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس مارفا فوضع
الوليد على ركبتيها وأسندته الى صدرها ، وقال لها : « ان اليتيم ابن الله ،
فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين أكثر مما يصدق
على غيرنا • ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله لنا ! ان هذا الطفل قد
ولد من أم صالحة وشيطان رجييم ، فأطعميه ، ولا تبكى بعد الآن • • •
هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير • رقد عُمَدَ وسُمِّيَ بافل ، أما
الاسم الأبوى الذى كان يجب أن يسمى به فقد تم الاجماع بفسير كلام

وبغير شرح أو تعليل أو تفسير ، على أن يكون اسم « فيدوروفتش » •
ولم يعترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد
الأمر داعياً الى الضحك جداً ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكاراً قاطعاً
أنه هو الفاعل • وتخيّل فيدور بافلوفتش فيما بعد أن يسمى الصبي
باسم أسرة ، فأسماء سمردياكوف مشتقة ذلك من لقب أمه ، اليزابث
سمرديامستشاييا •

ان سمردياكوف هذا هو الذى أصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور
بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم
فيه العجوزان جريجورى ومارفا • وقد جعل سمردياكوف طباًخاً •

قد يكون ضرورياً أن أتحدث عن سمردياكوف هنا بمزيد من
الافاضة ، ولكننى أشعر بوخز فى ضميرى اذا أنا صرفت انتباه القراء مدة
طويلة الى الحديث عن خدم مبتذلين ، فهأنذا أعود اذن الى سرد قصتى ،
آملأ أن تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة أخرى عن
سمردياكوف فى باقى الرواية •

اعتراف قلب حمد سعد



تلقى أليوشا الأمر الذى أصدره إليه أبوه
صاحباً من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامداً
فى مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة
شديدة • على أن أليوشا لم يكن جامداً كتمثال ،
ذلك أنه لا يفقد أبداً ما يتصف به من حضور الذهن وسرعة البديهة •
حتى لقد اتسع وقته ، رغم الخواطر التى هزّت نفسه وبثت فيها
الاضطراب ، لأن ينزل الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به أبوه من
أعمال فى غرفة الطعام • ثم مضى فى طريقه الى المدينة آملاً أن يهتدى
أثناء الطريق الى جواب عن الأسئلة التى كانت تدور فى رأسه وتعذبه
وتقلقه • ويجب أن أذكر فوراً أن الأقوال التى صاح بها أبوه والأمر الذى
أصدره إليه بالعودة الى المنزل « مع وصادته وفراشه » ، أن ذلك كله لم
يوقظ فى نفس أليوشا شيئاً من خوف • فهو يدرك حق الإدراك أن هذا
الأمر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه إليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك
الطريقة الجازمة ، إنما هو ثمرة « اندفاع » عابر ، بل هو نتيجة رغبته
فى الاخراج التمثيلى والتزيين المسرحى ••• وقد ذكره هذا بما حدث
فى مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل أحد سكانها بعيد ميلاده ، فلما

أسرف في الشراب أكثر مما اعتاد أن يسرف ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك في منزله نفسه وبحضور ضيوفه ، لأنه مُنع من أن يصب له مزيد من الفودكا ، فإذا هو يأخذ يكسر الأطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الأمر الى أن أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك في سيل حسن الاخراج وجمال التأثير ... فلا شك أن أباه حين ألقى اليه أمره كان يقوم بعمل من هذا النوع . ذلك ما حدث به أليوشا نفسه . وقد تاب الرجل الذي احتفل بعيد ميلاده ، تاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعاً على أطباقه وصحونه وأوابه التي تحطمت . كان أليوشا يعلم اذن أن أباه سيأذن له في الغداة أن يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه . ولقد كان واثقا على كل حال من أن أباه لن يحب يوماً أن يحزنه ، أن يحزنه هو على الأقل ! ثم انه ليس هناك أحد - كان أليوشا مقتنعا بذلك - ليس هناك أحد في العالم يمكن أن يريد أن يحزنه ، وما من أحد يمكن أن يبلغ منه ذلك ولو أراد . تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تهل نقاشا . لذلك سار قدماً لا يتردد ولا يلوى على شيء .

أما الخوف الذي كان يساوره في تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل على نفسه خاصة لأنه لا يستطيع أن يستبين طبيعته وأن يجلو كنهه واضحا : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هي كاترين ايفانوفنا تلك التي توسلت اليه بكثير من الالاحاح ، في البطاقة التي أرسلتها اليه مع السيدة موخلاكوفا منذ بضع ساعات ، أن يجيء اليها ، دون أن تشير الى الهدف من هذه الزيارة التي تلح في طلبها . ان رجاءها ذاك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ولا مجيد عنه ، ان ذلك كله قد

ملاً نفسه منذ البداية بضيق غامض وهم مبهم ، وجعله يشعر بنوع من خوف يعذبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئاً بعد شيء حتى غداً آثماً واخزاً كالأوى لا يطاق ، دون أن تستطيع كبتة الأحداث التي تعاقبت بعد ذلك فى الدير ، والمشاهد والوقائع التى تلاحقت فى حجرة الشيخ وفى مسكن كبير الرهبان . وليس مرد هذا القلق الى أنه يجهل ماستقوله له هذه المرأة ، وما سيحييها به . فليست المرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها ويخافه منها ، فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صحبة النساء وحدهن تقريباً ، منذ طفولته الأولى الى حين دخوله الدير . وانما هو خائف من هذه المرأة بعينها ، من كاترين ايفانوفنا بناتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الأولى التى رآها فيها ؛ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة أو مرتين - وربما ثلاثاً - وبادلها بضع كلمات عرضاً فى مناسبة من المناسبات . ان الصورة التى بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء ، قوية السطوة . ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شيء آخر لم يستطع له تحليله ، فكان جهله هذا يفاقم عذابه مزيداً من المقاومة فى تلك الساعة . لا شك أن هذه الفتاة تسعى الى أنبل الأهداف . ذلك أمر يعرفه : انها تحاول انقاذ أخيه دمترى الذى أذنب فى حقها ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تتمناه الا شهامة منها وأريحية . ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من نقاء ورفعة لا يملك الا أن يمجدهما ولا يملك الا أن ينصفهما ، لم يستطع أن يتغلب على الضيق الذى كان يغزو نفسه ويثقل على صدره كلما ازداد اقرباً من منزل الفتاة .

وقدّر أليوشا أن أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترين ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد أن يكون مع أبيه . أما دمترى فان أليوشا أكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضاً ، وهو

يوجس سبب ذلك . معنى هذا أن الحديث بينه وبينها سيجرى فى خلوة .
ألا ليه يستطيع ، على الأقل ، أن يرى أخاه دمترى قبل هذا الحديث
المحتوم ! خطر بال أليوشا أن يسرع الى أخيه بوتة ليراه . ترى أليس
ممكنا أن يتناقش معه أولا ، دون أن يظهره على رسالتها طبعاً ؟ ولكن
دمترى يقيم فى مكان بعيد ، وأغلب الظن أنه ليس فى منزله الآن .
توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيراً . رسم على نفسه إشارة
الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث أن ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه
يسير بخطى حازمة نحو منزل السيدة « الرهيبة » .

كان يعرف أين تقطن . ولكن الاتجاه الى « الشارع الكبير » ثم
عبور الميدان ، ثم ... الخ ... كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلاً .
ان مدينتنا الصغيرة مبشرة جداً ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الأحيان *
أضف الى ذلك أن أباه ينتظره ، فلهذا لم ينس الامر الذى ألقاه اليه ،
وقد ينفذ صبره وتعود اليه نزواته . وقرر أليوشا ، بعد قلبب الامر على
وجوهه المختلفة هذه ، أن يسلك الطرق المختصرة عبر الأبنية والحدائق ،
فهو يعرف الشوارع الصغيرة والمخارج المختلفة فى مدينتنا كما يعرف
راحة كفه . كان عليه أن يقطع الشوارع قطعاً ، فيمر بأراض بور ،
ويجتاز فى أماكن شتى أسيجة تحيط بأملأك خاصة ، ويعبر أبنية منازل
أناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحيه عند مروره . فعلى هذا النحو
يلغ « الشارع الكبير » بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السيل
العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه فى لحظة من
اللحظات قريباً من منزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل
صغير عتيق بال ليس له من النوافذ إلا أربع وكان القدم قد شقق جدرانها .
ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة
من سكان المدينة ، عجوز ليس لها إلا ساق واحدة ، تسكن فى المنزل

مع ابتنتها • وكانت ابتنتها هذه قد عملت فى الآونة الأخيرة بالعاصمة ،
خادمة رئيسية ، لدى جنرالات فى الغالب • ولكنها رجعت منذ مايقرب
من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهى الآن تظهر فى مدينتنا بأثواب أنيقة
جدا • وكانت العجوز وابنتها تعيشان مع ذلك حياة فاقة شديدة وعوز
كبير ، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من
حيث هما جارتان ، تلتمسان شيئا من حساء وخبز تفسدقه عليهما مارفا
اجناتنا راضية مسرورة • ولكن الفتاة رغم أنها تقتات من البر والاحسان
لم تقبل أن تباع أى ثوب من أثوابها التى كان بينها ثوب سابغ الذيل •
وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الأخيرة بمصادفة محضة من صديقه
راكيتين الذى كان على علم بكل شئ فى المدينة حتما ، ثم لم يلبث أن
نسيها طبعاً ، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ
على حين فجأة ، فإذا هو يرفع رأسه بعد أن كان مطرقاً الى الأرض طوال
المدة التى قضاها مفكراً متأملاً أثناء سيره • وعندئذ انما وقع بصره على
ما لم يكن فى حسبانته قط •

لقد لمح أخاه دمترى فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعداً على
شئ من الأشياء مشرباً برأسه متجاوزاً الحاجز بصدرة ، يومئذ اليه
بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيباً به بالاشارات أن يهبط اليه ،
متحاشياً أن يصرخ ، بل ومتجنباً أن يقول كلمة واحدة بصوت عالٍ ،
مخافة أن يُسمع • فسرعان ما هرع اليه أليوشا •

... من حسن الحظ أنك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت أن
أصبح •

كذلك همس يقول دمترى فيدوروفتش لأخيه مسرعاً وقد بدا عليه
فرح شديد برويته • ثم أضاف :

- تسلق من هنا ... هيا أسرع ! ما أحسنها فكرة أنه خطر ببالك
أن تجي . . لقد كنت أفكر فيك ...
سرّ أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، مع تساؤله عما يجب
أن يفعله حتى يجتاز الحاجز . ولكن ميتا رفعه من كوعه بيد قوية
ليساعده على أن يقفز ، فشمّر أليوشا ثوبه الرهباني ، ثم اذا هو يصير
فى داخل الحديقة بوثة كوثبة صبي صغير من الصبية الذين يسرون
حفاة الأقدام .

همس ميتا يقول له بحماسة :
- والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات
فهرى أنهما وحيدان فى الحديقة تماما فلا يمكن أن يسمعهما أحد :
- الى أين ؟

لم تكن الحديقة واسعة طبعاً ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى
تملكه العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الأقل .

- نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟
- لماذا أتكلم همساً ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !
هكذا صاح دمتري فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

- حقا ... فعلاً ... لماذا تكلمت همساً ؟ انظر كيف تحلو
السخافات للطبيعة فى بعض الأحيان ! أنا موجود هنا سرّاً ، ويجب أن
أكون كئوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة
الحفاظ على السر ، أخذت أهمس بغاوة ، مع أن ذلك لا داعى اليه
البتة . هيا ... سأشرح لك الأمر . والى أن أشرحه لك ، اياك أن تقول
كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو أقبلك ...

المجد للخالق فى الغلق *

المجد للخالق فى نفسى

لقد كنت أردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت أنت . .

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قيرابة هكتار كانت خالية من الأشجار الا فى محيطها على طول الأسوار الأربعة ؛ وهى أشجار تفاح وقيقب وزيزفون . أما داخل الحديقة فلم يكن فيها الا مرج أعشاب يعطى فى كل صيف حوالى ثلاثين كيلو من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وثمر الريباس وغنب آذار متناثرة على طول الأسوار . وقد زرع قرب المنزل الصغير شئ من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير .

فاد ديمترى فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى أركان الحديقة بعيد عن المنزل . فهناك ، وسط أجمة كثيفة من أشجار الزيزفون وشجيرات الكشمش الهرمة وأشجار اليلسان والغيراء والأزدلخت ، يرى المرء بقايا « كشك » قديم جدا ، قد سوّده الزمان ولواه ، جدرانها متباعدة ، ولكن سقفه ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء به اذا هطل مطر . لقد بنى هذا « الكشك » منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناء أحد المالكين السابقين الذى تعافوا على هذا المنزل الصغير ، رجل يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، ليوتنان كولونيل محال على التقاعد . كل شئ فى هذا « الكشك » منحور مسوّم : أرضه خربة تنه ، أخشابها مترعزة مترنحة ، راحته عفة رطبة . وفى داخله كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، وأحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها .

كان أليوشا قد لاحظ فوراً حالة الحماسة التي كان عليها أخوه ،
فلما دخل الآن « الكشك » رأى على المائدة زجاجة كونياك مبتلى نصفها ،
والى جانبها قدح صغير •

قال ميتا وهو يتفجر ضاحكا :

— هو كونياك يا عزيزى ! لا شك أنك تقول لنفسك : « انه ثمل
من جديد » • ألا فاطرد هذه الأشباح من خاطرك !
أكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم *
فلا تسمع لها أبدا ، وبدد كل أوهامك •

— لا •• اتنى لا أسكر •• ولكننى «أتلذذ» ، كما يقول صديقك ،
ذلك الخنزير راكيتين ••• الذى سيصبح فى يوم من الأيام مستشار
دولة ، دون أن يكفَّ عن أن يتكلم كما يتكلم رجل من الأرياف •
اجلس هنا • وددت لو أضمتك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، وددت
لو أضمتك الى صدرى ضما قويا حتى لأكاد أحطمك ، هل تعلم هذا ؟
ذلك أنك فى الواقع ••• فى الوا ••• قع ••• (افهمنى جيدا ، افهمنى
جيدا) ••• ذلك أنك فى الواقع ••• الانسان الوحيد ••• فى العالم
••• الانسان الوحيد ••• الذى أحبه ••• فى العالم •••

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الأخيرة هذه بنوع من الشسوة
والوجد •

— أنت الكائن الوحيد الذى أحبه ، أنت وكائن آخر ، هو «مخلوقة
بائسة» عشقتها لأضيع وأهلك ••• ولكن العشق شئ آخر غير الحب •
فان من الممكن أن يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره • احفظ هذا
الكلام ! اتنى أنك فى فرح ومرح • اجلس هنا ، قربى ، الى هذه

المائدة • وسأجلس أنا الى جانب حتى أراك رؤية أوضح. سأقول لك كل شيء • وستصمت أنت طول الوقت، بينما سأتكلم أنا، لأنه قد آن الأوان!... بالنسبة ، أنا أرى أن الأفضل أن تكلم هنا همساً ... ذلك أن من الجائز ... هل تعلم ؟ ... من الجائز أن توجد هنا آذان مخبئة ... آذان لا توقع وجودها ... سأشرح لك ... اتفقنا على هذا • تابع كلامي ... لماذا كنت أحرص على أن أراك بغير إبطاء ، لماذا كنت فى مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الأيام كلها وفى هذه اللحظة بينها (لقد ألقيت مرسائى هنا منذ خمسة أيام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذى يمكن أن أركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذى يمكن أن أفضى اليه بما فى نفسى ، ولأن هذا ضرورى لا مناص منه ، ولأنك لا غنى لى عنك. هل شعرت يوما ، فى المنام مثلا ، بأنك تنحدر من جبل فى هاوية ؟ فاعلم اننى الآن أتحرج الى هاوية ، وليس هذا حلمًا. ولكننى لست خائفًا ، وليس عليك أن تخاف من شيء أنت أيضا • أقصد ... أنا أشعر بخوف، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذبا ، وانما هو شعور رائع • لا يدري الا الشيطان ماذا ... جنى قوى ، جنى ضعيف ، جنى المرأة ... ليس هذا بذى بال على كل حال ! ... ألا فلنمجّد الطبيعة : ما أكثر الشمس فى كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة ... نحن فى قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الثالثة بعد • صمت شامل مطبق ! الى أين كنت ذاهبا ؟

كنت ذاهبا الى أبينا ، ولكننى كنت أنوى أن أمرّ أولا بكاترين ايفانوفنا •

— اليها واليه ؟ أوه ... يا للمصادفة العجيبة ! ... هل تدري لماذا كنت أنتظرِكَ فارغ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدري لماذا كنت ظامًا الى رؤيتك ظمًا الصحراء الى المطر ؟ هل تدري لماذا كنت أناديك

من جميع مسام روحى وجسمى ؟ هل تدري لماذا ؟ لأنتى كنت أريد أن تذهب الى الأب رسولاً منى ، وأن تذهب بعد ذلك الى كاترين ايفانوفنا ، بغية أن أصفى الأمر معهما كليهما ، معه ومعها ... كان لا بد لى أن أرسل اليهما ملاكاً . كان فى وسعى أن أكلف بهذا أى انسان ، ولكننى كنت أريد ملاكاً . وهأت ذاً تذهب اليها وتذهب الى الأب .

— أهذا ممكن ؟ هل كنت تريد أن ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبىء عن ألم شديد يوشك أن يكون ألم مرض . فقال له دمترى :

— اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شىء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصة ، لا تقل كلمة واحدة الآن . لا تأسف على شىء ، ولا تبك قط .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكّر بضغ لحظات واضعاً ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

— هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد أنها كتبت اليك ، أو فعلت شيئاً من هذا القيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما أظن ؟ أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

— هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

— وسلكت طرقات مختصرة لتذهب اليها . أيتها الآلهة المحسنة .. شكرا على أنك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كذلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية أنك أرسلتها الى ذلك الصياد العجوز النبى . اسمع يا أليوشا ! اصغ الى يا أخى ! لقد قررت

الآن أن أقول لك كل شيء • لا بد لي من أن أفتح نفسي لإنسان ما ،
ليس كذلك ؟ لقد سبق أن أفضيت بما في نفسي الى ملائكة السماء ،
ولكنني كنت أريد أن أبوح بسرى الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا •
وأنت أنت الملاك على هذه الأرض • ستصفي وتفهم عني ، وتغفر لي ••
ان بي حاجة قوية الى ن يغفر لي انسان أعلى وأسمى • اسمع : اذا تحول
اثنان عن جميع مشاغل الارض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على
الأقل نحو العالم الرائع ، فاذا هو ، في اللحظة التي يهمل فيها أن يبلغ
السعادة أو يهوى الى الحضيض ، يلقى انسانا آخر فيقول له : « قدّم لي
هذه الخدمة ، اعمل من أجل هذا الامر الذي لا يمكن أن يطلبه أحد
من أحد ، اللهم الا وهو على فراش الموت ••• ، فهل يمكن أن يرفض
هذا الشخص الآخر طلبه ••• اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

- سأفعل ما تطلبه مني ، ولكن ما هو الأمر ؟ أسرع في ذكره
مزيدا من الاسراع !

- مزيدا من الاسراع ؟ هم ••• لا تتمجل هذا التمجل كله
يا أليوشا ! انك تستعجل الأمور وتضطرب في غير طائل • لكل شيء
أوانه ! انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث
تبلغ الحماسة ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا في الواقع ؟ أعليك أنت أن
ترقى هكذا ؟

كن نبيلًا يا أيها الإنسان !

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر • لقد أدرك أنه في هذا المكان انما سيقوم

بمهمته على خير وجه فى الواقع • وفكّر ميتيا دقيقةً ، متكلّماً بكوعه على
المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده • صمت الاثنان كلاهما •

استأنف ميتيا كلامه يقول :

— ألوّشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعى دون أن تضحك •••
أريد أن أبدأ ••• أن أبدأ ••• اعترافى ••• مرتلاً نشيد الفرح الذى
كبه شيلر « الى الفرح ! » ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من
النشيد الا عنوانه : « الى الفرح ! » • حذار خاصة أن يذهب بك الظن
الى اننى سكران • ليس السكر هو ما يجعلنى أتكلّم • الكونياك هو
الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه الزهر

قد امتطى يوما حملاً يترنج *

••• وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير • ثم اننى ان
لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) • أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد
اتخذته الى الأبد ! اغفر لى هذه التكنة القائمة على الجناس اللفظى • وهناك
أمور أخرى سيكون عليك أن تغفرها لى اليوم ! الأمر فعلاً أمر نكتة
قائمة على الجناس • اطمئن بالآ ••• اننى أهذر ولا أهرف ••• اننى
أتكلّم جاداً ، وأمسُ قلب الموضوع • لا يخطر ببالى أبداً أن آتبه فى لف
ودوران • انتظر ••• اننى أحاول أن أتذكر •••

ورفع دمترى فيدروروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو

هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجلون *
اختبأوا شبه عراة فى المقاور
بينما كان البداءة العتاة
• يسلبون السهول والغابات •
كان الصيادون المسلحون بالاقواس والنبال
يبشون اللعر فى قلب كل حى يتنفس •
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطئ اجنبى •
من أعلى الأولب الهادى
هبطت سيريس الأم على الأرض
تبعت عن بروذرين •
ناصبتها الأرض العلماء
لم يستقبلها أحد
لم تجد مأوى لها فى مكان
بحشت الالهة عبثا عن معبد
• يمجّد الوهيته •
لا يرى أحد فى المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة •
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرايين المضحى بها •
تاملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا وأسى •
فى كل مكان يذل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له !!

وفجأة أخذ صدر ميتا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب • أمسك
أليوشا يده •

— أخى ، أخى ، صديقى ! منل هو الانسان حتى اليوم • رهيب
مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان • لا تحسبن ، لأن لى رتبة ضابط ،
أتى امرؤ فظ غليظ القلب لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك وأن يتلذذ

بالسناة ! انتى فى الواقع لا أفكر الا فى مصير البشر الذى يدعو الى
الشفقة والعطف والرثاء ، ذلك هو اهتمامى الوحيد تقريبا ، وما أنا
بكاذب عليك البتة • ألا فلتشهد السماء أنتى لا أكذب ولا أتباهى فى هذه
اللحظة ! ان المصير الفاجع الذى كتب على البشر يعذبنى تعذيبا شديدا ،
لأننى أنا نفسى واحد من هؤلاء الأشقياء البؤساء •

لا بد للانسان
من اجل ان تبعث نفسه بعثا جديدا
وان ترتفع بعد سقوط
لا بد له ان يقطع للالهة القديمة « ام الارض »
عهدا الى الابد •

ولكن الصعوبة هى هذه : ما عسانى أفعل من أجل أن أعاهد
الأرض ؟ أنا لا أزرع الأرض ، أنا لا أفتح جوف الأرض ؟ هل يجب
أن أصبح فلاحاً أو راعياً صغيراً ؟ انتى أسير فى الليل دون أن أعرف
أنا أغوص فى الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك
هو بعينه البلاء : ان كل شئ فى هذا العالم لفر • حين كان يتفق لى أن
أغوص الى القرارة من هوة الدنائة والمهر (ولم أكن أفعل شيئاً غير هذا
على كل حال) ، فقد كنت فى كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التى
تحدثنا عن سيريس وعن الانسان • فهل أصلحنى ذلك ؟ كلا ثم كلا !
لأننى كلارامازوف • فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسى
فى الأمام ، وقدمائى فى الفضاء ؟ حتى لقد أشعر عندئذ بسعادة • من السقوط
على هذا النحو المزرى المذل المهين ؟ انتى أحس عندئذ بنوع من المتعة
الفنية • فإذا بلغت القرارة من هوة الدنائة والخسة ، طفقت أترنم بنشيد •
ألا فلا أكن ملعونا ، ألا فلا أكن منحطاً سافلاً ، ولكننى أريد ، أنا أيضا ،
أن أقبل ذيل التوب الذى يتدثر به الهى • لئن اتبعت الشيطان يا رب ،

فانى أنظر ابنتك ، لأننى أحبك ، ولأن فى نفسى سبيلا الى الفرح الذى
لولاه ما وُجد الكون •

روح العالم التى خلقها الله *
تفنى الفرح الى الأبد •
الفرح قائم فى أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة •
ينبت العشب من الأرض
يحيل السديم شمسا
ينشر ضياءه الفخر
فى الفضاوات التى لا نهاية لها •
كل حى يبتهج
فى حضن الطبيعة •
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحده •
يزين مصائبنا
يهب لنا أصدقاء وأزهارا وثمارا •
هو اللذة فى الحشرة •••
وهو الله فى الملائكة

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبرات ، دعنى أبكى قليلا •
أسلم لك بأن فى هذا حماقة وسخفا • وربما ضحك الآخرون منه ، أما
أنت فلا ••• لقد رأيت شمعة تومض فى عينيك يا أليوشا • كفانا الآن
شعرا • أريد أن أحدثك عن أولئك الحشرات ، عن أولئك الذين
وهب لهم الله اللذة •

هو اللذة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما
تستهدفنى أنا خاصة • ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء
فى هذه النقطة ! فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فيك أنت الملائكة ! انها

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورد الذى تنبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحيت المجون حتى فى العار • لقد أحيت القسوة : أُلست بقية ، أُلست حشرة خيشة ؟ قلت لك اننى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويكاه ركبنا سبع عربات ترويكاه • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التى كنت فيها أخذت ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة • • • تركت لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحت لى أن أتمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أقدر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلاً تاماً مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكثوم الذى يفصح عن حنق ذليل وثورة مهانة • • • فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لى وتصفع عنى ، ولعلها ظلت تحببى • • • وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظت أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الغصة ، ولكننى لست مجرداً من الشرف • • • ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتعمان

اعتراف قلب حمار نذراً



لقد لهوت وعبثت وتلذذت هناك ! ادعى أبونا
فى هذا الصباح أننى كنت أرمى ألوف الروبلات
من أجل أن أقضى على طهارة بنات فضليات !
كذب " هذا الكلام ، كذب مفرّز ... لم يحدث
شيء من ذلك قط ! لم يطلب منى شيء من مال من أجل «هذه» . كان المال
أمراً ملحقاً الحاقاً ، كان حمى عابرة ، كان زينة لا أكثر . أحب
سيدة فى ذات يوم ، فاذا أنا فى الغداة أوتر عليها بنتاً من بنات الشوارع .
وأنا أنفق على هذه وتلك كليتهما ، أنفق تحقيقاً لنزوات وسعياً الى تسليات .
أصحب المرأة الى المسارح ، وأخرج معها فى نزعات ، وأمضى بها الى
حفلات رقص العجى ، وأدفع أثناء ذلك مبالغ ضخمة للخدم وغيرهم .
وكنت أعطيهم هن أيضاً مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهم يحرمون على
هذا ، بل يحينه جبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات
ممتات . أحبتنى نساء من المجتمع الراقى ... لا جميع نساء المجتمع
الراقى ، بل عدد منهن ، عدد على كل حال ... ولكن كانت تجذبني
دائماً قبل كل شيء الأزقة الضيقة ، والطرق المسدودة المظلمة ، والأحياء
المريبة البعيدة عن الأماكن التى يختلف إليها الناس . فهناك المغامرة ،

هنالك الشيء الذى لا تتوقعه • هنالك الورود التى تثبت على الدمن • أقول ذلك الآن على وجه عام يا أخى • أما فى هذه المدينة فلم تحدث فلتات محسوسة ملموسة من هذا النوع ، منذ أن وصلت حتى الآن ، ولكن الأمر واحد من الناحية النفسية • لو كنت مثلى لفهمت عنى • لقد أحيت المجون حتى فى العار • لقد أحيت القسوة : ألسنت بقعة ، ألسنت حشرة خيشة ؟ قلت لك اتنى واحد من آل كارامازوف • ان مجتمع المدينة التى كنت أعيش فيها قد نظم فى ذات يوم نزهة جماعية • ركبنا عربات ترويك • ركبنا سبع عربات ترويك • كان ذلك فى فصل الشتاء • فى العربة التى كنت فيها أخذت ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتى ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتى • كانت طفلة • هى بنت موظف صغير • انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيبة ، لطيفة ••• تركت لى أن أفعل ما أشاء ، وسمحت لى أن أمتع بحريات كبيرة فى الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أننى سأذهب من القدر الى أبويها لأخطبها (كنت أقدر خاصة كخطيب ممكن) • ولكننى لم أخطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر • كنت أرى عينيها فى أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تابعانى من ركن من الصالة ، فألاحظ الوميض الذى يشتعل فى نظرتها ، واللهيب المفاجئ المكظوم الذى يفصح عن حق ذليل وثورة مهانة ••• فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستير متعة الحشرة فى نفسى • وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تفكر لى وتصفح عنى ، ولعلها ظلت تحببى ••• وقد سعد الزوجان بعد ذلك • لاحظ أننى لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأننى لم أعرض سمعة الفتاة لسوء • صحيح أن لى رغبات منحطة ، وأننى أجد لذة فى الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكننى لست مجردا من الشرف ••• ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتعمان

وتسطلعان • طيب ••• لن أزعجك بعد الآن بسردي مثل هذه الحكايات
القدرة المزرية • ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئاً قليلاً ••• عو زخرفات
اضافية على طريقة بول دو كوك ، ولكن الحشرة القياسية قد نمت في
نفسى واستولت على • واستبدت بى • ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي
••• ان لى منها « ألبوماً » كاملاً ••• ولقد كنت أحاول دائماً ، حين أقطع
صلى باحدى النساء ، أن أتصرف تصرف صديق ، وأن أتجنب السلوك
المفاجيء الضيف ، وأن أتقى المشاكل والمشاهد • ثم اننى ما أفشيت سراً
فى حياتى قط ، ولم أعرض سمعة احداهن لسوء • ولكن كفانى ما قلته
حتى الآن فى هذا • أرجو أن لا يدور فى خلدك أتنى جئت بك الى هنا
لأقص عليك هذه الميائس ! اطمئن بالاً ! هناك أمور أشق من هذه الأمور
أحب أن أفضى بها اليك • ولا يدهشك مع ذلك أتنى لا أمتحى منك ولا
أشعر بخجل أمامك ، وأتنى ربما كنت ألتذ بايقاظ هذه الذكريات فى
حضورك •••

قاطعه ألبوشا سائلاً :

— أأنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهى ؟ ان وجهى لم
يحمراً بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأننى مثلك •••
— أنت ؟ أنت مثلى ؟ ألا انك لتبالغ قليلاً •••

قال ألبوشا بلهجة قاطعة :

— لا ••• لا أبالغ (كان واضحاً أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة
طويلة) • ليس بيتنا الا فرق فى المقدار • نحن لا نقف على درجة واحدة
من السلم • فأنا ما زلت فى أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى
الدرجة الثالثة عشرة مثلاً ••• أنا الآن لا أزيد على أن أتكلم ، ولكن

الأمر واحد فى الحقيقة ، واحد تماما . . . ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يصل الى نهايته حتما ، لا بد أن يبلغ ذروته .
- ففى رأيك أذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

- يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .

- هل تستطيع هذا أنت ؟

- يبدو أننى لا أستطيع .

- اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزى الطيب الشهم . وددت لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً . ان تلك الوعدة جروشنكا خبيرة فى شئون الرجال ! لقد أكدت لى ذات يوم ان فى وسعها أن تزدردك لقمة واحدة . هأنذا أمسك عن الكلام فمما أقول شيئاً بعد . دعنا من هذه الحكايات ، دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتى الشخصية . . . التى ليست خيراً من هذه الحكايات على كل حال ، فهى معجونة بالخسة والدناءة أيضاً . اسمع : لئن افترى أبونا على حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفى ان ذلك بعينه هو ما حدث فى مأساتى ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة ، أو قل أخيراً انه لم يحدث قط . وأبونا المعجوز الذى اتهمنى بفعال دينية كثيرة لا وجود لها ، يجهل هذه القصة فى مقابل ذلك . اتى لم أحدث عنها انساناً فى يوم من الأيام . ستكون أنت من عرفها ، بعد ايفان طبعاً . ذلك أن ايفان قد عرف كل شيء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل . ولكن ايفان قبر .

- ايفان قبر ؟

- نعم .

كان أليوشا يصفى الى كلام أخيه بانتباه شديد • وبدأ دتمرى يقص
حكايته • قال :

- رغم أننى كنت ملازما (ليوتنان) فى تلك الكتيبة ، وهى كتيبة
ترابط على الجبهة ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعانى ، أشبه أن
أكون منفا من المنفيين • وقد استقبلنى مجتمع المدينة الصغيرة التى فيها
المسكر استقبالا ممتازا واحتفى بى واکرم وفادتى • كنت أنفق المال
بغير حساب ، وكانوا يظنوننى غنيا ، وكنت أنا أظن نفسى غنيا كذلك •
يبدو على كل حال أنهم قد استلطفونى لسبب آخر أيضا • كانوا كثيرا
ما يهزون رؤوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبوننى كثيرا • وفجأة
أخذ الليوتنان كولونيل ، وهو رجل طاعن فى السن ، أخذ يناصبنى
العداء ، ويلتمس الفرص لناكدتى ومشاكستى • غير اننى لم أكن بلا
سند أعتمد عليه ، وانجازت المدينة كلها الى صفى ، وتحزبت لى • ثم
انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكرى منى والحق الأذى
بى • ولا شك فى أننى كنت مخطئا فى حقه ، لأننى تعمدت أن لا ألترم
ما ينبغى أن ألترمه تجاهه من واجبات التسوقير والتعظيم • لقد كنت
أصطنع التكبر والاستعلاء • ان ذلك العجوز العنيد ، الذى لم يكن امرأ
خبيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين ،
ولكن ماتت زوجتها كلتاهما فأما الأولى ، وهى مخلوقة بسيطة متواضعة ،
فقد خلّفت له بنتا ساذجة الطبع كأمها كانت فى ذلك الأوان تقترب من
السنة الرابعة والعشرين من عمرها • كانت تعيش عند أبيها مع احدى
خالاتها • وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مزعنة الطبع هى أيضا •
ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتى الليوتنان كولونيل ، كانت تجمع الى
بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام • انه ليسرنى وأنا أمتحضر

ذكرها أن أطريها وأتى عليها : اننى يا صديقى لم ألق فى حياتى امرأة
تضارع تلك الفتاة جمال طبع • كان اسمها آجاني ••• تصور •••
آجاني ايفانوفنا • ولم تكن خالية من الحسن فى الذوق الروسى : قامة
طويلة ممثلة قوية ، عيان رائعتان ، ولكن فى تعبيرهما شيئا من عامية •
ولم تزوج الفتاة ، رغم أنها خطبت مرتين • لقد رفضت الخطبة الأولى
والخطبة الثانية كليهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلاها وصفاء مزاجها •
وقد انعقدت الصلة بينى وبينها - لا على تلك الطريقة ، لأن كل شيء قد
ظل بيننا طاهرا يريثا - وانما أصبحنا صديقين لا أكثر • والواقع أنه
كثيرا ما اتفق لى أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة • وكنت
حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما
تزيد على أن تضحك • اعلم أن نساء كثيرا يحبين الصراحة •• ولكن
تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسلىنى كثيرا • يجب أن أضيف الى
ذلك أن فى وسع المرء أن يسميها آمنة • وكانت الفتاة وعمتها تحتجبان
فى منزل الأب بارادتهما ، وتعيشان فيه خاضعتين خضوع المروسين ، ولا
تضعان نفسيهما فى مستوى سائر أفراد المجتمع • وكان الناس جميعا
يحبون آجاني حبا عظيما ، لأنها كانت تجيد الخياطة كما لا تجيدها امرأة:
لقد كانت تملك موهبة فذة فى الخياطة ، ولكنها لا تقاضى عن خدماتها
أجراً ، وانما هى تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر • على أنها كانت
لا ترفض أخذ شيء من المال اذا عرض عليها • أما الليوتان كولونيل
فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف • لقد كان شخصية من أهم
شخصيات المدينة • كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف فى منزله
كثيرا ، ويقم مآدب غداء ، وينظم أمسيات رقص • وحين وصلت الى
المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث
عن ابنة الليوتان كولونيل الصغرى التى ستصل قريبا ، والتى يقال انها

ذات جمال خارق نادر ، والتي تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية
ارستقراطية بطرسبرج أتمت فيها دراستها . ان هذه الفتاة الاخرى ليست
الا كاترين ايغانوفنا نفسها ، بنت الليوتنان كولونيل من زوجته الثانية
التي ماتت هي أيضا . كانت زوجته الثانية هذه تنتمي الى أسرة كبيرة
- أحسب أن أبائها كان جنرالا معروفا - رغم أنها لم تحمل الى زوجها ،
هي أيضا ، مهراً ضخماً ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع . لقد
كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها امال في أكثر تقدير ، اما المال فلم
يكن عندها مال . . . على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد
جاءتها زائرة فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث رد الى المدينة صباحها
ان صح التعبير . فهؤلاء أرقى سيدات مجتمعنا ، وهن زوجتنا « صاحبي
سعادة » ، وزوجة كولونيل ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن
يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين في اقامة المآدب لها . لقد أصبحت
الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على
شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مريبات عجائز لا أدرى من هن .
لم أقل أنا شيئاً ، بل بقيت بعيداً متجنباً ، ألهو وأقص على ما يشاء لي
هواي . وفي تلك الآونة بعينها انما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح
التي أثارت العياط والزياط في المدينة كلها . لقد لاحظت في ذات مساء
أثناء حفلة استقبال أقامها كومنندان الكنيسة ، أنها كانت تروزني بنظرها ،
ولكنني لم أقرب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التي عرضت
لي للتعرف بها . وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن
أتجه اليها بالكلام . فلم تكذب ترضى أن تتنازل فتتظر الى ، وعبرت شفاتها
عندئذ عن احتقار . قلت بيني وبين نفسي عندئذ : « اصبري قليلاً . . .
سأعرف كيف أثار لنفسى » . وكنت في ذلك الأوان شرس الطبع ،
شديد التهور . . . وكنت أعرف ذلك في نفسي . . . وقد شعرت خاصة

أن « كاتينكا » ليست واحدة من تلك الآنسات الملساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وانما هى انسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقا . . . والامر الذى أشعرنى بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أننى لا ذكى ولا مثقف . لعلك تظن أننى أردت أن أخطبها ؟ أبدا . كل ما كنت أتمنله هو أن أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثار منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى . وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتدال ، حتى ان الليوتنان كولونيل انتهى به الامر الى حبسى ثلاثة أيام . وفى تلك الآونة انما أرسل الى أبوك ستة آلاف روبل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الاخرى . لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد « صفينا حساباتنا » ، وبأننى لن أطالبه فى المستقبل بشئ البتة . ولقد كنت لا أفهم شيئا من أمر هذه الحسابات فى الماضى . ويجب أن أعترف لك ، يا أخى أليوشا ، اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئا من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أينا . على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن . . . وان لى اليها عودة . المهم أننى بعد أن تلقيت المال بزم من قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الى صديق ، أمرا يمكن أن يهمنى كثيرا ، وهو أن المراجع العليا مستاعة من صاحبنا الليوتنان كولونيل ، وانها تشبه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة . وها هو ذا أمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرع صاحبنا الليوتنان كولونيل تقريرا شديدا ، وما هى الا فترة قصيرة اذا بالليوتنان كولونيل يتلقى أمرا بتقديم استقالته . لن أقص عليك تفاصيل هذه الحكاية . فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء . وقد

تكررت له المدينة كلها منذ تلك اللحظة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا ، وصار الناس يتحاشونهم تحاشيهم مرضى مصابين بالطاعون ! وفي تلك الآونة انما ارتكبت غلطتي الأولى • ففي ذات يوم التقيت بأجاثى ايفانوفنا التى ظلمت صديقا لها :

« - هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟
فقلت لى أجاثى :

« - كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فلم يكن المال ينقص كوبكا واحدا •••
قلت لها :

« - صحيح • كان المال كاملا يومذاك ، ثم اختفى •
جزعت أجاثى • وقالت :

« - لا تخفى ! من قال لك هذا الكلام ؟
فأجبته :

« - اطمئنى ••• لن أقول لأحد كلمة واحدة • أنت تعلمين أننى كالقبر صمتا حين يجب الصمت • ولكننى أحب أن تعرفى أيضا ما يلى :
إذا طوّل أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردّها فسيكون عليك - حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه فى آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا - سيكون عليك أن تبغى الى ، خفية ، بأختك الأنسة طالبة المدرسة الداخلية • لقد تلقيت منذ مدة قصيرة مبلغا ضخما ، سأتنازل لأبيك منه عن أربعة آلاف وخمسمائة روبل • وأحلف لك أن أحدا لن يعرف شيئا عن هذا الامر فى يوم من الايام •

هتفت تقول :

« يا للشقى ! ألا انك لشقى ! (تلك هى الكلمة التى استعملتها) .
يا للعار ! يا للدناءة والجبانة ! كيف تجرؤ أن ٩٠٠٠ » .

« وتركتنى مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لهما مرة أخرى
ان أحدا لن يعرف شيئا اذا وافقت ، واننى سأحافظ على السر محافظة
تامة ، وأكتمه كتماناً كاملاً . يجب أن أقول لك فوراً ان هاتين المرأتين ،
آجاتنى وخالتهما ، قد تصرفتا فى هذه القضية تصرف ملاكين . كانتا فى
الواقع تعبدان كاترين المتكبرة عبادة » ، وتمسحيان أمامها امحاء ، وتسعيان
بين يديها كخادمتين . . . ومع ذلك أسرعت آجاتنى تقص الحادث على
أختها ، أى تروى لها حديثى معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها
كل شيء . وكانت تلك قضيتى كلها فى الواقع .

« ففى ذات يوم وصل ميجر جديد على حين فجأة ليستلم قيادة
الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالليوتنان كولونيل العجوز
يمرض بفتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يستلم أموال
الدولة . وقد أكد طيبينا كرافتشنكو أنه مريض حقاً ، وأنه لا يتظاهر
بالمرض تظاهراً . ولكننى كنت أعرف حقيقة الامر ، فقد اطلعت على
تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهى أن المال يكون فى الخزنة
عند اجراء الحسابات فى موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفى بعد ذلك
دائماً الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقد كان الليوتنان كولونيل
يفرض هذا المبلغ رجلاً موثقاً أميناً من تجار المدينة هو الأرمل العجوز
تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفونوف
يمضى بالمبلغ الى « الممرض » فيعقد صفقات ويبرم أعمالاً حتى اذا عاد الى
المدينة رد المبلغ المقترض الى الليوتنان كولونيل مضيغاً اليه القوائد وبعض

الهدايا • ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من « المعرض » لم يردّ
المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذى هو
وريثه والذى هو أفسد مخلوق فى هذا العالم) • لم يرد تريفونوف
المبلغ اذن • فلما هرع اليه اللبوتان كولونيل يطالبه برد المال قال له
تريفونوف : « أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان فى وسعى أن أقترض
منك شيئاً على كل حال » • فاذا بصاحبنا اللبوتان كولونيل يرقد فى
فراشه ، ويفطى رأسه بمتشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على صدغيه
ثلجاً • وفجأة يصل الى منزله فرأى حاملاً دفتر الحسابات مع أمر بردّ
« أموال الدولة بغير ابطاء » فى غضون ساعتين على أكثر تقدير • • فيضع
المعجوز توقيع على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت توقيع برفسى فيما
بعد ، ثم ينهض قائلاً انه يريد أن يرتدى بزته العسكرية ، فيمضى الى
غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد ذات طلقتين ، فيحشوها برصاص من
رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على
صدره ، ويلمس الزناد باصبع قدمه • ولكن آجأتى التى ساورت فكرها
شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها كانت قد تسلمت
وراءه خلسة ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه ،
فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه ، فانطلقت
الرصاصات فى اتجاه السقف لم تجرح أحداً • وهرعت المراتان الأخريان
أيضاً ، فتمت السيطرة على المعجوز ، وانتزعت منه البندقية • • • لقد
رؤى لى هذا المشهد تفصيلاً فيما بعد • • • وكنت فى تلك اللحظة فى
مسكنى • وكان الوقت مساءً ، فأنا أستعد للخروج • لقد ارتديت ثيابى ،
وصففت شعرى ، وعطّرت مندبلى • • • وانى لأتناول قبعتى • اذا بالباب
يُفتح فجأة ، واذا بكاترين ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى • • •

• ان مصادفات غريبة تقع فى هذه الحياة • وبفضل هذه المصادفات

لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الى ، فلم ينتشر خبر هذه الزيارة ، ولم يشع أمرها . كنت أسكن فى شقة أجرتها أرملة موظفين صغيرين ، طاعتان فى السن جدا ، تخدماني باحترام وتعظيم واجلال ، وتطيعان أوامرى طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد فى أمر هذه الزيارة ، فكاتبنا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شئ من أول نظرة طبعيا . دخلت الفتاة ، ونظرت الى وجهها لوجه . كان فى عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ووقاحة ، غير أن شيئا من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

• - قالت لى أختى انك ستعطينى أربعة آلاف وخمسمائة روبل اذا جئت أطلبها منك بنفسى . فها أنا ذا جئت هات المبلغ ! ، .
• لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئا ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خذاها . أتصنئى الى يا أليوشا أم تُراك نمت ؟

قال أليوشا مضطربا :

• - ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لى الحقيقة كلها .

• - سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن أدارى نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التى ساورتنى هى فكرة جديدة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لى فى الماضى يا أختى أن لدغتنى حشرة فرقدت فى فراشى أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرة أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى القلب من جسدى هى الحشرة المقرمة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شقلت الفتاة ببصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لى جميلا عندئذ : لقد كانت فى تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الى

أنا الشقي ، كانت جميلة بالتضحية التي تقدمها في سبيل أبيها بالقياس
إلى أنا البقة الحقيرة ! وها هي ذى الآن تقع تحت سلطان هذه البقة ،
ها هي ذى الآن خاضعة خضوعاً كاملاً لي أنا ، أنا الشقي ، خاضعة كلها ،
جسماً وروحاً • انها كلها تحت رحمتي ••• سأعترف لك بالحقيقة من
غير لف ولا دوران : ان هذه الفكرة التي خطرت ببالي ، ان فرحة
الحشرة هذه التي نبئت في نفسي ، قد استولت علىّ في أول الامر استيلاءً
تاماً وملأت قلبي الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط التوتر • بدا لي أنه
ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لي الا أن أتصرف تصرفاً بقة ،
تصرفاً رتيلاً مفترساً ، بغير شفقة ولا رحمة ••• وكادت تنقطع من
ذلك أنفاسي • افهمني حق الفهم ••• انه لبيدي أني لو فعلت لمضيت
أخطبها منذ الغد ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما
يعلم أحد بما جرى ، ولا تخطر بالبال أية شبهة في أي مكان • صحيح
أن لي شهوات دينية ، ولكنني مع ذلك رجل شريف • غير أنني في تلك
اللحظة سمعت كأن صوتاً يهمس في أذني قائلاً : دحك من هذا ••• ان
هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها في الغد ، وستكتفي بأن تأمر
حوزيتها بأن يخرجك مطروداً • مستقول لك : افصح سمعتي ، وشهري
بي في المدينة كلها ، فأنا لا أخاف منك ، • ألقيت نظرة على الفتاة ،
فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبني ، فذلك بعينه ما سيحدث • لسوف
أُطرد شر طردة : انني أقرأ هذا في عينيها منذ الآن • استولى علىّ حق
مسموم حين خطرت ببالي هذه الفكرة ، فاشتبهت فجأة أن أقوم بأحقر
وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظر اليها
متبسماً وأدمرهما تدميراً في مكانها ، هنا ، أمامي ، قائلاً لها بلهجة لا يجيدها
الا صاحب دكان :

• - أجبني حقاً من أجل أربعة آلاف روبل ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً

عائشاً يا آتسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامي
محمل الجد ! ماثا روبل ، معقول ! ... لو سألتني أن أعطيك مائتي
روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا ... أما أربعة آلاف روبل يا آتسة ،
فذلك مبلغ أضخم من أن نهينه هذه الالهانة من أجل أمور تافهة كهذه !
لقد أزعجت نفسك في غير طائل يا آتسة !

« هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع كل شيء »
طبعا ! كانت ستهرب ... ولكنني أكون قد ثارت لنفسي ثاراً رهيباً ،
وأكون قد أرضيت كرامتي الجريحة ارضاءً جهنمياً ! كنت سأظل أبكي
طوال حياتي بعد ذلك ، حقاً وحسرة وأسفاً ، ولكنني لو قلت لها ذلك
الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها في تلك اللحظة انتصاراً
ساحقاً ! صدقني اذا قلت لك انني لم يتفق لي يوماً أن نظرت الى أية
امرأة في ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما في تلك المرة فقد
لبثت ثلاث ثوانٍ أو خمساً أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب ...
أحلف لك ... هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذي لاتفصله
عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت
جبیني على زجاجها البارد ... انني أتذكر الآن أن ملاسمة الزجاج
المتجلد قد أحدثت لي احساساً بحرق قوي . اطمئن : لم أبقها عندي
طويلاً . التفت ، واتجهت نحو منضدتي ، ففتحت الدُرَج وأخرجت
منه الحوالة التي كنت قد أودعتها معجمي الفرنسي ، وهي بمبلغ خمسة
آلاف روبل تدفع « لحامله » . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة
واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسى ،
ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحيثما منحني حتى الحزام ، حجةً فيها
أعظم الاحترام ... تستطيع أن تصدق ذلك ! ... ارتعشت الفتاة من
أخص قدميها الى قمة رأسها ، وحدقت الى لحظة ، وانكفاً لونها انكفاء

رهيباً ، ثم اذا هى ، على حين فجأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من خشونة ، تنحنى هى أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحسنى ساجدةً هذا السجود ، لا على طريقة آتية تعلمت فى مدرسة داخلية ، بل على الطريقة الروسية . ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة . وكنت حاملاً سيفى فى تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده فى صدرى . لماذا ؟ لا أدرى ! لو قد فعلت لكان هذا منى حماقة طبعاً ، ولكن أحسب أن ذلك كان نمرة الحماسة . هل تفهم أن من الممكن أن يقتل الانسان نفسه فى بعض لحظات الحماسة ؟ على أننى لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده . تلك تفاصيل لم يكن من الضرورى أن أرويها لك على كل حال . ويحيل الى أننى قد زخرفت دورى قليلاً حين وصفت لك تلك الصراعات كلها ، وأننى قد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسى . لا ضير لنسلم بهذا تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هى « مغامرتى » مع كاترين ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخى ايفان ولا أحد يعرفها سواكما !

نهض دمترى فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديداً ، وأخرج منسديله فجفف به جبينه . ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس فى المكان الذى كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه .

اعتراف قلب حار «والقدمان في الفضاء»

أليوشا :

- الآن عرفت الجزء الأول من القصة •
- عرفت الجزء الاول ، وهو درامة مُتَّك في مدينة أخرى • أما الجزء الثاني فهو تراجيدية ستجري أحداثها هنا •



قال أليوشا :

- لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني •
- وهل تظن أنني ، أنا نفسي ، أفهم من هذا الجزء الثاني شيئاً كبيراً ؟
- لحظةً يا دمترى • هناك عنصر أساسي • قل لي : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيبها ؟
- لم أخطبها فوراً ، وإنما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أسابيع • قلت لنفسى غداً ذلك اليوم ان كل شيء قد انتهى ، وأنه لن يكون لما وقع تمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغاراً • وهى ، من جهتها ، لم تحرك ساكناً طوال الأسابيع الستة التى قضتها فى المدينة بعد ذلك ،

ولا أشعرتنى بوجودها ، اللهم إلا مرة واحدة فى الواقع : ففى اليوم الذى أعقب زيارتها جاءتنى خادمتها وأعطتنى حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة • قرأت على الحزمة عنوانى • • وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل • لقد كانت فى حاجة الى أربعة آلاف وخمسمائة فقط ، فباع السند بخسارة قدرها أكثر من مائتى روبل («عمولة» صرف السند) ، ثم أرسلت الى الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن ، ولكننى لا أتذكر مقدار المبلغ تذكرأ واضحاً • لم يكن فى الحزمة الا المال • • • لم يكن فيه كلمة شرح واحدة • • بحثت فى داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء • ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصص مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الميجر الجديد أن يقرعنى تقريبا شديدا • أما الليوتان كولونيل فقد ردّ أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس ، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه لا يملك هذا المبلغ • وما لبث بعد ردّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغى على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام • وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التى طلب اليه أن يقدمها • وسافرت كاترين ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها • وفى تلك اللحظة فقط (فأننى ما رأيتهن مرة أخرى ولا ودعتهن فى المحطة) انما تلقيت منها بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأبيق ذى الحافة المخرّمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : « سأكتب اليك • انتظر رسالتى • - ك » • ذلك كل شيء •

سأورد عليك التهمة مقتضبا موجزا • فى موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلا الا فى الحكايات

الشرقية • لقد فقدت قريبتها الجنزالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها إليها ، فقدتهما مصابتين بجدرى الماء الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنزالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب وتألّت ألماً شديداً ، فاحتضنت كاترين وفرحت برؤيتها كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترين عندها هى الأمن والسلام لها فى وحدتها الموحشة وعزلتها الكثية • استولت الجنزالة على كاترين ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها • على أن الوصية ليست الا آمالاً • غير أن المعجوز وهبت لها كذلك أربعة وعشرين ألف روبل أعطتها إياها بغير ابطاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها • كانت الجنزالة امرأة هستيرية ، وقد أتيح لى أن لاحظها بعد ذلك فى موسكو • فى ذات يوم ، تلقت بالبريد أربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فدهشت أشد الدهشة وذُهلّت أكبر الدهول ، لأننى لم أفهم من الأمر شيئاً • وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتني الرسالة الموعودة • ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائماً ، وسأحتفظ بها حتى الممات • هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها ••• اننى أحرص على أن تقرأها حتماً : ان كاترين ايفانوفنا تعرض علىّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىّ هذا بنفسها رأساً • كتبت تقول ما معناه : « اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له • ولست أطلب منك أن تحبنى اذ كنت لا أستطيع ذلك • كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى • لا تخش شيئاً : فانى لن أزعجك ، ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها ••• اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك • • لا أستحق يا أليوسا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظي القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لن أستطيع التخلص

منها فى يوم من الايام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبى ، فما يزال ينزف
بتأثيرها حتى الآن • أتظن أنتى مرح النفس فى هذه الأيام ، وأن وضعى
لا يعذبنى عذاباً شديداً ؟ ولقد أسرع أجيها (لأننى كنت لا أستطيع أن
أسافر الى موسكو فوراً) ، كاتباً لها من خلال الدموع • غير أن هناك شيئاً
سأظل أشعر منه بالخزى والعار ما حييت • لقد ذكرت فى رسالتى التى
بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن نروة طائلة ، وأن لها بائنة ضخمة ،
أما أنا فليست الا ضابطاً فقيراً ليس له علاقات • نعم ، لقد كلمتها عن
المال ، كلمتها هى عن المال ! ... كان ينبغى لى أن أسكت ، كان ينبغى
لى أن أقبل هذا التفاوت بينى وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت
منى رغم أنفى ... وكنت فى الوقت نفسه الى ايفان الذى كان يومئذ
بموسكو • عرضت عليه الموقف عرضاً دقيقاً فى حدود الامكان - ضمت
الرسالة ست صفحات - وكلفت ايفان أن يذهب اليها • لماذا تنظر الى
هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحلقمة ؟ نعم ... لقد وقع ايفان فى حبها ،
وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك ... فى رأيكم أتم وفى رأى الناس
أنتى ارتكبت بهذا حماقة كبرى ... ولكن من الممكن أن تكون الحماقة
هى الآن سبيلنا الوحيد الى الخلاص جميعاً ! أليست ترى مدى ما تكنه له
من تقدير ، بل وما تحمله له من اعجاب ؟ كيف يكون فى وسعها اذا
هى وازنت بينى وبينه ، أن تحب رجلاً مثلى ولا سيما بعد كل ما حدث
هنا ؟

- أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله

هو •

- هى ؟ لا ... انها لا تحبى أنا ، وانما تحب نبل نفسها وأريحية

قلبها وشهامة روحها ...

ذلك ما أفلت من لسان دمترى فيدوروفتش مع شىء يشبه أن يكون

كرهاً • ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

— أحلف لك يا أليوشا ••• صدق أو لا تصدق ••• أحلف لك صادقاً صدق وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربنا ، أحلف لك أتى ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أتى لا أرقى الى مستوى كعب قدمها ، وأن نفسى لا تسدل جزءاً من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبيل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقينى من هذا هو بعينه مأساتى كلها ••• أى خير فى أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أظهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألسنت أسعمل أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق جداً • أما ايفان فأتنى أتخيل أنه فى هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك ، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكى ذلك الذكاء كله ! من الذى تفضله المرأة ؟ ما الذى تؤثره المرأة ؟ انها تخص بايثارها الانسان النذل الذى هو أنا ، الانسان الذى برهن هنا ، وهو خاطب ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور ، رغم ايثارة خطيئته ، هل تفهم ؟ نعم ••• رغم ايثاره خطيئته ••• فهذا هو الرجل الذى يؤثر ، أما الآخر فيبعد ••• ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطرى هذه فى يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أى اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر • ولكن يجب أن يقال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذى يستحقه ، وأما الآخر الذى لا يستحق ذلك المكان فيغوص فى الأزقة المظلمة ، ويختفى من حياتهما الى الأبد • ان هذا الآخر سيجد له مأوى فى الأزقة الموبوءة العفنة التى

يحبها ، والتي تستهويه وتجذبه اليها ، والتي يشعر فيها أنه في بيته ،
ليهلك هنالك في الجحارة المقررة راضيا عنها مثلذا بها • اننى أسترمل
الآن في عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك • ولكن
الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه • سأعطس أنا فى الحضيض ،
وستزوج هى ايفان •

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا
شديدا :

– لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن :
أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شيء ••• فكيف
يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك اذا كانت هى ، خطبتك ،
لا تريد ذلك ؟

– أنا خطيبها ، هذا صحيح • وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقاً لجميع
القواعد المقررة ، ولنا جميع المباركات المألوفة المعهودة • تم ذلك فور
وصولى الى موسكو ، تم فى كثير من الأبهاء وسط كثير من الأيقونات
مع عدد كبير من المدعوين هم صفوة المجتمع وخيار القوم • وقد باركتنا
الجزالة ، حتى لقد هنأت كاترين ايفانوفنا – هل تصدق ذلك ؟ – هنأتها
قائلة لها : • أحسنت الاختيار يا بنيتى ••• اننى أرى قرارة نفس هذا
الفتى • • • أما ايفان فقد ناصبته العدا – هل تتصور ؟ – ولم ترض أن
تهنته ••• وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ،
فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل وإخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا
دقيقا صادقا ، فكانت تهنئنى الى ما أقول بانتباه شديد •

فكان اضطراب وكانت دموع
وكان كلام دقيق وديع

وكان كذلك كلاماً فيه كبرياء وخيلاء • وأجبرتني على أن أقطع
على نفسي عهداً لا أصلحني حالي • قطعت لها على نفسي ذلك العهد •
وهأت ذا ترى •••
— ماذا ؟

— لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجيء الى هنا في هذا النهار
— تذكر التاريخ — من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء الى كاترين
ايفانوفنا ، فبلغها •••
— أبلغها ماذا ؟

— انني لن أذهب اليها بعد اليوم قط • وانقل اليها تحيتي
واحترامي •

— ما هذا الكلام ؟ أهذا ممكن ؟
— هو ممكن لأن من غير الممكن أن أذهب اليها بنفسي ، فما عساني
قائلاً لها ، وكيف أستطيع أن أقول هذا الأمر ؟
— وما الذي ستفعله بعد ذلك ؟
— أضيّع نفسي في الأزقة !
— هي اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احدهما الى
الأخرى • وتابع كلامه :

— أياكون ما قاله راكيتين هذا صحيحاً وا أسفاه ! أعترف لك بأنني
قد خطر ببالي أنك قد ارتضيت الانسياق الى منزلها ، ولكنني كنت آمل أن
تكون قد سئمتها أخيراً •

- الانسياق الى منزلها ؟ هل يستطيع خطيب أن يرضى الانسياق الى منزلها ؟ أتظن أن هذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كذلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شيء . صحيح أنني منذ اللحظة التي بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر آفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الى هكذا ؟ اعلم اننى حين ذهبت اليها أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وما زلت أعلم علم اليقين أن ذلك الضابط الذي يكلفه أبى بقضاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً مهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطررنى بهذه الوسيلة أن أمتسحب . لقد أرادوا تخويفى . لذلك قررت أن أؤدبهم وكنت قد رأيته مرة من بعيد ، فلم تحدث فى نفسى أثراً كبيراً لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سترك لها مع ذلك بعد موته كنزاً كبيراً ؛ وكنت أعلم أيضاً أنها تحب المال حباً عظيماً ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض برى فاحش لا يعرف الشفقة ولا الرحمة ، هذه الوعدة ، هذه الحقيرة . . . فذهبت اليها لأضربها . . . فاذا أنا أؤخذ بها . . . كان الأمر صاعقة أو نازلة أو طاعونا أو ماشئت فسمه . . . ولكننى قد أصبت وما أزال . وأنا أعلم أن لا مهرب لى منذ الآن ، وأن كل شيء قد انتهى ، فأنا أسير هذه المرأة ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئاً سواها . . . وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كأنما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذاً . . . فذهبتنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخاً ، فاستدعيت هنالك غبجراً ، رجلاً ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ،

أسقى بسخاء ، بوفرة ... كنت لا أحسب ما أنفق من مال ، فمئات
الروبلات تذهب بعضها وراء بعض ، فما هي الا ثلاثة أيام حتى خلا
وفاضى فلم يبق معى شيء ... ولكننى كنت أحسب أننى قد غزت هذه
المرأة وامتوليت عليها . فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شيء ، هل
تظن أننى ظفرت منها بشيء ؟ أبدا ... لم أتل منها شيئا البتة . لقد
رفضت ، بل لم تتنازل حتى أن أتأمل جمال جسدها معجبا به عن بعد !
ان لها قواما ... أوه ... لن أقول لك الا هذا ... قواما ... ان فى
جسمها نوعا من تنين تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصبع
الصغير من قدمها اليسرى . لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته ... ولكن
ذلك كان كل شيء ، أحلف لك . كانت تقول لى :

« - أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك - عدنى بأن لا تضربنى ، وبأن
تدع لى أن أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فربما قبلت عندئذ أن أصبح
زوجتك .

« كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن ! » .

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من
غضب مسعور . أصبح كالسكران دفعة واحدة . احتقنت عيناه دما .

« - وهل ترفض أنت أن تتزوجها ؟

« - اذا وافقت تزوجتها فورا ؟ واذا رفضت بقيت الى جانبها ولو
خادما . هل تعلم أنت ... أنت ...

توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ،
وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة ...

« - هل تعلم ، أيها الطفل البرىء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا
هذيانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة ؟

اسمع يا اليوشا : أنا رجل دنىء منحط تستبد به رغبات حقيرة وتضيقه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً صغيراً ، أما أن أكون لصاً صغيراً شقياء ، فذلك ما لن يرضاه دمترى كارامازوف لنفسه في يوم من الأيام ! ألا فاعلم اذن أننى لص صغير يسرق المال من على منضدة أو من جيب سترة معلقة ! ففى ذلك الصباح الذى ذهبت فيه الى جروشنكا لأضربها ، كانت كاترين ايفانوفنا قد استدعتنى الى منزلها سرا ، وكلفتنى (راجية أن أنفذ طلبها فى الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها آجاتى ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هى التى كانت فى جيبى حين ذهبت الى جروشنكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأننى ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكننى لم أسلم كاترين ايفانوفنا اىصال البريد ، وانما أكدت لها أننى أرسلت المال ووعدتها بأن آتيا بالايصال فى يوم آخر . ولم أعطها الايصال طبعاً حتى هذه الساعة ، متعللاً بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فقلت اليها تحيتى واحترامى ، فسألتك : « والمال ؟ » ، فما عساك قائلها ؟ - أنت شقى يا ميتيا . . . هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تحطم هذا التحطم !

- أترك تظن أننى سأتحجر لأننى لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردما الى كاترين ؟ ألا ان البلية بعينها هى أننى لن أتحجر ، لن أتحجر الآن على كل حال ، فلست أملك من القوة ما يمكننى من الانتحار . لا أحد يدرى ما قد أفعله فى المستقبل . أما الآن فأننى لا أفكر الا فى الذهاب الى جروشنكا . . . ولكن ما يكون !

— وما الذى ستفعله عندها ؟

— أصبح زوجها • أنال هذا الشرف • فإذا جاء عشيقها يزورها
اختبأت فى الغرفة المجاورة • وسأظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء
فى السماور ، وسأتولى شراء ما تكلفنى بشرائه من أشياء صغيرة •••

قال أليوشا بصوت مهتاج :

— ان كاترين ايفانوفنا ستفهم كل شيء ، ستفهم مدى شقائك ،
وستغفر لك • ان لها ذكاء فذا • لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ،
وستدرك هى هذا !

فأجابه ميتيا يقول بلهجة مرة :

— لن تغفر لى قط • هناك أشياء لا يمكن أن تقبلها وأن ترتضيها
أية امرأة • هل تعرف ما هو أفضل شيء يجب أن نعمله ؟

— ماذا ؟

— أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل •

— ولكن من أين نجىء بهذا المبلغ ؟ اسمع : اننى أملك ألفى روبل ،
ولا شك أن ايفان سيعطى ألفاً آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف • خذ
هذه الآلاف الثلاثة ورددّها اليها •

— ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جييك ؟ انك ما زلت الى
الآن قاصراً ، ولا بد حتما أن تذهب اليها موفدا منى ، فى هذا اليوم
نفسه ، بالمال أو بدون المال ، لأننى أعصحت لا أطيق احتمال هذا الوضع •
لقد بلغت الأمور حدّاً لا أملك معه أن أنتظر مزيداً من الانتظار • فى
غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات • سوف أرسلك الى أبينا •

— الى أيننا ؟

— نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب إليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل •

— ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •
— أقدر ذلك • هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟
— أعلم •

— فاسمع اذن : اننى أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشى من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقى كاملة • ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمى ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف • فليعطنى من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ، فليعطنى ثلاثة آلاف فقط ، لا أكثر من ذلك ، فينقذ روحى من هذا الجحيم ، وتُغفر له بذلك خطايا كثيرة فى مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا لا مين فيه أننى سأخفى متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهى بعدئذ ولا يسمع عنى • هذه آخر فرصة أتيجها له ليتصرف تصرف أب • قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة •

— أوه ... ميتيا ... انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال •
— أعلم أنه سيرفض أن يعطى المبلغ • أنا من ذلك على يقين مطلق ، اليوم أكثر من أى وقت مضى ! بل اننى أعلم شيئاً آخر أيضاً : لقد بلغه منذ زمن قصير جداً ، فى الأيام الأخيرة ، ربما أمس فقط ، أن جروشكا تكلم جادة حين تعلن أنها تريد أن تتزوجنى • فلأول مرة ، أدرك " فعلاً " ، (" فعلاً " ، لاحظ كلمة " فعلاً " هذه) ، أنها لا تمزح ، أنها لا تهزل ، وأنها قد تتزوجنى حقاً • انه يعرف طبعها ، انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هى ! فهل يمكن أن يعطينى مزيداً من المال ليشجعها

على انفاذ هذه النية ، وهو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شيء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقاً نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها في حزمة كبيرة مختومة ، وربط الحزمة بشريط أحمر متصالب في الاتجاهين . هأت ذا تلاحظ اننى مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : « الى ملاكى جروشكا ، اذا هى رضيت أن تصبى » . كتب هذه العبارة بخط يده فى كثير من العناية ، وفصل ذلك كله سراً فى الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجد الآن عنده ، ما من أحد يعرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذى يثق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجيئ جروشكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها هذا المبلغ . لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها فأجابته بأنها « قد تعزم أمرها » . ولكن اذا ذهبت الى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ فى هذا المكان مترقباً مترصداً ؟

— أترصدها هى ؟

— نعم . ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتى المنزل ، قد أجرتا توماس غرفةً من بينهما الصغير ، وتوماس هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً تحت امرتى ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس فى الليل . انه فى النهار يمضى الى صيد ديوك الخلنج فيجنى من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند توماس هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السر ، أو يخطر ببالهما أننى هنا أترقب وأترصد .

— هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

— وحده . ثم انه سيلفنى مجيئها بإشارة سريعة اذا هى جاءت .

— أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

— نعم ، فى الخفاء • وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المسال وعن بقية الأمر • لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الى تشرماشيا يوما أو يومين • لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحَّ العجوز على ايفان قائلا له : « اذهب الى هناك نيابةً عني • قدم لي هذه الخدمة » • وانما يهدف العجوز الى ابعاده بضعة أيام بغية أن لا يكون حاضرا حين تجيء جروشكا •

— أهو ينتظر اذن أن تجيء اليه جروشكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

— لا ••• لن تجيء اليه اليوم • هنالك قرائن تثبت لي ذلك • لن تجيء اليوم حتماً (كذلك صاح ميتيا فجأة) • وهذا رأى سمردياكوف أيضاً • ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان • اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة •••

— ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمتري فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا • (حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جن) •

قال دمتري فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

— اطمئن • ما زلت أملك عقلى كاملا • لا تخش شيئاً • أنا أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا • اننى أعتقد بحدوث معجزة •

— معجزة ؟

- معجزة الهية • ان الله يعرف ما بقلبي ، ويعلم ما أنا فيه من كرب
وكمد ويلس • انه يرى ما يجرى هنا • فلن يرضى - أنا واثق من
هذا - لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع • اننى أو من بالمعجزة يا ألبوشا !
اذهب اليه •

- سأذهب • هل ستنتظرنى هنا ؟

- سأنتظر • أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنتك لن تستطيع أن
تنجح فى مهمتك فوراً ، وأنه لن يكفى أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا
... هات المال ! ، لا بد أنه فى هذه اللحظة سكران • سأنتظر ماوجب
الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم •
واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب فى هذا اليوم نفسه ، ولو فى منتصف
الليل ، أن تذهب الى كاترين ايفانوفنا ، بمال أو بغير مال ، لتقول لها
اننى كلفتك ببلاغها تحيتى واحترامى • اننى أحرص حرصاً مطلقاً على
أن تقول لها هذه العبارة : « كلفنى بأن أنقل اليك احترامه » •

- ميثا ! فماذا لو جاءت جروشكا غداً أو بعد غد ، هذا اذا لم تجيء
اليوم ؟

- جروشكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحول
دون الأمر مهما يكن الثمن ...

- فاذا حدث رغم كل شيء أن ...

- اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق لاحتمال •

- من تقتل ؟

- أقتل العجوز • أما هى فلن أقتلها !

- أخى ، أخى ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

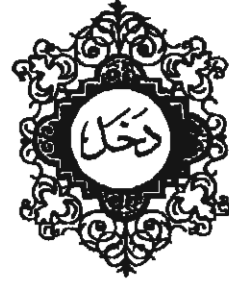
— لا أدري ، أصبحت لا أدري ... قد لا أقتل ، ولكن قد
أقتل ... أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القدر الكريه في تلك اللحظة !
اننى أكره جوزه عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة
الوحيحة الخلية . انه يوقظ فى " استمزازاً جسيماً " ذلك ما أخشاه
خاصة . قد لا أستطيع أن أكبح جملحى وان أسيطر على نفسى .

— أنا ذاهب اليه يا ميتيا . اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شئ فى
سبيل أن لا يقع هذا الأمر الرهيب الفظيع !

— وسأنتظرك أنا هنا آملاً أن تحدث معجزة . أما اذا لم تحدث
المعجزة ...

اتجه ألبوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً .

سردواكون



اليوشا على أبيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة
فملاً • ولقد قدّم الطعام في الصالون ، كما
جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة
طعام •

الصالون أوسع حجرة في المنزل ، وقد حرص صاحبه على ان
يكون أثاثه قديماً من باب الأبهة والعظمة • ان الأثاث كله قديم جداً ،
أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن • وعلى الجدران
بين النوافذ قد صُفّت مرايا لها أطر مفخمة من طراز بال ، بيضاء اللون
أيضاً ، ولكنها مذهبة • والسجاد أبيض كذلك ، مهترى في مواضع كثيرة ،
والحيطان مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احدهما صورة أمير من الأمراء كان
حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف
مات هو أيضاً منذ زمن بعيد جداً • وفي الركن الذي يواجه باب المدخل
توجد عدة أيقونات تشعل أمامها في المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل
التقى بل لتظل الغرفة مضياءً أثناء الليل • ذلك أن فيدور بافلوفتش
لا ينام الا في ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه في الثالثة أو الرابعة
من الصباح ، ويقضي وقته قبل ذلك سائراً في الغرفة الى غير نهاية ، أو

جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً • لقد أصبح هذا عادة فيه •
وكان فى بعض الأحيان يبقّى وحيداً أثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه
الى المبنى الملحق • ولكنه فى أكثر الأحيان يحتفظ بخادمة سمر دياكوف
الذى ينام فى الدهليز على دكة •

حين دخل أليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجيء
بمررب وقهوة • ان فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى
بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك • وكان ايفان فيدوروفتش
بجانبه ، يحتسى القهوة معه • وكان الخادمان جريجورى وسمر دياكوف
واقفين قرب المائدة • وكان يبدو فى تصرف السيدين والخادمين ، على
السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير ممهود • كان فيدور بافلوفتش يضحك
ملء خنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة
التي تصف بها هذه الضحكة والتي يعرفها فى أبيه حق المعرفة من قبل ؛
فامستتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، فهو
الآن مسترسل فى نوبات ملاطفة ومطايبة •

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاحكاً صاحباً وقد سرّ • فجاء أن يرى
أليوشا :

— ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس • قهوة ؟ ليست القهوة كحولاً ،
وهى ساخنة ولذيذة • لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت راهب ، اللهم الا أن
تريد ••• هل تريد ؟ لا ؟ طيب ••• سأعطيك اذن خمرة ، خمرة
عظيمة ! ياسمر دياكوف ، افتح الخزانة ••• الخمرة على الرف الثانى
يمنة • اليك المفاتيح • هيا أسرع !

وكان أليوشا يتهاى منذئذ لأن يرفض أن يشرب الخمرة • قال له
أبوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

— لا تريد ؟ طيب ... لا بأس ... سيؤتى بها إلينا نحن ، ما دمت
لا تريد أن تشربها ... بالمناسبة ، هل تغديت ؟

— تغديت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرة من
خبز واحتسى قدحاً من شراب التفاح فى مطبخ كبير الرهبان •

قال الأب :

— مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة ! ألا يحسن
تسخين القهوة ؟ ولكن لا ... انها ما تزال تغلى • هى قهوة ممتازة ،
هل تعلم ؟ لقد أعدّها سمردياكوف • ان صاحبى سمردياكوف فنان
فى اعداد القهوة وتحضير أنواع الكولياكا* ، وكذلك فى طهى حساء
السمك • هذا حق • يجب أن تجيء إلينا ذات يوم ، فتذوق حساء
السمك هذا ، ولكن عليك أن تبثى بمجيثك سلفاً • آ ... صحيح • •
نصيت ! ألم أمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك
وأن تعود الى المنزل نهائياً ؟ هل أتيت بفراشك ؟ ها ها ها ...

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضاً :

— لا ، لم آت به •

— لقد أخفكت فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك ؟
يا طائرئ الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك •
ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عيني هذه
النظرة ضاحكاً • ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ ... ذلك أننى أحبه ،
هذا الفتى • اقرب يا أليوشا ، فانى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية •

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

- - لا بل حسبي اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا •••
- اجلس هنا ••• سوف تسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك
- سوف تضحك يا عزيزى • تخيل أن حمارة بلعام* قد أخذت تتكلم
- هى تتكلم الآن ، تتكلم ••• وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التى يعينها الأب الا الخادم سمردياكوف • ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهو فى الواقع جرىء جسور حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول فى هذه المناسبة : ان مارفا اجناتوفنا وجريجورى فاسيلفتش هما اللذان توليا تربيته ، ولكنه « قد شب على نكران الجميل » كما كان يقول جريجورى ، صيماً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء • كان أثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشنق قطعاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً ، فهو يتدثر فى هذه المناسبات ببطاية يتخذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محرراً يديه فوق جبة القطة كمن يحمل مبخرة • وكان يسترسل فى هذه اللعبة فى خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى فى ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة • فانزوى الصبي يومئذ فى ركن من الأركان ، وصام عن الكلام أسبوعاً برمه •

كان جريجورى يقول لمارفا اجناتوفنا :

- - ان هذا الصبي الشاذ لا يحبنا كلياً ، وهو لا يحب أحداً على كل حال •

ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف :

- أأنت كائن انساني ؟ ما أنت بانسان ... لقد وُلدت في رطوبة الحمامات ، هذا أنت ...

لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال في يوم من الأيام ، كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه «التاريخ المقدس» . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . وفى ذات يوم ، أثناء الدرس الثانى أو الثالث ، أخذ الصبى يضحك على حين فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

- ما بك ؟

- لا شيء . ان الرب قد خلق الضياء في اليوم الأول ؛ وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم ، فمن أين جاء الضياء اذن في اليوم الاول ؟

بهت جريجورى لحظة . وكان الصبى ينظر الى معلمه نظرة ساخرة ، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن احتقاره فلم يستطع جريجورى أن يكظم غيظه ، فاذا هو يلطم تلميذه على وجهه لطمة قوية وهو يقول له :

- من أين ؟ من هنا ...

تلقى الصبى الصفقة دون أن يقول كلمة واحدة ، ولكنه حزن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يارحه بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكثرث له ، رغم أنه لم يقرّعه فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفضحه كوبيكاً

كلما لقيه ، وكان يتفق له فى حالات الكرم والطيبة التى يمر بها أن يرسل الى الصبى من مائدته بعض الحلوى • ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، أخذ يهتم به اهتماما جادا ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه • غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا برء منه • كانت نوبات الصرع توافى الصبى مرةً فى الشهر وسطياً على تفاوت فى طول المدة ، واختلاف فى قوة النوبة ، فالنسبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى • وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل فى الصبى عقوبات جسمية حظراً صارماً باتاً ، وأخذ يستدعى الصبى اليه من حين الى حين ، كما عارض فى تعليم الصبى أى شئ خلال تلك الفترة • ومع ذلك حدث فى ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مرافقا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يحاول أن يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة • كان فيدور بافلوفتش يملك عبدا كبيرا من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا فى يوم من الأيام • وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له :

— اقرأ ما يحلو لك أن تقرأ ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى • • ذلك خير من التسكع فى فناء المنزل • تناول كتابا واجلس • اسمع ، خذ هذا الكتاب أولا •

قال له فيدور بافلوفتش ذلك ، ومدَّ اليه كتاب « سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا » * •

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتنن به ، حتى أنه لم يتبسم مرة واحدة أثناء قراءته ، بل انه قطَّب حين فرغ منه •

سأله فيدور بافلوفتش :

- هيه ... كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً :

- هلاً أجبت يا أهيل ؟

فتأماً سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

- هذا كله أكاذيب ... أمور لم تحدث ! ...

- شيطان يأخذك ! ... طيب خذ ... اقرأ اذن « التاريخ العام »
من تأليف سماراجدوف * . ستجد ههنا أحداثاً جرت ، ستجد أحداثاً
صادقة . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة ،
فقد رآه مملاً باعثاً على الضجر . وأعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك
بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبي أصبح يقف
من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذٍ كبير يتفاقم يوماً بعد يوم :
أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب
بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه
طويلاً ، ثم يملأ ملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان
جريجورى يسأله :

- هل وجدت فى الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

- أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى المشمّر المتقرّر لا يجيب بشيء . وهو يتصرف هذا

التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك . انه يرفع شوكة فيأخذ ينعم النظر في اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يزم أمره فجأة فيضعها في فمه .

فكان جريجورى ينظر اليه فيهمهم قائلاً :

— انه يمد نفسه سيداً من السادة !

فلما أبلغ فيدور بافلوفتش موقف سمردياكوف الجديد هذا ، قرر فوراً أن القى يصلح أن يصبح طاهياً ممتازاً ، فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة . قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى فى موسكو، ثم عاد منها وقد تغيرت سمحته تنيراً كبيراً . لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتقطن وجهه تقطناً لا يتفق وسنّه . أما من الناحية النفسية فانه لم يكده يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشاً لا يشمر بحاجة الى أن يعيش فى صحبة الناس ، والى أن يتقرب من أى انسان . ولقد لبث فى موسكو قليل التواصل كثير الصمت لا يفصح عما بنفسه ولا يفضى الى أحد بشأن من شؤنه ، كما عُرِف ذلك فيما بعد . ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها . وقد شهد فى ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استيائه رضى . غير أنه ، فى مقابل ذلك ، قد عاد اليها من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جداً ؛ وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين فى اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة فى ان يدهن حذاه بالأنيقين، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركما الى أن تلمعا لمعان مرآة . وبرهن سمردياكوف على أنه طامع عظيم .

وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كل أجره تهرباً في اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يكره النساء كرهه للرجال . فهو يعتمد عنهن ، ويتحاشى لقاءهن ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دُهن فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لأن له رأيه في هذا الموضوع . ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت في ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتقنا اضطرت أن تقصر اعداد وجبات الطعام بنفسها في تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهي الجديد في بعض الأحيان ، وهو يتفرس في وجهه وينظر اليه نظيرة اشتباه :

.. انني أتمسأل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الأسئلة ، ولا يزيد على أن يصفر وجهه حزناً وحسرة ؟ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش عندئذ محركاً يده بحركة تعبّر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محل شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة الى الأبد ، فهو لا يمكن أن يسطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوماً . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة* كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الأوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة .

قال فيدور بافلوفتش لخادمه بلهجة جازمة :

ـ يمينا ما لقيت فى حياتى أناماً مثلك •

ثم أسرع يهدى اليه عشرة روبلات •

يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعاً بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضاً ، لا يدرى أحد لماذا ، رغم أن الفتى كان متوحشاً معه كتوحشه مع سائر الناس ، وكثيراً ما كان ينظر اليه نظرة شذراء ، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة فى حضوره يوماً • وكان الفتى لا يتكلم الا نادراً على كل حال ، فلو تساءل متسائل فى ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عمّا لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التى يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً • ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء فى المنزل ، أو فى القاء ، أو فى الشارع ، أن يتوقف على حين فجأة ، فإذا هو يبدو عليه أنه يسترسل فى تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر ، دون أن يتحرك من مكانه قيد أنملة • وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه فى مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسما ت وجهه أن ليس نمة تفكير أو تأمل من أى نوع ، وأن الأمر لا يبدو أن يكون استسلاماً لأحلام عابرة • ان هناك لوحة جميلة رسمها الرسّام كرامسكوى* وجعل عنوانها « التأمل الحالم » • ان اللوحة تمثل غابة فى فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذى يقطعها ، فلاح " يرتدى قفطاناً ويتنعل خفين بالين ، فهو فى عزلة تامة • لقد ضل الفلاح طريقه هنالك ، فهو يبدو فى هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً فى التأمل • والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق فى « أحلام غامضة » ، فلو لكزه أحد بكوعه فى تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئاً مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سأله فى تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشئ • ولكنه

سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله
ذاك في أحلامه ، وهي مشاعر عزيزة عليه أثيرة عنده ، يجمّعها في نفسه
طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به . وهو لا يدري طبعاً
لماذا يفعل ذلك . ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين
أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي الى
القدس حاجاً ينشد الخلاص ؛ أو تدفعه ، لا تدري لماذا ، الى أن يشعل
النار في قريته فيحرقها . وقد يفعل الأمرين كليهما . ان هؤلاء الحالمين
كثُر في شعبنا . ولا شك أن سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم
في نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعاً الى ذلك في حماسة وحمياً ، دون
أن يعرف حتى الآن الهدف الذي يرمى اليه والغاية التي يسعى اليها .

محاولة



الحمارة قد أخذت تتكلم فعلاً • وكانت المناسبة غريبة غرابية كافية : ان جريجورى ، حين كان فى الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الأشياء ، قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى الذى وقع فى أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكرامه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذوبه وقتلوه ، فرفض أن يرتد عن دينه ، وارتضى أن يستشهد فى سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجّد المسيح • كانت الصحف فى ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندى ، وعن تضحيته البطولية ، وكان جريجورى قد روى ماسمعه أثناء الغداء • ان فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل فى حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجورى • ثم انه كان فى ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهيج النفس متفتح القلب • فبعد أن أصفى الى ما رواه جريجورى وهو يشرب قدح كونيائك ، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندى وأن تعده ولياً من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، « بغية أن يجتذب الجماهير والمال » • فقطب جريجورى حاجبيه عابساً ، حين لاحظ أن مولاه استرسل فى

التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر • وفى تلك اللحظة انما سُمع
سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب • كان الخادم
الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى فى السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات
الطعام ، أعنى أن يشهد المناقشات التى تعقبها • ولكنه تعود منذ وصول
ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء فى يوم
من الأيام قريبا •

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه
يسخر من جريجورى ، سأله قائلا :
— ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن فى
الحسبان ، فيقول :

— بصدد تلك القصة • فأنا أرى أن فعل ذلك الجندى الجدير
بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شك ، ولكننى أرى أنه
ما كان ليعد خاطئا آثما لو أنكر اسم المسيح فى ذلك الظرف وتنازل
عن تعميده انقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسنات تكفّر ، بعد
سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك •
تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

— ما كان ليعد خاطئا آثما ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، ومستذهب
الى جهنم رأساً بسبب هذا الرأى الذى تراه ، أو ستشوى كما يشوى
خروف •

وفى تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله
ابتهاجا قويا ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن
يجلس وأن يصنى الى المناقشة :

– هذا موضوع مألوف لك • هذه مسألة لا بد أنك تعرفها حق معرفتها •

قال سمردياكوف مؤكداً :

– لا أوافق على موضوع الخروف المشوى • ولن يكون هناك عقاب بسبب رأى من هذا النوع ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف •

– اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلکز ركبة أليوشا •

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عيني سمردياكوف بغضب مسعور :

– هذا شاب شقى لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلاً بلهجة هادئة صابرة :

– أما عن قولك بأننى شقى أو ما الى ذلك ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل قليلاً وتقضى فى الأمر بنفسك : هب أن جلادى الجنس المسيحى قبضوا على ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتكرر لتعميدى المقدس : ان العقل يميز لى فى هذه الحالة أن أقبل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم •

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

– سبق أن قلت ان هذا لا اثم فيه • فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة والحجج •

ودمدم جريجورى يقول باحتقار :

- طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

- أما عن قولك بأننى طاهى حساء ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتنازل فتمهل بعض التمهّل أيضا • لا تشتمنى ، وإنما فكّر قليلا : هب أننى قلت للذين يعذبوننى : « ليكن لكم ما تريدون ... » اننى أرتد عن دينى المسيحى وأتذكر لالهى الحق • أفلا تديننى المحكمة الإلهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقة قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حرمت منها كائى وثى ، منذ تلك الدقيقة ، بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذة فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى فاسيلفتش ، رغم أنه لا يجيب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخاّب فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها الخادم المعجوز •

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

- ايفان ! ميل على حتى أستطيع أن أهمس فى أذنك بشىء •

ثم همس يقول له :

- من أجلك انما يقول سمردياكوف هذا الكلام ، وهو ينتظر تأييدك واستحسانك ، فامدحه اذن •

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد في الاصغاء الى هذه الملاحظة
التي أسرَّ بها اليه أبوه .

وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

- اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

- هناك شيء آخر أريد أن أهمس به في أذنك .

فمال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجذ نفسه الذي أظهره
في المرة الأولى . فقال له الأب :

- انتي لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطر ببالك أنتي
أونزء عليك . قليلاً من الكونياك ؟

- بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس في أبيه : « لقد مكر بعض السكر
منذ الآن » . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .
وصاح جريجورى بقول فجأة :

- كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر في المناقشة
أيها الشقي ؟

فأجابه سمردياكوف :

- مهلاً يا جريجورى فاسيلفتش ، اصبر علىّ ولو لحظة قصيرة ،
واصنع الى كلامي حتى النهاية ، لأنني لم أتممه بعد . أعوذ فأقول انتي
متى لعنتي الله في تلك اللحظة الحاسمة ، يصبح شأنى شأن أى وثنى ،

ويكون تمميدى قد أُلغى تبعاً لذلك ، فلا يُحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحنه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك ، استحنه قائلاً :

— أوصلنا الى النتيجة التى تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بنى •
تابع سمردياكوف حديثه :

— فاذا لم أعهد مسيحياً ، فأتنى لا أكذب على الذين يعذبوننى ويسألوننى : • أئعد نفسك مسيحياً أم لا ؟ ، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجنى من المسيحية بسبب نيتى وحدها قبل أن يتسع وقتى للاجابة عن سؤالهم بكلمة واحدة • فاذا كنت قد أخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أحاسب فى العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب فى العالم الآخر كما يُحاسب مسيحى ارتد عن دينه ، مع أنني أكون قد جرّدت من تمميدى بسبب نيتى وحدها حتى قبل أن أرتد عن دينى بالقول ؟ اننى بعد أن جرّدت من مسيحتيتى ، لا أكفر بالمسيح ، لأننى لا يكون قد بقى لى دين أرتد عنه • هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تريباً كافرأ على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذى يريد أن يعاقب مثل هذا الترى ، حتى فى السماء ؟ ما من أحد يسلخ بكرة واحدة مرتين ! وهب أن الله العلى القدير مسيحاسب هذا الترى بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقابا يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا الترى لم يأت حين ولد من أبوين غير مسيحين • ان الله لا يمكن أن يكرهه بالقوة على أن يقول انه كان مسيحياً ، ولا يمكن أن يعده مسيحياً ، فان عدّه مسيحياً كان هذا كذباً ظاهراً واضحاً ، والله الذى هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن

يكذب ولو فى مناسبة واحدة ، ولو فى كلمة واحدة من كلماته •

أصيب جريجورى باليكم من شدة ذهوله ، ونظر الى الخطيب محملاً • فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكاً غامضاً بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد تجمد رجل صدم الحادث بجهته على حين فجأة • وأفرغ فيدور باقلوفتش فى جوفه قذح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة •

— أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين ، ألا ترى ذلك يا ايفسان ؟ اذهب أيها اليسوعى العفن ؟ من ذا الذى لقنتك هذه الضلالات ؟ اطمئن يا جريجورى ، سوف نهدم آراءه الوقحة ، سوف نحيلها دخاناً ، سوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لتفرض أنك على صواب فى موقفك من معذبتك • ان هذا لا ينفي أنك أنكرت دينك فى قرارة نفسك ، وأصبحت فى تلك اللحظة كافراً ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل • فبماذا تجيب عن هذا السؤال أيها اليسوعى الظريف ؟

— لا أنكر أنني أكون قد ارتددت عن دينى فى قرارة نفسى ، ولكن ليس فى هذا أى اثم كبير ، واذا كان نمة خطأ فهو خطأ عادى جداً •

— عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

— أنت تكذب • أنت ملعون • • • • • هو • • • • •

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا باتصاره
ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضاً :

- افض في الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء فى
الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة
صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : « اذهب أيها الجبل الى
البحر » ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فوراً عند أول أمر يصدر اليه*
فيا جريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب
لك حق اهاتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا أن
يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جداً) بل ان يتقدم قليلاً نحو ذلك الجدول
الصغير التين الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ أن الجبل
لن ينصاع لأوامرك ، وأن كل شيء سيقى على ما كان ، مهما يكن صراخك
شديداً ومهما يكن زعيقك قوياً ! فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش
على أنك أنت أيضاً لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا تكف عن
اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعرف على
كل حال أنه ليس فى زماننا هذا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى
الناس سلطاناً وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين - أقول
ليس فى زماننا هذا أحد يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى
البحر ، فأنا اذن لا أتكلم عنك وحدك . لا ، ليس فى زماننا هذا أحد
يملك هذه القدرة ، ربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين فى أكثر
تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين فى صحراء ما من
صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع
أن نهتدى اليهما ونشر عليهما مهما نبحت عنهما . فاذا كان الرجال
الآخرون ليسوا بالؤمنين حقاً ، فكيف نسلم بأن الرب سيلعنهم جميعاً ،
وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين الغامضين ، وبأنه لن يغفر

لأحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أو جحدت ،
أن أحظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة ...

— قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم
يستطيعان أن يحركا العيال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجّل هذه النقطة !
تلك هى سمة الانسان الروسى كله .

كذلك قال فيدور بافلوفتش بصوت حاد كربه .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

— ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان
الشعب الروسى .

— أنت تشاطرنى هذا الرأى . لا بد اذن أن أكون على صواب .
هذا هو الأمر يا أليوشا ! ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك؟
فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

— لا ... ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

— لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة وحدها ، عن فكرة
ذيتك الناسكين . أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسماً :

— نعم هى سمة روسية ، روسية جداً .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

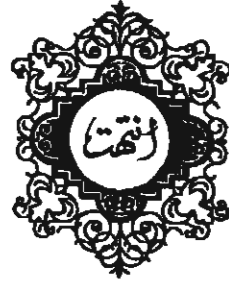
— قولك هذا يساوى دينارا ذهباً يا حمارة ، سأرسل اليك الدينار
فى هذا اليوم نفسه . أما فى كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ،
أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها النبى أن خفة العقل وحدها هى

التي جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للتفكير في الله :
فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكاراً ، والرب ثانياً قد
ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعاً وعشرين ساعةً فقط ، فنحن
لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوماً كافياً . فأين لنا الوقت اللازم
للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام الجلادين ، مع أنك
لا يمكن أن يكون في ذهنك في مثل تلك اللحظة ، فكرة أخرى غير
فكرة الايمان التي كانت هي بينها الفكرة التي يجب أن تكفل لها الغلبة
والنصر ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقي ؟

— لقد جرت الأمور على هذا النحو حقاً . ولكنك تسلم أنت نفسك
يا جريجورى فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنًا وأخف
وزناً ما دامت الأمور قد جرت على هذا النحو . لنفرض انني اعتقدت ،
في ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : انني لأرتكب عندئذ اثماً
اذا أنا رفضت الاستشهاد في سبيل ديني ، وارتضيت اعتناق دين محمد .
ولكنني في مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكشفني أن أقول
للجيل في تلك الدقيقة : « امش أيها الجيل فاسحق الجلاذ » ، فاذا
بالجيل يرتدى على الجلاذ فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضي في
سبيل هادئ أغنى وأمجده الله . فاذا راودتني هذه الافكار لتحقيق هذه
الغاية منادياً : « اسحق الجلاذ أيها الجيل » ، فاذا بالجيل لا يستجيب
لندائي ، أفلا يهاجمني الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاً قلت لي كيف يمكنني
في تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودني الشك ؟ لقد
علمت سلفاً انني لن أظفر بملكوت السماوات كاملاً (لأن الجيل لم يطع
أوامري ، وذلك دليل على أن ايماني ليس محل ثقة هناك في السماء ،
ودليل على أنني لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة في الحياة الآخرة) .
فأى جدوى اذن في أن أدع لهم أن يسلخوا جلدي حياً بغير فائدة البتة ؟

وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجيل مرة أخرى
أهيب به أن يسحقهم ، فإن الجيل لن يتحرك من مكانه رغم جميع
صرخاتي • وفى تلك اللحظة يمكن أن لا يساورنى الشك فحسب ، وإنما
يمكن أيضا أن أفقد عقلى بسبب زعري الشديد بحيث أصبح عاجزاً حتى
عن التفكير • أفىكون ائمى والحالة هذه كبيراً اذا أنا أردت ، بعد أن لم
أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة
وأن أعوّل على جزاء حسن ، أقول أفىكون ائمى كبيراً اذا أنا أردت
عندئذ أن أنقذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هو السبب فى قتي الكاملة
بالرحمة الالهية ، وفى ائنى آمل أن تففر لى السماء غفرا كاملاً •

أشياء شرب الكونياك



المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور
بافلوفتش الذى كان مرحاً فى أول الأمر قد عبس
واكفهر وجهه فى النهاية • وها هو ذا ، وقد
بدا عليه الامتناع واضحاً ، يفرغ فى جوفه
قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدّ المألوف تجاوزاً كبيراً • وصاح
يقول للخادمين :

- انصرفوا ، اخرجوا ••• أيها اليسوعيون ! امض
يا سمردياكوف • سيصلك الدينار الذهبى الذى وعدتك به ، ولكن هيّا
انصرف ! وهون عليك يا جريجورى ، عدّ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك
وتضعك فى سريرك •

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة
وشراسة :

- ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء •
وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن أن يجيء كل اليوم عند الغداء ،
أأنت الذى تجتذبه يا ايفان ؟ ماذا فعلت حتى فتنته ؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

— لم أفعل شيئا البتة • وإنما شعر نحوى بالاحترام ، لا أدري لماذا
••• هو خادم ، هو رجل خشن الطبع فظ غليظ ••• ولكنه واحد من
أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة •

— الى الصف الأمامى ؟

— سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه ،
ولكن سيجىء أيضا أناس مثله • وأمثاله هم الذين سيؤكدون أنفسهم
أولا ، ثم يجيء دور من هم أفضل منه •

— ومتى تحين تلك الساعة ؟

— ربما اشتعلت الأسهم النارية ثم انطفأت قبل أن تنطلق • ان
الشعب لا يحب الآن هؤلاء المحرّضين كثيرا •
— ان تلك الحمامة قد أخذت تفكر ، ولا يدري الا الشيطان الى
ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها •

قال ايفان ماكرا ساخرا :

— انه يجمع آراء ويراكم أفكارا •

قال الأب :

— أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك
أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكن¹ لشخصك الاحترام • أما شعوره
نحو ألبوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره • ولكن يجب أن
نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف
يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل • وهو الى هذا
يجيد طهى أنواع الكوليياكا • أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس
هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلا ؟

- لا ... لا يستحق منا هذا العناء !

- أما فيما يتعلق بالأفكار التي يمكن أن تقوم في رأسه ، فأننا من جهتي أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسى يستحق أن يضرب ضرباً مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأى دائماً . ان فلاحينا أوغاد أوباش لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن حسن الحظ أنهم ما يزالون يضربون من حين الى حين ، هؤلاء الأوغاد ... ان أشجار الخيزران التي تؤخذ منها العصي دليل على قوة روسيا . فمتى قطعت غابات أشجار الخيزران ضاعت بلادنا . أنا شخصياً أحب العقل . ولا شك أننا قد كفنا عن ضرب الفلاحين لافراطنا في حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرون على جلد أنفسهم بأنفسهم * . وما أعتاهم في هذا : على قدر اعتبار المرء نفسه يكون فقدانه القصد والاعتدال ... من قائل هذا القول المأثور ؟ على كل حال ... هو يفقد القصد والاعتدال ... أما روسيا فهي بلد قذر حقير ... ليتك تعلم يا صديقى كم أكره روسيا ... أو قل اننى لا أكره روسيا بمقدار ما أكره هذه العيوب ... وربما كرهت روسيا أيضاً ... هذه كلها حقارات ووساخات ! هل تعرف ما الذى أحبه أنا ؟ أنا أحب الفكاهة ...

- لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . فعليك أن تمسك !

- لا لن أمسك بعد . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانياً ، ثم أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعت سلسلة أفكارى ... ها .. نعم ... حين كنت ماراً بموكرويه سألت رجلاً عجوزاً فأجابنى بما يلى : « نحن نحب كثيراً أن نحكم على النبات بالجلد ، ونعهد بتنفيذ هذه العقوبة الى شباب . فكثيراً ما يحدث أن نرى الفتى الذى جلد الجميلة بالأمس يجيئها اليوم خاطباً . وهكذا تنتفع النبات أيضاً من الامر ، كما يقال ، ما رأيك فى شبابنا أنصار المركيز دى ماد ؟ منظر فكه على الأقل ...

ليتنا نذهب يوما لرؤية المشهد • ما رأيك يا أليوشا ، هه ؟ مالك تحمر ؟
لا تخجل يا صغيري ! يا لها من خسارة أننا لم نحضر مأدبة كبير الرهبان
لنقص على الرهبان قصة بنات موكرويه هذه ! لا تؤاخذني يا أليوشا على
أننى أهنت صاحبك كبير الرهبان منذ قليل • ان الخردل يصعد الى أنفى
فى بعض اللحظات ... لا شك أننى أكون آثما ، ولا شك أننى سأعاقب ،
إذا كان الله موجودا • ولكن إذا لم يكن الله موجودا ، فما فائدة جميع
هؤلاء الرهبان ؟ إذا لم يكن الله موجوداً فإنه لقليل جداً أن نقطع
رعوسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقنى يا ايفان إذا قلت لك ان
هذا يهين أسمى عواطفى ؟ لا ... أنت لن تصدقنى ... اننى أرى هذا
فى عينيك ! أنت تظن كما يظن سائر الناس أننى مهرج لا أكثر •
أليوشا ، هل تصدقنى إذا قلت لك اننى لست مهرجا فحسب ؟

— أنا أعلم أنك لست مهرجا فحسب •

— أصدقك • أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا ، كما تفعل ذلك
دائما • أنت تقول الحقيقة • وعيناك لا تكذبان • ولا كذلك ايفان ...
فانه ليس بمخلص ... هو رجل مزهو بنفسه ... مع ذلك ، لو كنت
فى مكانك لتركت هذا الدير واتميت منه ... هذه الصوفية يجب
اجتثاثها من الأرض الروسية ، يجب الغاؤها الغاء تاما من روسيا كلها فى
ذات يوم ، لرد الأغبياء الى العقل ، وارجعهم الى الرشاد • ما أكثر المال ،
ما أكثر الذهب الذى يمكن أن تسترده خزانة الدولة بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

— لماذا نلغينا ؟

— لماذا ؟ لنعجل انتصار الحقيقة فى هذا العالم •

- أفلا تدري اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فسيأخذون يعجرونك
تجريدا تاما ، ثم ... يزيلونك ؟

- هه ! ... على كل حال ، قد تكون مصيبا ...

قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه بيده لطمة خفيفة على حين فجأة ،
وأضاف :

- اذن فلا نمسن ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر كذلك . أما
نحن ، معشر الأذكياء ، فلنستمر ... نعيش فى رخاء ونحتسى الكونياك !
ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هو الذى لا يد أنه أراد إقامة ذلك
النظام . ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ قل لى
وأرحنى ... ولكن قف ! اننى أريد جوابا صادقا ، جواب جاد لا هازل !
لماذا تضحك من جديد ؟

- أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبّرت عنها منذ برهة تسيرا
فكها فى موضوع سمردياكوف واعتقاده بوجود ناسكين قادرين على
تحريك الجبال .

- هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هذه
النقطة ؟

- جدا .

- معنى هذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بما يتصف به
الروسي من خصائص تميزه . ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهذه
الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا . هل تريد أن أبرهن لك على ذلك
بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منذ النقد . ومع ذلك
أجبنى : أوجد اله أم لا ؟ تكلم جادا لا هازلا ، فاننى أريد أن أعرف
ذلك .

- لا ... لا يوجد اله *

- أليوشا ، هل الله موجود ؟

- الله موجود *

- سؤال آخر يا ايفان : هل هناك شيء بعد الموت ؟ هل هناك حياة

أخرى ، أية حياة أخرى ، ولو شبح حياة أخرى ، شبح صغير ، صغير جدا ؟

- لا شيء بعد الموت !

- لا شيء البتة ؟

- البتة *

- أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شيء ما رغم كل شيء ؟ ربما

وجد قليل من حياة مع ذلك ! لقليل "خير" من لا شيء ...

- لا شيء الا العدم الكامل ! صفر ... لا أكثر من ذلك !

- أليوشا ، هل هناك خلود ؟

- نعم هناك خلود *

- اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

- نعم ، يوجد اله والخلود موجود فى الاله *

- هم ... لا شك أن ايفان هو صاحب الرأى الصحيح * ومع

ذلك ما أكثر التضحيات التى ضحّاها الانسان فى سبيل هذا الاعتقاد ،

وما أكثر القوة التى أنفقها على هذا الأمل فى غير طائل ، منذ ألوف

السنين ! ... فمن ذا الذى يضحك على الانسانية هذا الضحك ، من ذا

الذى يسخر منها هذا السخر ، قل لى يا ايفان ! اتنى ألقى عليك هذا

السؤال آخر مرة ، ألقه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ أجبنى
آخر جواب ...

- أجيبك آخر جواب : لا !

- فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر المساكين ويضحك عليهم ؟
فقال ايفان ماكرًا ساخرًا :

- هو الشيطان ما فى ذلك شك •

- اذن يوجد شيطان على الأقل ؟

- لا ... لا يوجد حتى شيطان •

- خسارة ... لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك
الذى اخترع الله أول من اخترعه ... ان الشئ قليل عليه •

- لولا أن اخترع الله لما وجدت المدينة !

- المدينة ؟ لولا الله لما وجدت المدينة ؟

- لا ... ولما وجدت خمور أيضا ! أحسب أنه قد آن مع ذلك
أن تنتزع منك قارورة الكونياك هذه •

- لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيراً آخر ... لقد أسأت الى
أليوشا • ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ ألم تحقد على يا عزيزى الصغير
اليوشا ، يا بنى الطيب الشهم ؟

- لا ... لست غاضباً • أنا أعرف أفكارك • ان القلب فيك خير
من الرأس •

- قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب !
ايفان ، هل تحب أليوشا ؟

- أحبه •

- يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) • اسمع يا أليوشا • لقد أسأت الى شيخك فى هذا الصباح ، لقد أهنته ••• ولكننى كنت مهتاجاً احتياجاً شديداً • ألا ان فى قلبه شيئاً من فكر ، ما رأيك يا ايفان ؟

- صحيح •

- نعم نعم ••• ان فى داخله شيئاً من بيرون * • انه يسوعى ، أقصد أنه مجادل روسى • وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحياناً فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر والتمثيل فى هذا العالم ••• أن يصطنع مظاهر قديس ، أن يتخذ أوضاع ولى ••• - لكنه يؤمن بالله •

- هو ؟ أبداً • ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس ••• لا لجميع الناس طبعاً ••• بل للأذكاء ممن يزورونه • لقد قال جازماً قاطعاً وهو يتحدث الى الحاكم شولس : أنا أوّمن ، ولكن لا أدري بماذا •

- أهذا ممكن ؟

- نعم • وأنا أحترمه مع ذلك • انه فيه عنصراً مفستوليسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين « بطل من زماننا » ، آر بنين * ، اذا صدقت ذاكرتى ••• أقصد أنه رجل يحب اللذات ، رجل شهواتى • وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترقان له ••• فتخيل ! ••• هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصص ••• منذ ثلاث سنين دعانا الى

احتساء الشاي عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خمورا) ،
فأخذ يستحضر ذكرى مغامرات ماضيه ... فاضطررنا أن نمسك بطوتنا
حتى لا تنفجر من شدة الضحك ... ولا سيما حين حدثنا عن تلك
المرأة العاجزة التي شفاها ... لقد قالت له : « لولا أن ساقى مريضتان
هذا المرض ، لرقصت لك رقصة من تلك الرقصات ! » هه ؟ ظريفة ،
أليس كذلك ؟ وقد أسرّ الينا يومئذ قوله : « كانت لى فى حياتى مغامرات ! »
وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .
- ماذا ؟ سرقها ؟

- استودعه الرجل المبلغ أمانة لما عرف به من صلاح وفضل .
قال له : « احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيقتش فى الغد » . فاحتفظ
الآخر بالمبلغ كاملا غير منقوص . قال له : « أنت قد وهبت المبلغ لمبرات
الكنيسة » . « فقلت له أنا : « أنت وغد ... ما أنت الا وغد » ...
فقال لى : « لا ... لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة » . ولكن
لا ... لا ... لقد أخطأت ... لم يجر الحديث معه هو ... لقد
خلطت بينه وبين شخص آخر .. دون أن ألاحظ ذلك ، دون أن أشعر
بذلك ... كأساً أخرى ، كأساً أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة
الكونياك ! لقد كذبت ، لقد كذبت .. كان عليك أن توقفنى عن الكلام
يا ايفان ! لماذا لم تقل لى انى أكذب ؟

- كنت أعرف أنك ستوقف من تلقاء نفسك .
- غير صحيح ! انك تركتني أتكلم بدافع الخبث ، بدافع الخبث
وحده . انك تحقرنى ، أنا أعرف ذلك . لقد جئت تعيش معى ، ثم
أنت تعاملنى باحتقار حتى فى منزلى !

- سأرحل . اطمئن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

— لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح ، أن تذهب الى تشرماشنيا
• • • يوما أو يومين • • • ثم لم تفعل !

— سأذهب غدا ما دمت تطلع •

— لن تذهب • أنا واثق من ذلك • انك تريد أن تراقبني هنا •
تلك هي غايتك ياذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب •

أصبح العجوز لا يسيطر على نفسه • لقد وصل من نشوة الكحول
الى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم في العادة
أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يفضبوا ، وأن يظهرُوا ما هم قادرون
عليه •

— مالك تنفرس في هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما أقدرهما ! انك تنظر
الى فاقراً في نظرتك قولك : « أيها السكير الدنيء » ! آه من هاتين
العينين اللتين فيضآن شكاً وريبة واحتقارا ! • • • أنت انما جئت الى عندي
لغاية معينة في نفسك • • • ولا كذلك أليوشا • • • انه ينظر الى بعينين
تشرقان صراحة • أليوشا لا يحقرني • يا الكسى اياك أن تحب ايفان •
قال أليوشا بحزم مباغت :

— لا تقضب من أخي • أكفف عن اهاتته !

— السبب هو • • آه • • • أصبحت لا أدري • • • أنت على حق •
اف • • • ما أئد هذا الصداق الذي ألم برأسي على حين فجأة ! ارفع
هذا الكونياك يا ايفان ! هذه نالك مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا
الكونياك •

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفاته
بابتسامة مأكرة •

— لا تحقد يا ايفان على هذا المعجوز المهوس ... لا تحقد على
يا ايفان ! ... أنا أعرف أنك لا تحبني كثيرا ، وليس هناك ما يوجب
أن تحبني على كل حال ... اذهب الى تشرماشنيا ، وسألقى بك حاملاً
اليك حلوى ... وسأعرفك هناك بينت من تلك المنطقة لاحظتها منذ
زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا
المزقتات . لا تحقرهن قط ... فهن لآلىء فى كثير من الاحيان .
قال ذلك وقبّل يده قبله مدوّية ، من باب التأكيد . ثم أردف
وقد انتعش فجأة كأن اثاره موضوعة المفضل قد أوتيت القدرة على أن
تردّه الى الواقع رداً مباغتاً :

— ما أتم أيها الفتيان الا صبية ، الا خنازير صغيرة ... ها ...
أنا من جهتي لم أقبل فى حياتي أن تستطيع امرأة أن لا تحبني ...
تلکم هي مبادئى ! أأتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن
تفهموه ! ان عروقتكم ليس فيها بعد الا لبن ... انكم لم تنضجوا بعد !
ان القاعدة التى التزمها فى سلوكي هي أن فى كل امرأة شيئاً خاصاً شائقاً
لا يمكن أن يوجد فى امرأة أخرى .. وانما المهم أن يستطيع المرء
اكتشافه ... وذلك فن ... ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة
أمكن أن تكون فى نظري دمية أو باعثة على الاشتمتزاز فى يوم من
الأيام . حسبها أن تكون امرأة .. هذا وحده نصف الحب .. حتى
الموانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله
أن يتصور أن هناك انما أغنياء حمقى تركوا لهن أن يشخن دون أن
يلاحظوهن . وأول شئ يجب أن يعتمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات
الرائت الوسخات هو أن يدهشنهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوصل
اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد التشوة
والوجد ، حدّ الألم والعذاب ، حدّ الشعور بالخزي والعار من أن سيداً

أنيقاً أمكن أن يتوله حباً بدعامة كهذه الدعامة . ألا انه لشيء رائع يشحذ
العزيمة أن يعرف المرء أنه سيقى في هذا العالم الى الأبد سادةً وخدم ،
ففي هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثةٌ ما يحلو لها أن تفرح سيدها
ومولاها . تلك هي سعادة الحياة ! انتظر . . . هل تعرف يا أليوشا ؟ ان
هذا الامر يذكرني بأننى قد بعث الدهشة دائماً في نفس المرحومة أمك ،
ولكن بمعنى آخر . كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم
إذا أنا في ذات يوم ، في دقيقة من تلك الدقائق التي يتفق لى أن أعرفها ،
أسترسل فجأة في اظهار جميع أنواع العواطف ، حتى لأزحف على
ركبتى ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأثقلها في كل مرة - ما زلت أتذكر
هذا كأنه حدث بالأمس - أثقلها في كل مرة الى حالة نفسية خاصة ،
فاذا هي تأخذ تضحك . . . تأخذ تضحك ضحكة فريدة في نوعها . . .
ضحكة واهنة حادة في آن واحد ، ضحكة عصية طويلة . وكان ذلك
على كل حال هو النوع الوحيد من الضحك الذي عرفته فيها . وكنت
أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها ، فهي تأخذ في
الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبر
في الواقع عن أى فرح . ولكننى كنت أرى ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبر
أعبر عن فرح أم لم يعبر عن فرح . فهل رأيتم كيف كنت أستطيع أن
أجد في كل شيء جانباً جذاباً مجهولاً ؟ وقد اتفق في ذات يوم أن
بيليافسكى - وهو رجل متطرف غنى جداً كان يسعى اليها واستطاع
أخيراً أن يدخل بيتى - قد صفعنى على وجهى في بيتى بحضورها ! فماذا
حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التي تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن
تضربنى بسبب هذه الصفة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبنى وتقرعنى :
« سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ . . . ارتضيت أن تتلقى صفةً
من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تيعنى له . . . كيف تجراً أن يصفك

أمامي ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم هنا ... هل تسمع ؟ لا أريد أن أراك
بعد اليوم قط ... هباً اطلبه الى المبارزة .. اسرع .. أركض ..
هكذا أخذت تقول لي . أخذتها الى الدير لأهدى روعها ، وصلى
الرهبان من أجلها . ولكنني أقسم لك يا أليوشا أمام الله أنني لم ألحق
بها أذى في يوم من الايام ، لم ألحق أى أذى بصغيرتي العزيزة
الكليكوشا .. اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السنة الأولى من حياتنا ، ثم
لم يحدث شيء من هذا بعد ذلك يوماً . وكانت منذ ذلك الأوان تسرف
في الصلاة في رأيي ، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فما
تسمع لي بأن أقاربها أثناء ذلك . خطر ببالي مرة أن على أن أطرد هذه
الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : « هل ترين هذه الأيقونة ؟ هذه الأيقونة
المقدسة ؟ سأمضي اليها الآن ، فأرفعها من مكانها ... انك تعتقدين بأن
هذه الصورة تحقق معجزات .. طيب .. سأبصق عليها الآن أمامك ،
فلا يحدث لي شيء ... » يا الهى ! حين نظرت اليها عندئذ فرأيت
تعبير وجهها ، خيل لي أنها ستقتلني فوراً . ولكنها لم تزدد على أن
انتفضت ، ورفعت ذراعها في الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت
ترتس من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض ...
منهارة انهياراً تاماً ... أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيري ؟
وثب العجوز عن مقعده مروّعاً مذعوراً . كان وجه أليوشا قد بدأ
يتغير تعبيره شيئاً فشيئاً منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه . لقد احمر في
أول الامر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفاهه تخطلجان ... وكان العجوز
السكران يقذف من فمه رذاذاً من لساب أثناء كلامه دون أن يلاحظ
شيئاً ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب :
لقد صار أليوشا الى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن
الكليكوشا : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها

أبوه عنها ، وزرع ذراعيه فى الهواء ، ثم غطى وجهه يديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسية كتلة واحدة ، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز فى نوبة هستيرية تصاحبها دموع صامتة • وقد دُهِشَ المعجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذى ظهر فى تلك اللحظة بين أليوشا وأمه • فقال ينادى ايفان :

— ايفان ! ايفان ! هات ماءً ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماماً ! صبَّ عليه ماءً بالترفة ، فذلك ما كنت أفضله أنا بها • هذا بسبب أمه ،
أمه •••

— أمه ؟ يخيل الىَّ أن أمه هى أمى أيضاً ، ألا تقدّر ذلك ؟

هكذا انفجر يقول ايفان على حين فجأة ، فى سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فارتعش المعجوز حين رأى نظراته الحارقة المسعورة •

عندئذ حدث شيء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان • يبدو أن المعجوز قد نسي فعلاً أن أم أليوشا هى أم ايفان أيضاً ، فهذا هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم :

— أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أى أم تتكلم ؟ أن تكون هى حقاً ؟ ••• آه ••• لعن الله الشيطان ! نعم ••• هى أمك أيضاً ! لعن الله الشيطان ! يا لهذه الذاكرة السيئة التى لم أعرف مثلها فى حياتى ! معذرةً يا ايفان • لقد خيل الىَّ أن ••• ها ها ها ! •••

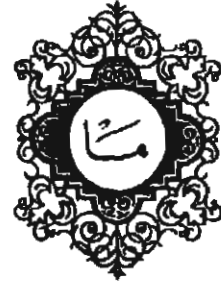
قال المعجوز ذلك ثم توقف فجأة على ابتسامة بلهاء من ابتسامات السكرين • وفى تلك اللحظة نفسها سمعت من الدهليز جلبة رهيبة ،

وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة • وانفتح الباب بما يشبه
الاعصار ، وظهر دمترى بأفلوفتش مندفعاً الى الغرفة •

ارتدى المجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جزع هائل ، وطفق
يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتى من قوة :

- سيقتلنى ، سيقتلنى •• لا تركنى •• دافع عنى •• احمنى !

السهرانيون



ان دخل دمتري بافلوفتش الغرفة حتى هرع جريجورى وسمردياكوف فى أثره • كانا قد حاولا فى الدهليز أن يمنعا بالقوة من الدخول (تنفيذا للأوامر التى أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمتري فيدوروفتش فى الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف الى أين يجب عليه أن يتجه ، انتهز جريجورى هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذى يوجد فى آخر الصالون ويقضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق • فلما رآه دمتري أطلق صرخة حادة ، بل قل زأراً زهيراً رهيباً وارتمى على الخادم الصجوز ، قائلاً :

- هى اذن هنا • خبأتوها فى الغرفة المجاورة • ابعد أيها الشقي !

أراد دمتري أن يقبض جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجئن جنون دمتري حنقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة ، وركله دمتري بقدمه ، واقتحم

الباب • أما سمردياكوف فقد ظل فى الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم •

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

- هى هنا حتماً • رأيته تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكنى لم أستطيع أن أدركها • أين هى ؟ أين هى ؟

أحدثت هذه الصرخة « هى هنا » ، أحدثت فى فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فبدد خوفه وزال جزعه وهلمه دفعة واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى :

- أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب • وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه • وسُمت فى الغرفة الثالثة ضجة سقوط شئ وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الكريستال (ليست من أئمن الزهريرات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى أثناء جريه فسقطت على الأرض وتهشمت •

أعول العجوز من جديد يقول :

- أمسكوه ! النجدة ! النجدة !

وأدركه ايفان فيدوروفتش وأليوشا فى تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة •

- بنى فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنيكا • هى هنا • رآها بنفسه تجرى نحو دارى ...

ان فيدور بافلوفتش يتشر فى الكلام • كان لا يتوقع أن تجىء
جروشنكا فى ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طائش عقله • ان جسمه
كله يرتعد • وكأنه قد فقد جميع رشده •

قال له ايفان حانها :

— أنت نفسك تعلم حق العلم أنها لم تأت •

— لعلها دخلت من الباب الآخر •

— ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه فى جييك •

وفجأة ظهر دمترى مرة أخرى فى الصالون • لقد وجد الباب
الثانى مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان فى جيب فيدور
بافلوفتش ؛ وكانت النوافذ موصدة فى جميع الحجرات من جهة أخرى ،
فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من أى مدخل ولا أن
تغادره من أى مخرج •

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

— اقبضوا عليه • لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومى !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدى ايفان ، فهجم
ثانية على دمترى • ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك المعجوز فجأة
من خصلتى شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على
الأرض فى قرقة ، واتسع وقته كذلك لأن يطرق رأس أبيه بكعب
حذاءه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق المعجوز من صدره
أنيباً حاداً • ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه
من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يعده عن الأب ؛ وعاوناه
أليوشا الضعيف على ذلك فى حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام •

صرخ ايفان يقول :

— أأنت مجنون ؟ لقد قتلته •

فصاح دمترى يقول وهو يتنفس تنفساً قوياً :

— أحسن ! لقد استحق ذلك • وإذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحول عندئذ بينى وبينه !

وقال أليوشا بلهجة قاطعة :

— اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فوراً •

— ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها • أنت الانسان الوحيد الذى أتق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة ...

— أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً لم يكن ينتظرها عدا ذلك ! ...

— ولكننى رأيتها بعينى ... اذن هى ... لن ألبث أن أعرف أين هى الآن ! ... الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لا يزوب * كلمة واحدة فى أمر المال الآن • اذهب فوراً الى كاترين ايفانوفنا • يجب أن تذهب اليها حتماً • قل لها : « انه يبلغك احترامه ، احترامه ، يبلغك احترامه مودعاً ! » • وصِفْ لها هذا المشهد ...

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ، وأجلساه على مقعد • كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس ممشياً عليه ، فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا

مختبئة فى مكان ما بالمنزل • وحين همّ دمترى فيدوروفتش أن ينصرف
رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

— لا يعذبنى ضميرى على أنتى سفحت دمك • حذار أيها العجوز!
إذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملى أنا ! أنتى ألنك وأنكرك !
قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً •

— هى هنا ، هى هنا قطعاً • سمردياكوف ، سمردياكوف !
هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يومئذ
بأصبعه الى الخادم •

فأجابه ايفان بصوت حائق يقول :
— بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز الفاقد عقله ! ها • •
ها هو ذا يُغمى عليه • هاتوا ماءً ، أسرعوا ، وهاتوا خرقة ! أسرع
يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحتضار ماء • وخلصوا عن العجوز
تيابه أخيراً ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريريه ، وأحاطوا
رأسه بخرقة مبللة • فما ان لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه
الكونيّاك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض
عينيه ونام • وعاد ايفان فيدوروفتش وألوشا الى الصالون • ولمّ
سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة • ولبت جريجورى جامداً قرب
المائدة ، مظلم الوجه ، خافض الرأس فى عناد •

قال ألوشا لجريجورى :

— يحسن بك أنت أيضاً أن تلتفح رأسك بخرقة مبللة وأن ترقد
فى فراشك • لقد ضربك أخى ضربة قوية كذلك •

قال جريجورى بصوت مبجوح بطىء :

— تجراً أن يضربنى •

فقال ايفان فيدوروفتش :

— تجراً ؟ لم • يتجراً • أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضاً !

— لقد ربيته صغيراً ، وكنت أتولى غسله بنفسى ... ثم هو يتجراً
على الآن فيضربنى ...

كذلك ردد جريجورى •

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت خافت :

— من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم يبعده عنه بالقوة • تُرى
هل ينجو أيزوب زمناً طويلاً أيضاً ؟

فهتف أليوشا يقول :

— حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه يقول خافضاً صوته :

— حمانا الله من هذا ؟ ألا فلتأكل السراطين بعضها بعضاً ! ذلك هو
المصير الذى تستحقه !

ارتعش أليوشا •

— طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة • ابق
هنا يا أليوشا • وسأخرج أنا الى الفناء استششق الهواء قليلاً ، فقد بدأت
أشعر بصداع فى رأسى •

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قراءة ساعتين ،
جالساً بين السرير والحاجز • ثم اذا بالمعجوز يفتح عينيه فجأةً ، فيطيل

النظر الى أليوشا صامتا ، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم : ثم اذا
باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

— أليوشا ، أين ايفان ؟

— فى القناء • ان به صداعاً • ولكنه مهتم بنا ساهر علينا ، ولسوف
يحمينا •

— ناولنى المرأة • هى هناك ، هل تراها ؟ ناولنيها •

مدّ اليه أليوشا المرأة الصغيرة المدوّرة ذات المسند المطوى التى
كانت موضوعة على المنضدة • نظر المعجوز فى قسّمات وجهه : كان أنفه
قد تورم تورماً شديداً ، وكانت فوق حاجبيه الأيسر بقعة حمراء تدل على
أن دماً قد نزف •

— ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بنى الطيب الشهم ، أنت وحدك ابنى !
اننى أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر • أنا لا أشعر بالطمأنينة
الا معك • ولا أخاف منك •••

— ولا تخف من ايفان أيضاً • صحيح أنه يلوم ويؤنب ، ولكنه
سيدافع عنك •

— أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنيكا ، أليس كذلك ؟
يا ملاكى الطيب ، قل لى الحقيقة كاملة : أجاأت جروشنيكا الى هنا
أم لا ؟

— لم يرها أحد هنا • تلك كذبة • انها لم تجىء •

— يريد دمتري أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها •••

— لن توافق هى على هذا !

— سترفض ، سترفض حتماً أن تتزوجه ، سوف تصده وتبذره !

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعةً واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره في تلك الدقيقة هذه الفكرة التي عبّر عنها أليوشا !

ومن فرط حماسه ، أمسك يد ابنه فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تلاّأت دموع في عينيه .

— خذ الأيقونة ، أيقونة العذراء المقدسة ، التي تكلمت عنها منذ برهة . اننى أهب لها هذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك . واننى لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير . . . لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فانتى ما أردت الا المزاح . بى صداع يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا . . . هدى روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها .
— أفى أمر جروشنكا أيضاً ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟
كذلك سأل أليوشا أباه بلهجة مرة . فقال له أبوه :

— لا . . . لا . . . سامحنى . . . اننى أصدقك . اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، أو دبّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن تضع من الوقت دقيقة واحدة . . . حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أينما تفضل ، هو أم أنا ؟ هه ؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

— سأسألها عن ذلك اذا رأيتها .

— بل الأفضل أن لا تراها . اننى أعرفها . هذه امرأة مجنونة . سوف تلعب بعقلك وتجييك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء خالعة العذار ! ما ينبئنى أن تراها . . . لا تصلح جروشنكا لمثلك !

- ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا باتيوشكا !
- قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه « اذهب اليها » ؟
- الى كاترين ايفانوفنا •
- للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟
- لا ••• ليس الأمر أمر مال •
- أنا أعلم أنه لا يملك قرشا واحدا • اسمع يا أليوشا • سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور • دعنى الآن • قد تلقاها فى طريقك ••• ولكن تعال الى غدا فى ساعة مبكرة ، تعال حتماً • هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها • هل تجيىء ؟
- أجيىء •
- تظاهر بأنك تجيىء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى • لا تذكر لأحد اني رجوتك أن تجيىء • ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة •
- سأصمت •
- الى اللقاء يا ملاكى • لقد دافعت عني ، فلن أنسى هذا أبداً ••• سأقول لك فى الغد شيئا ••• يجب أن أفكر فى هذا الشيء مزيدا من التفكير •••
- ما شعورك بصحتك الآن ؟
- سأنهض منذ الغد فأخرج • سأكون فى غدٍ قد شُفيت ، سأكون قد أبليت تماما •
- وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالسا على دكة قرب

الباب • كان ايفان بسيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم
الرصاص • أبلغه أليوشا أن العجوز قد استيقظ واسترد شعوره، وأضاف
الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل •

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتعجب :

– أليوشا ، أحب كثيراً أن أراك غدا فى الصباح •

فد'هش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألّفها فيه • وأجابه :

– سأكون غدا عند السيدة هوخلاكوفا وابنتها • ومن الجائز أيضاً

أن اذهب غداً الى كاترين ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها •

– أأنت ذاهب اذن الى كاترين ايفانوفنامع ذلك ؟ لتنقل اليها

احترامه ؟

كذلك سأله ايفان وهو يتسم على حين فجأة •

اضطرب أليوشا • وأردف ايفان يقول :

– أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل، ومن ملاحظات

أخرى سابقة • أغلب الظن أن دمترى رجاك أن تذهب اليها لتبلغها أنه

يريد ••• أنه يريد ••• أليس كذلك ؟ أقصد أنه يريد ان يقطع علاقته

بها ؟

سأله أليوشا :

– قل لى يا أخى • كيف سينتهى هذا الصراع الفظيع ، هذا النزاع

الرهيب بين دمترى وأينا ؟

– يستحيل التنبؤ بذلك • قد يسوء الأمر ، وقد يهدأ الخلاف

من تلقاء نفسه • ان هذه المرأة وحش كاسر مقترس • مهما يكن من

أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى من الدخول اليه •

– اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل تعتقد فعلاً أن من حق كل

انسان أن يعيّن ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين ما يزالون يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

– ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال في قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة • أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقّ أن يتمنى ما يناسبه ؟
– أن يتمنى موت انسان آخر ؟

– حتى الموت ، اذا دعت الحاجة • ما ينبغي للمرء أن يكذب على نفسه ••• ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن تجري الأمور على غير هذا النحو ••• أأنت تلقى على هذا السؤال بسبب فكرتي تلك عن السراطين ؟ فاسمح لي اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد أنني قادر ، مثل دمتری ، على أن أسفح دم ايزوب ، أي أن أقتله ؟ هه ؟

– ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شيء من هذا في يوم من الأيام ! ••• وحتى دمتری ، ما أظنه قادرا على أن •••
قال ايفان ساخرا :

– أشكر لك هذه الثقة على الأقل • اعلم أنني سأدافع عنه في كل ظرف • أما عن أمنيّاتي مع ذلك ، فأننى أحتفظ في هذا المجال بحريّتي • الى اللقاء • الى الغد • لا تُدِنِّي ولا تحسبني مجرماً •
كذلك أضاف وهو يتبسّم •

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط • وأحسنّ أليوشا أن أخاء قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه ، وأنه يبيّت نية من النيّات حتماً •

المرأتان كلتاهما



أليوشا من دار أبيه أند حزناً مما كان كان حين دخلها • انه يشعر باضطراب عميق في ذهنه • أفكاره تتلاحق وتبعثر بغير تسلسل ينظمها ، وبغير رابطة تصل بعضها ببعض • ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة وانعام النظر في خواطره المبللة ، مؤثراً أن لا يستخلص أية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعضبة التي عاناها في هذا النهار • ان نوعاً من القلق يحاصره ويستبد به ويوشك أن يكون يأساً • وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل • هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الأخرى وتلاحقه وترهق قلبه كأنها الجبل ثقلًا : ما عسى يصير إليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه يعرف خطورة هذه المشكلة الآن ، بعد أن شهد الدراما ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر • وأحق الناس بالرتاء على كل حال انما هو دمترى ، لأن شقاءه يبدو رهيباً ولأن بلاءه يبدو مستعصياً لا دواء له ولا برء منه : ان الكارثة تتربص به • وهناك أشخاص آخرون لهم فيها أدوار أضخم كثيراً مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين • هذا كله يحدث في نفس أليوشا احساساً مضطرباً ويشعره بأنه أمام لغز لا يفهم • من ذلك مثلاً أن أخاه ايفان قد

خطا الخطوة الأولى نحوه متقرباً منه متودداً اليه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فإن ملاطفات أخيه هذه قد بثت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضاً ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهباً الى كاترين ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فإنه قد ملأته تلك الزيارة اضطراباً . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فإنه ماض إليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستمجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن تنقذه من قلقه ا على أن المهمة التي كلف بها تبدو له الآن أصعب وأشق : لقد عدل دمترى عدولا نهائياً عن ردّ الثلاثة آلاف روبل . هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل . فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترين ايفانوفنا المشهد الذى جرى فى دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى أمام مسكن كاترين ايفانوفنا التى تشغل فى « الشارع الكبير » منزلاً واسعاً فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترين ايفانوفنا تعيش فى هذا المنزل فى صحبة قريبتين لها . فأما أولاهما فلا تمت إليها بقرىبى الا من جهة أختها آجاتى ايفانوفنا ، وهى بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيبة التى عُنيت مع آجاتى تلك العناية كلها بكاترين بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهى سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترين ايفانوفنا فى كل شئ ، ولا يعيشان قريبا الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترين ايفانوفنا فهى لا تطيع الا الجترالة المحسنة إليها ، التى لبثت فى موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتى كان على كاترين أن تكتب إليها مرتين فى الأسبوع لتعلمها على تفاصيل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كن يبدو أن أهل الدار الجالسين فى الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) • فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب ، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغرفة • استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب • ومع ذلك أدخل الصالون فوراً بدون انتظار • هى غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء • دواوين وصوفات وكسبات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة فى كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب إحدى النوافذ • والغرفة مظلمة قليلاً فى هذا الوقت من الفسق • ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن أحداً كان جالساً عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورثيا وآنية أخرى فيها سكاكر • لاشك اذن فى أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوفهم • فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل أثناء زيارة شعر بحرج كبير • ولكن الستارة أزيحت فى تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترين ايفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلت ، مائة الى أليوشا يديهما كلتيهما ، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبتهجة • وسرعان ما دخلت فى اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة •

— الحمد لله ! هأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طول الوقت أضرع الى الله أن تجيء • اجلس من فضلك !

ان جمال كاترين ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه

أخوه دمتري إليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به لأنها أحببت كثيراً أن تعرفه • ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيراً على كل حال • ذلك أن كاترين أيفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته في تلك المرة فلم تنجبه بكلامها إلا إلى دمتري ، وصمت أليوشا طوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصره ما رآه فيها من مظهر الإرادة المستلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء • كانت هذه السمات في طبيعتها واضحة ، وأحسن أليوشا أنه لم يضحكها ولا بالغ في تصورها • وقد أعجب أشد الإعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تسقان امتساقاً تاماً مع لونهما الشاحب الذي تشبه صفرتة صفرة العاج قليلاً ، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة • ومع ذلك كان في عينيها ، كما كان في رسم شفيتها الرائع ، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامعاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو أنه يوقظ في النفس حباً باقياً مستمراً • ولقد أعرب أليوشا لأخيه دمتري عن شعوره هذا صراحةً بدون لف ولا دوران ، حين أصرّ دمتري ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفي عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع إليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيئته • لقد قال له أليوشا يومئذ :

— سوف تكون سعيداً معها ••• ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة •

— هذه هي الحقيقة يا أخي ! إن النساء اللواتي هن من هذا النوع لا يتغيرن أبداً ، ولا يدعنّ للقدر • أأنت تعتقد إذن أنني لن أحبها إلى الأبد ؟

— بلى ••• ربما أحببتها إلى الأبد ، ولكن من الجائز أن لا تسعد معها دائماً •

أفصح أليوشا عن هذا الرأى وهو يحمر استياءً فى قرارة نفسه ،
من رضوخه للاحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار « حمقاء » كهذه
الأفكار . ذلك أن رأيه قد بدا له غيباً غيباً رهيباً منذ عبّر عنه . ثم انه
قد شعر بخزى شديد من جزمه فى الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ؛ وقد
ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترين
ايفانوفنا التى هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد خُدع عن حقيقتها
فى المرة الماضية وأنه قد أخطأ فى الحكم عليها خطأ فاحشاً . لقد كان
وجهها فى تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت
قسمات وجهها تعبّر عن صراحة ملتفة حارة . ولم يبق من « الكبرياء
والخيلاء » اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وجسارة
سامية ، وكذلك تعبير عن ايمان بنفسها قوى واضح مضى . وأدرك
أليوشا دفعةً واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التى نطقت بها،
أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المنسدف كله لم تكن
خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شئ منذ الآن ، بكل شئ
اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ، وكان يشع منها كل
هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب فى حقها ، كأنما
هو أساء اليها اساءة كبيرة ، وأهانها اهانة شديدة ، عن عمد . لقد غلب
أليوشا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التى قالتها ، أنها فى
حالة اضطراب نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفاً لها أو معهوداً فيها ، وهو
اضطراب يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترين ايفانوفنا :

— انتظرتك نافذة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن
أعرف منه الحقيقة كلها . . . أنت الانسان الوحيد الذى سيذكر لى
الحقيقة كلها ! . . .

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره واختلطت على حين فجأة :

- أنا جئت .. أنا جئت .. موفداً منه !

- آ ... أهو الذى أرسلك اذن ؟ لقد أوجست ذلك . الآن فهمت

كل شيء ، كل شيء !

بهذا هتفت كاترين ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت

كلامها تقول :

- لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اتنى أحرص على أن أشرح لك

أولاً لماذا انتظرتك فارغة الصبر . وسترى اتنى ربما كنت أعلم من

الأمر أكثر مما تفترض اتنى أعلم ، وأكثر كثيراً مما أنت تعلم . فلن

أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتد عليك فى شيء آخر : اتنى أريد

أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه

فى الآونة الأخيرة . اتنى أحرص على أن نذكر بصراحة تامة ، دون أية

مداواة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمتم الخشونة (بأكبر خشونة

تريدها) أن تذكر لى رأيك فى حالة أخيك الآن بعد لقاءك معه اليوم .

فلعل ذلك خير من أن أمضى أفتاحه أنا فى الأمر ، لأنه أصبح لا يريد أن

يرانى . هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى المهمة التى عهد

إليك بها ، ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها الى (كنت أثنياً بأنه

سيرسلك) . تكلم بلا تردد . قل كل شيء ، ولا تخش أن تسيء الى ! ..

- لقد كلفنى بأن ... أنقل إليك احترامه ... وأن أقول لك انه

لن يجىء بعد اليوم ... وأن احترامه ...

- احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

- نعم !

- لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك ،
ودون أن يلح أيضاً ، لأنه لم يجد كلمةً أخرى ؟
- بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة « الاحترام » هذه ،
حتى لقد ألح عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها .
تخضب وجهه كثرين ايقانوفنا بحمرة شديدة . وقالت :

- ساعدني الآن يا ألكسى فيدوروفتش ، أنا فى حاجة الى
مساعدتك . سأنتج لك أعماق فكرى ، وستقتصر أنت على أن تقول لى
هل تعد رأى صحيحاً أم لا ؟ اصنع الى جيداً . لو كان قد كلفك عرضاً
ومصادفةً بأن تبلغنى « احترامه » دون أن يلح على هذه الكلمة إلحاحاً
خاصاً ، فإن كل شىء يكون قد قيل ويكون الأمر فى هذه الحالة قد
انتهى ! أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة إلحاحاً خاصاً ، وأنه رجاك
صراحة أن تستعمل تعبير « الاحترام » هذا ، فمعنى ذلك أنه كان فى حالة
اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجاً عن طوره ! لقد اتخذ قراراً ،
ولكن قراره نفسه يثبت الجزع فى نفسه ! انه لم يتركنى بخطى حازمة ،
وانما هو أسرع يسقط فى هاوية . ان اصراره على استعمال هذه الكلمة
لا يمكن أن يُفسّر الا بأنه تبجح وتحد

فقال أليوشا مؤيداً :

- هو كذلك ، هو كذلك تماماً . وهذا هو شعورى الآن أيضاً .
- فإذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعل
يدفع اليه اليأس . ولكننى أستطيع أن أثقده رغم كل شىء . لحظة ! ألم
يكلمك فى موضوع مال ، فى موضوع ثلاثة الاف روبل ؟
- طبعاً حدثنى فى هذا الموضوع بل ان هذا هو مايرهقه

أكثر من أى شيء آخر رغم أن شرفه قد تلمنح ، وقال ان جميع الأمور
تستوى لديه بعد الآن ، فلن يعبأ بشيء .

كذلك قال أليوشا بحرارة ، لأنه فى تلك اللحظة أحسّ بالأمل
يملاً قلبه ، وحدث نفسه بقوله : ربما كان هنالك مخرج لأخيه فعلاً ،
ربما كان هنالك سبيل الى خلاص أخيه . ثم أضاف يقول وهو يضطرب
على حين فجأة :

— أأنت اذن على علم... بما حدث لذلك المبلغ ؟

— أنا على علم بما حدث له ، منذ زمن طويل . اننى أعرف كل
شيء . لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت
أن عرفت الحقيقة . انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أجدته فى الأمر .
حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال . ولم يكن
لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن
يتجه اليه ويعتمد عليه فى مثل هذا الحالة ، هو أن يعرف أننى خير
صديق له فى هذه اللحظة ! ولكن لا... انه لا يؤمن بصداقتى . لم
أخطر بباله فى هذا الطرف . هو لا يرى فى المرأة . ان هناك سؤالا
يعذبنى منذ ثمانية أيام : ما الذى يجب على أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى
بالخزي والعار من أنه أتلف تلك الثلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق
فهمى : فليشعر بالخيال أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغى له
أن يشعر بالخيال تجاهى ! هل يخيال أمام الله من الاقضاء اليه بأموره ،
والاعتراف له بسرّه ؟ فلماذا يخيال منى ؟ لماذا لا يعرف ما أنا قادرة
على احتماله فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلنى هذا الجهل كله ؟ كيف
يجرؤ أن يجهلنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اننى أريد أن أنقذه الى الأبد .
فليس أننى خطيئته ، ليس أن لى هذه الصفة ، ولكن ماينبغى له أن يخشى

أن يفتح قلبه لى ، وأن يثق بى ، وأن يطمئن الىّ فى مسألة كمسألة الأمانة
هذه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيدوروفتش ؟
فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

حين نطقت كاترين ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، ضعف صوتها
فجأة ، واببجست الدموع من عينيها •
قال أليوشا بصوت متهدج أيضا :

- علىّ أن أروى لك ما وقع فى منزل أبى منذ قليل •
وقصّ عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلّفه بأن يطلب له
مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الفرقة على حين فجأة •
وصف لها كيف أساء أخوه معاملة أبيه ، وذكر لها أن أخاه قد ألح عليه ،
بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجيء اليها ليلتها « احترامه » •
وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

- ثم ذهب الى تلك المرأة •
- أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة فى حياته ؟
أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟

ألقت كاترين ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضحك
ضحكاً عصياً :

- ولكنه لن يتزوجها • هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن
يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً • ثم
انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه •

كذلك رددت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك تلك الضحكة الغريبة
نفسها •

فقال أليوشا فى حزن وهو ينفذ بصره :

- من الجائز جدا أن يتزوجها •

- قلت لك انه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت

تعرف ذلك ؟ لا ؟ فاعلم الآن اذن •

كذلك هتفت كاترين ايفانوفنا بحرارة وحماسة قوية • وتابعت

تقول :

- هى أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء فى حياته ! أنا أعرف مدى

ما تتصف به من فتية واغبراء ، ولكننى أعرف أيضا طيبتها وشهامتها

ونبلها • لماذا تنظر الى هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لعل كلمتى

تدهشك ؟ أغلب ظنى أنك لا تصدقنى ، أليس كذلك ؟ يا أجرافين

الكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادى كاترين ايفانوفنا وهى تنظر الى

الغرفة المجاورة) ، تعالى إلينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا • هو على علم

بكل ما يتصل بنا • تعالى •

فأجاب صوت نسوى لطيف أو متلطف :

- انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التى تاديننى فيها •

وأزيحت الستارة فاذا ••• بجروشنكا نفسها تظهر • اقتربت من

المائدة ضاحكة وقد بدت فى وجهها سعادة • أحس أليوشا فى اللحظة

الأولى أنه يوشك أن ينهار • حدث الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون

أن يستطيع تحويل عينيه عنها • أهذه هى اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه

هى اذن ذلك • الوحش المقرس الكاسر ، على حد التعبير الذى أقلت من

أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة

عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بكثير

من النساء الحسنات اللواتي لا يُحسبن « خارقات » • والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا ••• لها ذلك الجمال الروسى الذى قد يوقظ فى بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً • هى طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترين ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلويحاتها وانعطافاتها بنفس الليونة والرقّة والرخاوة التى تظهر فى تننيات صوتها • اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترين ايفانوفنا • انها تمشى بلا جلبة ولا ضوضاء • وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريرى الأسود الفاخر شيء من عنوبة ورقة فى السمع أيضا • وكان يلتف على جيدها الناصع البياض كالثلج ، وعلى كتفيها العريضين ، شلّ ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً فيه كثير من رهاقة الذوق • انها فى الثانية والعشرين من عمرها • وان فسمات وجهها تدل على أنها فى هذه السن تماما • لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردًا خفيفا عند الوجنتين ، وفكها الأسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة جدا على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمكت من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة قليلا • ولكن شعرها الكستناوى الفزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخملين ، وعينيها الزرقاوين الشهاباوين القاتنين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجتذب اليه أقل الرجال اكتراء ، وأشدّهم ذهولا ، وخليق بأن يجعل مثل هذا الرجل ، ولو فى وسط جمهور مضطرب متدافع أو فى زحمة الشوارع الكبرى المكتظة بالمارة ، أن يتوقف لحظة أمام هذا الوجه وأن يتأمل ملامحه ملياً • وقد أخذ ألبوشا خاصة بما فى هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة • ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول • ولقد تقدمت من المائدة فى الواقع « متهللة » الأسارير ، كأنها تنتظر حادثاً

وشيكاً ، متعجلة حدوثه نافذة الصبر مطمئنة النفس كطفل • وكان في نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء أحسن به أليوشا واضحاً قويا • وكان يشع منها شيء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جلياً في تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيراً لاشعورياً ، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة في حركات جسمها وفي ليوتتها ورشاقتها الصامتة • ومع ذلك كانت قوية الجسم نامية الأعضاء • ان كتفها المريضين يرتسمان تحت شالها ؛ ومن ينظر إليها يدرك أن لها صدرأً كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة • ان جسدها يعد بأن يكتسب مع تقدمها في النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، رغم أن نسبته مفرطة قليلاً منذ الآن • على أنها لو رآها خير في جمال المرأة الروسية لتباً بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية في جسدها ستضمحل في نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستقل وستسمن ، وأن عضلات وجهها ستترهل عندئذ ، وأن غضونها ستظهر عند عينيها وعلى جبينها في وقت مبكر ، وأن لونها سيحول ، وقد يصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال الذي يلاحظ كثيراً لدى النساء الروسيات • ان أليوشا لم يسترسل في أفكار من هذا النوع طبعاً ، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساساً غامضاً بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجر هذه المرأة كلامها جرأً ، ولا تطلق صوتها في الحديث على سجيته طبيعياً بنير تكلف ؟ ان المرء ليشعر أنها تحسب الرشاقة والأناقة والجاذبية في هذه الطريقة في تلوين ألفاظها بنبرات الغناء وتحليتها بما يشبه السكر • والحق أن تلك عادة رديئة تدل على وضاعة أصلها وعلى الأفكار العامة التي تكونت في ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية • وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطابق بين هذا النطق المتصنع والتنظيم المقتل وبين ما يظهر في وجهها من تعبير عن الفرح البريء والابتهاج الساذج وما يشع في نظرتها

الوديمة وداعةَ نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة • وقد قامت كاترين
ايفانوفنا بتقيل جروشنكا على شفتيها عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى
لكأنها هائمة بها غراماً ...

قالت كاترين ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

- اتنا نلتقى اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش • كنت أتمنى
أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت فى أن أزورها ، ولكنها جاءتني من
تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتي • وكنت على ثقة سلفاً بأنني سأستطيع
التفاهم معها على كل شيء ، تفاهماً تاماً • قلبي أدرك ذلك وحدثني به •
وقد حاولوا أن يصدوني عن القيام بهذا المسعى وأن يشنوني عن انفاذ
هذه النية ، ولكنني كنت أتبناً بالنتيجة الموفقة السعيدة ، فلم يخطيء ظني
ولا خاب فألى • لقد شرحت لى جروشنكا كل شيء ، وأطلعتني على جميع
ما عقدت النية عليه • جاءتني الى هنا تحمل الى السلام والفرح ، كملاك
طيب ...

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطيء ، وهي تبسم تلك الابتسامة
الباشة السعيدة نفسها :

- الفضل لك يا آنستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتي
ولم تحقرها •

- كيف تستطيعين أن تقولى مثل هذه الأشياء ، أيتها الساحرة !
أأحقر صحبتك أنت ؟ دعيني أقبل هذه الشفة السفلى مرة أخرى •
لأنها متورمة قليلاً ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة ... هات قبلةً أخرى
... وقبلةً أخرى أيضاً ... انظر إليها كيف تضحك يا ألكسى
فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يرى •



جروشنكا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورسناكوفا

- أنت تدليني يا أمستى اللطيفة ، مع أنتى قد لا أستحق ملاطفاتك
ومداعباتك •

- أنت ؟ دعيك من هذا الكلام ! تدعى أنها لا تستحقها •
كذلك صاحت كاترين ايغانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ،
ثم أردفت :

- اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال ، متسلطة
القلب ، ولكنها ذات كبرياء وكرامة • هى نيسة الروح يا ألكسى
فيدوروفتش ، سامية النفس كريمة الطبع ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت
شقية عاترة الحظ • لقد تعجلت فأرادت أن تضحى بكل شيء فى سبيل
رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقل • كان ضابطا هو أيضا •
أحبته ووهبت له كل شيء • حدث ذلك منذ زمن طويل ، منذ خمس
سنين • ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج • وقد توفيت امرأته فهو الآن
أرمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها • اعلم يا ألكسى فيدوروفتش
أن هذا هو الرجل الوحيد الذى أحبته فعلا وما تزال تحبه • وسيجيء
وستعود الى جروشكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعب منذ
خمس سنين • من ذا الذى يجرو أن يلومها ، من ذا الذى يستطيع أن
يتباهى بأنه حظى منها بشيء ؟ هو ذلك المعجوز وحده - التاجر - ولكنه
كان لها أباً ، كان لها صديقا ، كان لها حارساً • وجدها فريسة اليأس ،
قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله • • •
وقد فكرت فى أن ترمى بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأقنضها ذلك
المعجوز ، أقنضها •

عادت جروشكا تقول بصوتها المتباطئ :

- أنت تدافعين عنى بحرارة فيها غلو يا أمستى العزيزة ، ولعلك
فى هذا تسرفين فى التسجل •

- أنا أَدافع عنك ؟ هل علينا نحن أن ندافع عنك في حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن نجرؤ على ذلك أصلاً ؟ جروشكا ، ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! أنظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، أنظر الى هذه اليد اللذيذة السمينة ! انظر إليها ! لقد حملت الى السعادة ، لقد ردتى الى الحياة • سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا • • هكذا ، وهكذا ، ومرة أخرى ! • • •

قبلت كاترين ايفانوفنا يد جروشكا ثلاث مرات فصلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً • • • قبلت تلك اليد اللذيذة حقاً ، وان تكن مسرفة فى السمنة • وكانت جروشكا قد مدت إليها ذراعها ، وأخذت تلاحظ « الآمنة اللطيفة » ، مقتبطة اغتباطا واضح بتقبلها على هذا النحو • قال أليوشا لنفسه سراً : « لعلها تسرف فى الحماسة » ، واحمر وجهه • ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلب أليوشا طوال ذلك الوقت •

قالت جروشكا :

- لا تخجلنى يا آنستى اللطيفة بتقبل يدى هذا الثقيل أمام ألكسى فيدوروفتش •

فأجابت كاترين ايفانوفنا مدهوشة بمض الدهشة :

- أنا خطر ببالي أن أخجلك ؟ آه • • • يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

- وأنت أيضاً تسيئين فهمى فيما يخيّل الى يا آنستى اللطيفة • أنا قد أكون أخبت كثيراً مما تقدرين • ان لى قلباً شريفاً ذا نزوات • لقد اجتذبت دمتري فيدوروفتش الى منزلى لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزى به •

— ما قيمة هذا ما دمت مستقذيه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً
... متردنه الى الصواب ... مستولين له انك تحبين رجلاً آخر ، منذ
زمن طويل ، وان هذا الرجل سيتزوجك الآن .
— آه .. كلا ... أنا لم أقطع لك على نفسى هذا العهد . أنت قلت
لى هذا الكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشيء .

قالت كاترين ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة
خفيفة :

— أنا لم أفهم الأمر على هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت ...
— كلا يا ملاكى ، كلا يا آمستى ، أنا لم أعدك بشيء البتة .
كذلك قالت جروشنكا بصوت متساوٍ هادئ ، وما تزال تبدو عليها
هيئة السعادة والبراعة تلك . ثم أضافت تقول :

— فهأت ذى ترين الآن ، يا آمستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه
سلوكى معك من خبث ونزوة . أنا أفعل ما يخطر ببالى ، أنا أفعل
ما يبرق فى رأسمى . قد أكون وعدتك بشيء منذ قليل ، ولكننى فى هذه
اللحظة أقول لنفسى : « فماذا لو أعجبنى من جديد ميتا هذا ؟ » ؛ ذلك
أنه قد أعجبنى مرة فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها !
وربما شعرت بأننى قادرة على أن أذهب اليه لأقول له : تعال اسكن فى
منزلى نهائياً منذ الآن ... هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال ...

قالت كاترين ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

— كنت منذ لحظات تتكلمين ... بطريقة أخرى مختلفة كل
الاختلاف ...

— منذ لحظات ؟ ربما ... ولكن لى قلباً حنوناً غيباً ... فحين

أتصور كل ما قاساه من آلام بسببي .. ثم ماذا لو أخذتني به شفقة على
حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟
- لم أكن أتوقع أن ...

... أوه .. آنستى العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الى ؟
لا شك أنك متكفين عن حبي الآن ، أنال الحمقاء الغيبة ، بسبب سوء
طبعي . هاتني يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت لها ذلك راجية
ضارعة بصوت رقيق ناعم ، ثم أمسكت يدها بنوع من الحماسة والحرارة) .
لقد قبلتني ثلاث مرات فيجب عليّ أن أقبلك ألف مرة لأرد اليك دينك
عليّ . ولندع الأمور على ما هي عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى الله ! من
يدري ؟ قد أنتهى الى الخضوع لارادتك خضوعا أعمى ، فأقبل كل
ما تأمرينني به . لندع الأمور تجري على مشيئة الله ! فلا تقطع على أنفسنا
عهودا ، ولا نقيّد أنفسنا بوعود ! ما أجمل يدك ! أوه ما أجملها يداً
فاتنة أخاذة ! آنستى اللطيفة ، انك جميلة جداً لا يتصوره الخيال ..
قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترين ايقانوفنا الى شفقتها ، على
تلك النية الغريبة حقاً ، وهى أن « ترد اليها دينها عليها » . لم تعارض
كاترين ايقانوفنا . كانت قد أصغت الى الوعد الذى وعدتها به
جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع لارادتها خضوعاً أعمى ، أقول كانت
قد أصغت الى ذلك الوعد مؤتملة خجلى ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو
خاص . وهى تحديق الآن الى عينيها اللتين ماتزالان تعبّران عن تلك البرادة
نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها ...
وحدثت كاترين ايقانوفنا نفسها قائلة بسرعة : « لعلها ساذجة مسرفة فى
السذاجة » ، وعاد الأمل يشرق فى قلب كاترين ايقانوفنا . وفى أثناء
ذلك الوقت كانت جروشنكا التى تبدو نشوى أمام « اليد الصغيرة
اللذيذة » ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء . ولكنها بعد أن

وضعتها على شفتيها ، لبثت بضغ لحظات لا تقبلها ، وكأنها تفكر فى
شئ ما ، ثم قالت فجأة وهى تجر كلماتها بطيئة وتسكب فيها أرق الشيات
وأطرى الترجحات العذبة :

– هل تعلمين يا ملاكى ؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبل يدك
الصغيرة •

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة •
قالت لها كاترين ايفانوفنا وهى ترتعش :
– كما تشائين ولكن ماذا بك ؟
– لا شئ • عيشى بعد اليوم مع ذكرى تقيلك يدى ورفضى تقيل
يدك !

– وقحة !
بهذا قذفتها كاترين ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً فى هذه اللحظة
فقط •

لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة حتى صار كالأرجوان ، ونهضت
عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع •
– بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدى أما أنا فرفضت أن أفعل •
– شقية ! اخرجى من هنا !

– يا آمنة ؟ ألا تستحين أن تتكلمى على هذا النحو ؟ ألا تعلمين
أنه لا يليق بك أن تستعملى مثل هذه الألفاظ يا آمنىة العزيرة ؟
زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :
– اخرجى من هنا أيتها المخلوقة التى تبغ نفسها بالمال •

- ها ها ! تبع نفسها بالمال ؟ أنسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء ،
كنت تذهبين فى الظلام الى منازل شباب لتحصلى على مال ؟ أما ذهبت تيمين
جمالك ؟ تقى انتى على علم بهذا الأمر ! ...

صرخت كاترين ايفانوفنا صرخة قوية ، وانقضت عليها ، ولكن
الكسى فيدوروفتش أمسكها بكل ما أوتى من قوة فأملا لها :

- اياك أن تقولى كلمة واحدة ! لا تجيبها بشيء ، لا تنطقى بحرف ،
سوف تتصرف ، سوف تمضى فورا .

سمعت قريبتا كاترين ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الفرقة وتبعتهما
الخدام ، وأحطن بها جميعا .

قالت جروشكا وهى ترفع شالها عن الديوان :

- أنا ذاهبة ! أنا ذاهبة ! أليوشا ، حبيبى ، رافقنى !

فقال لها أليوشا متوسلاً متضرعاً ضاماً يديه احدهما الى الأخرى :

- اذهبى ، اذهبى ، ناشدتك الله ...

- صغيرى العزيز أليوشكا ، رافقنى ! سأقول لك أثناء الطريق شيئاً

يسرك ، يسرك كثيراً ... من أجلك أنت يا ملاكى انما مثلت هذه

المهزلة . رافقنى ، يا طائرئ الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت ...

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه . وخرجت جروشكا راكضة

وهى تضحك ملء حلقها .

وأصيبت كاترين ايفانوفنا بعد انصراف جروشكا بتوبة عسوية

عنيفة ، فأخذت تبكى متعجبة ، وأخذت تخلقها تشنجات قوية . ومن حولها

كان الجميع يتحركون ويضطربون .

قالت لها كبرى قريبتها :

— لقد حذرتك .. أردت أن أمنحك من الاحترام على هذه الخطوة
... أنت مسرفة في الاندفاع ... كيف أمكنتك أن تقرري القيام بهذا
المسعى ؟ كان ذلك طيشاً وجنونا ! أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ،
وهذه أخبهن طراً ، وأسوأهن كافة ، فيما يؤكد الناس ! ... انت
مسرفة في التثبث برأيك والاصرار على انفاذ ارادتك ! قلت لك ذلك ..
زأرت كاترين ايفانوفنا تقول :

— انها نمره ! لماذا صددتني عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد أردت
أن أضربها ، أن أضربها ...

أصبحت كاترين ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا ،
ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها وتملك زمام نفسها .
— انها لا تستحق الا الجلد بالسياط . يجب أن يجلد بها جلاد على
رموس الأشهاد !

اتجه أليوشا نحو الباب .

وهتفت كاترين ايفانوفنا تقول فجأة :

— آه ... يارب ! وهو ! هو أيضاً ! لم يخجل أن يكون حقيراً
الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصَّ على هذه المخلوقة ما جرى
فى ذلك اليوم المشؤم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد . « أما ذهبت
تبعين جمالك يا آنستى العزيزة ! » . هي تعلم اذن . ان أخاك وغد دنى .
يا ألكسى فيدوروفتش !

ودَّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه . كان قلبه ينهصر
ألم .

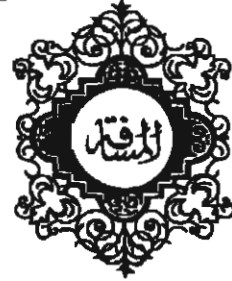
— اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! انتى أشعر بالعار ، أشعر بالعار شعورا رهيا ! عُدْ غدا ... أضرع اليك جايّة أن تجيئنى غدا • لا تؤاخذنى ، لا تحقد علىّ ، سامحنى ، اغفر لى • أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالترنح ترنحاً • كان يود لو يبكى مثلها • وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له :

— نسيت الآنسة أن تودعك هذه الكلمة للسيدة هوخلاكوفا • لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء من أجل أن تنقلها اليها •

تناول أليوشا الطرف الوردى الصغير ، ودمسه فى جيبه دون أن يوليه انتباها •

أخرى تعرض نفسها للفتنة



بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ
واحد • كان أليوشا يسير بخطى سريعة على
الطريق الخالي في تلك الساعة • لقد هبط الليل
تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة
على بعد ثلاثين مترا • وفي منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز
تقاطع دروب • فيها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة مزهرة عند ذلك
التقاطع ، فما ان يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما
عليه قائلا له بصوت صاروخ مروّع :

— مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

— كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال متری فيدوروفتش وهو يضحك :

— هاهاها ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلت أين
عساي أستطيع أن أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث

طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها؛ وبذلك قد يفوتني أن ألقاك . فقررت أخيراً أن أربط هنا قاتلاً لنفسى انك لا بد أن تمر بهذا المكان ، إذ ليس هناك طريق آخر يؤدي إلى الدير . طيب ... قل لي الحقيقة الآن ، إسحقني كما تسحق حشرة خيشة . . ولكن ماذا بك ؟

— لا شيء يا أخى . . هو الخوف وحده . آه يا دمتري ، يادمتري ! دم أبينا الذى سَفَح منذ قليل . . (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكي . كان يود لو يبكي منذ مدة طويلة ، وبها هو ذا شيء ينفجر في نفسه في تلك اللحظة) . . . لقد أوشكت أن تقتله . . وقد لعنته . . ثم هانت ذا الآن تمزح . . وتفكه . . قاتلاً : مالك أو حياتك ! .

— آ . . هذا هو الأمر إذن ؟ لعل فعلتى لم تكن لاقية ؟ يخيل إلى أن موقفى لا يتفق والظرف القائم ، أليس كذلك ؟

— لا . . ليس هذا ما أردت أن أقوله .

— لحظة يا أخى . انظر من حولك . الظلام دامس ، أليس كذلك؟ والغيوم تغطي السماء ، والرياح قد هبت ، وهى ريح متأوهة حزينة . لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك . . . فإذا أنا أقول لنفسى فجأة (هيه . . نعم . .) : « قيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة . . ومعلك منديل وعليك قميص . . فلا شيء أسهل من أن تصنع منهما جبلاً ببلّ القميص قليلاً ، ثم تكف عن ازعاج الآخرين ، ولا تدنس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ودناءة وجودك ! ، ، وفي تلك اللحظة بعينها ، فى تلك اللحظة التى خطرت لى فيها هذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت في رأسى عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسى : « هناك إذن انسان أحبه أنا أيضاً . وهذا

هو ذلك الانسان ، هذا هو الانسان الذى أحبه ، هذا هو ، انه أخى الصغير الذى أعبدته أكثر من أى شىء فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقاً ! » وشعرت بحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أنتى وددت لو أرتقى عليك معاقاً . غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ . قلت لنفسى : « سأخيفه قليلاً لأسلّيه وأضحكه » . لذلك صرخت أقول كفى : « مالك أو حياتك ! » فاعفر لى هذه المزاحاة المحمقاء البلهاء ، لقد فعلتها دون تفكير ... أما عن حالتي النفسية فهى على ما يرام ... تستطيع أن تصدقنى ! بثت هذه الأفكار كلها على كل حال ! الأخرى أن تقول لى أنت الآن : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هياً اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل غضبت ؟ هل طاش صوابها ؟

- لا ... ليس هذا هو الأمر .. كان هناك شىء آخر يا ميتيا ...
كان هناك .. لقد وجدتهما كلتيهما هناك ...

- كلتيهما ؟ من هما ؟

- كانت جروشنيكا عند كاترين ايفانوفنا ..

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولاً . ثم صرخ يقول :

- مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنيكا عندها ؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترين ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيلاً . دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحاً وضوحاً تاماً ، ومتسقاً اتساقاً كاملاً . لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائع الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، والبوادر الحاسمة التى تمت ، مستعينا

على ايضاحها بمشاعره الخاصة التى وصفها وصفا حياً ، مركّزاً فى بعض الأحيان على هذا الأمر أو ذاك من الأمور البارزة .

أصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جموداً مربعاً .
وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التى قالها ، أن أخاه قد فهم كل شئ .
منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكاً صحيحاً . كان تعبير وجهه ،
كلما أوغل أليوشا فى سرد القصة ، يزداد تعجباً وعبوساً ، حتى ليفصح
عن معانى التهديد . . فحاجباه يقطبان ، وأماناته تكز ، وجمود نظرته
يتفاقم مزيدا من التفافم ، ويصبح مخيفاً مروّعاً . . ولكن ما كان أشد
دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذى كان حتى ذلك الحين متوحشاً
مفترساً مهدّداً ، يتغير على حين فجأة تغيراً عجبياً محيراً . فقد انفرجت
شفته بفتة ، وانفجر يضحك مقهقهةً قهقهة عريضة لا تغالب ولا تقاوم ،
حتى أصبح جسمه يتلوى تلويّاً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال
مدة طويلة لا يستطيع أن يتوقف عن القهقهة ولا يستطيع أن يقول كلمة .
ثم صاح يقول بنوع من الحماسة المرضية التى كان يمكن أن تكون وقحة
خالعة العذار لولا أنها عفوية منطلقة على سجيّتها :

— اذن لم تقبل يدها . . هاها . . رفضت أن تقبل يدها وانصرفت
بكل بساطة . . هاها . . والأخرى زارت تقول عنها انها نمرّة ؟ حقاً انها
لنمرّة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رموس الأشرار ؟
طبعاً . . أنا أيضاً أرى هذا الرأى . . انها تستحق ذلك . . تستحقه منذ
زمن طويل . . هاها . . أنا لا أعارض أيها الأخ أن تُنزل فيها هذه
العقوبة ، ولكن يجب أن أشفى أولاً . . انتى أفهمها هذه الملكة من ملكات
الوقاحة ! ان هذه الحركة منها تصوّرها أحسن تصوير ، وتصفها أصدق
وصف . ان رفضها تقبيل اليد يعبر عن حقيقتها ، انه هى بعينها ، هذه
البت الجهنمية ! انها ملكة جميع الأعمال الشيطانية التى يمكن أن تخرّج

من جوف جهنم ! انها فى نوعها لا تضارّع ، انها فى نوعها مدهشة ! اذن
لقد هربت وعادت الى منزلها .. هاها .. سأذهب اليها ، هه ؟ .. يجب
أن أراها ! لا تُدنى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل
عليها ...

قال أليوشا فى حزن :

- وكاترين ايفانوفنا ؟

- اننى أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها
كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات
الأربع أو قل القارات الخمس ! ما هذه الفكرة التى راودتها ! أن تلقى
جروشنكا ! ولكن هذه هى ، هذه هى بينها ، هذه هى كاتنكا التى لم
تهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزم قصير ، لم تهيب
لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غليظ غبى ،
معرضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا ليتلك الكبرياء
التي تفيض بها نفسها ، يا لذلك الشمم الذى يملأ جوانب قلبها ، يا لهذا
الميل الى المخاطرة والتحدى للقدر والثقة التى لا حدود لها ! قلت ان
عمتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن عمتها هذه لا تقل عنها تشبهاً بالرأى
وميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جترالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ
أوضاعاً فيها من الأبوة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جترالة
موسكو من أبوة وعظمة ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من
منصبه ، وفقد كل شئ ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن
خففت جناحها ، وغيرت لهجتها . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء
جروشنكا ، فرفضت كاتيا أن تتبع نصائحها ؟ « أستطيع أن أنقلب على كل
عقبه ، لا شئ يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى

جروشكا ، . ذلك ما قالته كاترين ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به منذ نبت
الفكرة فى ذهنها ! فمن المذنب فى هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت
البادئة فى تقيل يد جروشكا ، عن عمد ومكر ، وبعد حساب وتفكير !
أبداً ... لقد كانت صادقة كل الصدق فى توليها بجها ، لا بحب
جروشكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هى بها ، بحب الوهم الذى قام فى
ذهنها هى عنها ... قل لى يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفك
من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوب الكاهن
الذى ترتديه ، هه ؟ هاهاها ...

- أخى ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة والاهانة
الضخمة التى ألحقها بكاترين ايفانوفنا حين حكيت لجروشكا قصة
زيارتها لك فى ذلك اليوم المشؤم ! لقد صرخت هذه المرأة فى وجهها
قائلة فى غلظة وفظاظة : « ذهبت سرّاً تبيعين جمالك لشباب ! » . ليس
هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، ولا مسبة أكبر من هذه المسبة
يا أخى !

لقد كان يعذب أليوشا تعذيباً خاصاً تصوره أن أخاه يبدو متعبطاً
لمذلة كاترين ايفانوفنا ، رغم أن هذا التصور كان خاطئاً فى أغلب
الظن !

- آه ...

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش فى تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه
اكفهراراً غريباً ، ولطم جبهته بيده .

لقد أدرك دمترى فيدوروفتش ، فى تلك اللحظة فقط ، هذا
الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفقه أن ينقل اليه أثناء
سرده لوقائع المشهد الذى حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة التى

وجهتها جروشكا الى كاترين ايفانوفنا ، والبرخة التي أطلقتها كاترين
ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا « ان أخاك وغد حقير ... »
قال دمترى :

... من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشكا عن ذلك « اليوم
المشوم » ، على حد تعبير كاتيا ... صحيح ، لقد حدثتها عن ذلك ...
تذكرت الآن .. وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه .. كنت ثملاً
... وكانت الفجريات تغنى ... ولكننى زويت القصة ضارماً أمام
صورة كاتيا ، وفهمت جروشكا حق الفهم .. فهمت كل شيء ...
أتذكر الآن هذا ... وأخذت تبكى هى نفسها .. شيطان يأخذ النساء !
كان ينبغى لى أن أتنبأ بهذا ... لقد بكت فى ذلك الحين ، ثم ها هى ذى
الآن « تسل خنجراً تطعن به القلب » ! ... هكذا هنَّ النساء ! ...
قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر .
وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

... أنا وغد حقير .. هذا صحيح ... سيان أن أكون قد بكيت وأن
لا أكون قد بكيت .. ليس لهذا من قيمة ! ليس ينفع بكائى أننى وغد
حقير ! ... قل لهنَّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك
تعزية لهن . وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثروة ؟
وليس هذا بالأمر السخيف .. ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى
طريقى .. لك سبيلك ولى سبيلى .. ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن ،
اللهم الا أن يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !
صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه
ينتزع نفسه فجأة من شيء ما ، مضى يسير غاضباً بصره ، دون أن يرفع
رأسه . واتجه نحو المدينة بخطى سريعة . أتبعه اليوشا نظرة دون أن
يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائياً .

— لحظة يا ألكسى ! هناك اعتراف أخير ...

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة • وتابع يقول :

— هو اعتراف لك وحدك ! انظر الى يا أخى ! أنعم النظر الى !
ان رجسا كريها يتها هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمترى كلمة «هنا» وهو يلمطم صدره بقبضة يده وقد بدا في وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذى يشير اليه انما يوجد مدفونا في هذا المكان بعينه ، مختبئا في جيب السترة أو في كيس معلق بالعنق) • انك تعرفنى الآن : أنا وغد ، وغد أصيل ، وغد مشهود له معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شيء مما فعلته في الماضى ومما قد أن أفعله في الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل في حقارته الذنيئة الوعدة ما أحمله في نفسى ، في هذه اللحظة ، هنا ، في هذا الموضع ، على صدرى ، من رجس ينضج ويتخمر ويمكننى أن أكبته •• ذلك أننى حر أستطيع أن أحققه وأستطيع ان لا أحققه ، لاحظ هذا ••• ولكن ألا فلتعلم اننى سأحققه ، واتى لن أعدل عنه ! لقد حكيت لك كل شيء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شيء الا هذا الامر وحده ، لأننى استحييت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحييت أن أعترف به ! ما يزال في وقتى متسع لأن أتراجع ، وإذا أنا توقفت عن الانحدار في الهوة ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترده نصف سعادتى الضائعة ، على الأقل ••• ولكننى لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضى في انفاذ خطتى السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قرارى الذى اتخذه وأنا في كمال حريتى وتعام وعيى ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شيء قريبا • زقاق عفن وامرأة جهنمية ! وداعا • لا تصل من أجلى ، لا تدع لى ••• فأنا لا أستحق ذلك •• ثم

ان صلاتك من أجلى ودعاءك لى أمران نافلان لا حاجة بى اليهما ، أؤكد لك هذا • والآن ، انصرف ! •••

قال دمتري فيدوروفتش ذلك ، ومضى فى هذه المرة نهائيا • واستأنف أليوشا سيره فى الطريق الى الدير • « كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ » بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة • « دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا • كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟ » •

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى الصومعة راسا • فتتح له الباب ، رغم أن القاعدة هى أن لا يسمح لأحد بالدخول فى هذه الساعة المتأخرة • وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجر • سأل نفسه : « لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلنى الى العالم ؟ هنا مكان صمت وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيم الظلمات ، هناك يتيه الانسان ويضل ، ثم يهوى آخر الأمر ••• » •

وجد فى الحجره الراهب المبتدى بورفير ، والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجيى ساعة بعد ساعة يستطلع أخبار صحة الأب زوسيم • كانت حالة الأب زوسيم تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مروءعاً مدعوراً • حتى لقد ارتشى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيم أن يجريه فى المساء بنير انقطاع ولا تخلف مع رهبان الدير • لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بمسد القداس ، وقبل راحة الليل ، فى حجره الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتكبها أثناء النهار ، وبالأخواطر الآثمة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالأغراءات المباحثة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شيء من

ذلك • وكان بعضهم يجنون على ركبهم ليعلموا أخطائهم • وكان الشيخ يصفى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ، ويصدر أوامره فيهم ، ويعرض عليهم كفارات ، ثم يبارحهم جميعا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه • وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبذل هذا السر من الأسرار المقدسة ، أعنى الاعتراف الدينى ، وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ؛ وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر • حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو يقود النفس الى الخطيئة والفوضى أيضا • وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك ، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم • بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحيانا قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء ، على أن يمثلوا أدوارا معينة : « سأقول للشيخ اننى غضبت منك وتهجمت عليك ، فتؤكد أنت ذلك وتبته » ، حتى يكون هنالك ما نقوله فتتخلص من هذه المهمة وتنتهى من هذه السخرة • وكان ألبوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان • وكان لا يجهل أيضا أن هناك رهبانا كانوا يستأمنون استياء شديدا ويمتنعون امتعاضا قويا من أن رسائل أقربائهم نفسها ، التى يحملها اليهم حجاج ، انما يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها • الحق أن الأصل فى هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفسهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهداف السلامة ، وغايات الخلاص • ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى

كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك ، رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل . على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبة كان لا يسوؤهم هذا الأمر كثيرا ، فهم يرون أن « من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية وأخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد او الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ؛ وأن أولئك الذين يشكون من هذه الأمور ويرون فيها امتحانات لا فائدة منها ولا طائل تحتها ، ليسوا برهبان حقا ، وما كان ينبغي لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذي خلقوا له إنما هو العالم ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا في العالم ولا في الدير على السواء ، فلا مجال والحالة هذه للقول بأن هذا الاعتراف اليومي يمكن أن يحض على الخطيئة . »

أسرَّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، أسرَّ اليه قائلا بصوت خافت :

— انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب إيقافه ؛ والأولى أن لا يوقف على كل حال . لقد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن نطلب منهم أن يصلُّوا في الليل من أجله . وفي نيته أن يتناول القربان المقدس غدا مرة أخرى . وقد تذكر يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة ، فقال : « لقد باركته من أجل أن يمضي الى المدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا ، . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذي تناله من اهتمامه بك هذا الاهتمام ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش

فى العالم زماً • أترأه تنبأ بشىء عن قدرك ؟ اعلم مع ذلك يا ألكسى أن عليك ، اذا أنت عدت الى العالم ، أن تتصرف فيه بروح الخضوع للمقاعدة التى ألزمتك بها شيخك ، متحاشياً الأفكار الطائشة والمباهج المتبذلة ...

وخرج الأب بائسى • فأما أن الشيخ بسيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوماً آخر أو يومين آخرين • لذلك قرر أليوشا ، بصلابة وحرارة وحماسة ، أن لا يبارح الدير فى الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين هوخلا كوفكا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترين ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى • فلن يترك الدير ، وإنما يظل قرب شيخه حتى موته • وامتلاً قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مرأً على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسي ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم • ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم • كان الشيخ يرقد ساجياً بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جداً يجرى مطرداً منتظماً ، رغم أنه لا يكاد يدرك • وكان وجهه ساكناً هادئاً •

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى - وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحاً - اضطجع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، ويعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجّد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة • كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه • وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه •

ومع ذلك جئنا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبت يصلى زمناً طويلاً . لم يدعُ الله في صلاته الحارة أن يخلّصه من قلقه وأن ينقّذه من مخاوفه ، لأنّ ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائماً بعد تلاوة الآيات التى تمجّد الله فتلك هى صلاة الليل كلها . . . ان الفرح الذى يغمر قلبه فى تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحاً .

وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الطرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترين ايفانوفنا حين أدركه فى الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الطرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع « ليزا » ، بنت السيدة هوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السخر كله فى الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

« ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفية ، على غير علم أمى ، وذلك شر ، أنا أعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل علىّ أن أعيش دون أن أبوح لك بما يعتلج فى قلبى ، ودون أن أطلعك على العاطفة التى وُلدت فيه والتى يجب أن يجهلها جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين . ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال ان الورق لا يمكن أن يحمر خجلاً وحياء . . . ولكننى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمر الآن أمامى مثلما أحمر أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك ، أحبك منذ طفولتى ، منذ سنّى موسكو التى كنت فيها مختلفاً عنك الآن اختلافاً كبيراً . لقد أحبيتك منذ ذلك الحين مدى العمر . اختارك قلبى لأشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشبخوخة . . . شريطة أن تترك الدير طبعاً . . . أما عن السن ، فان

فى وسعنا أن نتنظر المدة التى يقتضيها القسانون • والى أن يحين ذلك
الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملا ، فأستطيع أن أمشى وأن
أرقص كما كنت أمشى وأرقص ... ذلك أمر لا ريب فيه •

• هانت ذا نرى أنتى فكرت فى كل شىء • ومع ذلك هناك نقطة
عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكرى : ما عسى أن يكون حكمك
علىّ ورأيك فىّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية « شيطانة » ، أكرر
من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك فى هذا الصباح • ولكننى أحلف
لك أنتى صليت منذ قليل أمام أيقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة
إليك ؟ واننى لأصلّى حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكى !

• هذا سرّى وضعته بين يديك • وانى لأساءل كيف سأستطيع
أن أنظر إليك غدا حين تجيء ؟ أوه ! الكسى فيدوروفش ! ما عسى
يحدث اذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسى فاذا أنا العمقاء انفجر
ضاحكةً مقهقهة حين أراك ، كما حدث لى هذا من قبل ! لسوف تظننى
عندئذ فتاة خبيثة ساخرة ، ولن تصدق عندئذ ما عبرت لك عنه فى
رسالتى • لذلك أضرع إليك ، يا صديقى العزيز ، اذا كنت ترحمنى
بعض الرحمة وتشفق علىّ بعض الشفقة ، أن لا تنظر الى عينيّ كثيراً
حين تجيء إلينا غداً ؟ ذلك أنتى قد يملككنى ضحك لا سبيل الى مغالبته
متى التقى نظرى بنظرك ، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل الذى
ترتديه ! ... حتى فى هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسرى فى جسمى
حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شىء من ذلك • أستحلفك أن
لا تنظر الىّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجيء إلينا غداً ، وانما
تلتفت بنظرك نحو أمى أو نحو النافذة •

• هانذا كتبت إليك رسالة حب • ربا ، ما هذا الذى فعلته ؟ آه

يا أليوشا ، لا تحقرنى ! اذا كان ما أفعله شرا كبيرا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لى ! واعلم على كل حال أن سرى الذى قد يضيّع سمعى - ربما الى الأبد - هو الآن بين يديك .

« سأبكى فى هذا اليوم حتماً » وإلى اللقاء ، بانتظار المقابلة «المرعبة» فى الغد .

« ليزا »

حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتى قطعاً ، قطعاً !

« ليزا »

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكّر قليلاً ، فإذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ، ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون ائماً . ولكنه عاد يضحك ضحكاً هادئاً بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناء الهادئة نفسها ، وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورقد . . . زال من نفسه كل اضطراب بما يشبه السحر . « اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم فى هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم فى نفوسهم . اللهم احرسهم وسدّد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً لا نعرفها : فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة ، لأنك أنت المحبة . »

بهذا تتمم أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئاً .

الجزء الثاني

الباب السابع: التسفات

١

اللاب تيرلرلونت



أليوشا فى ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح •
وكان الشيخ قد صفا فلا يستطيع النوم ، وكان
يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرَّ
مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على
مقعد • انه كامل الوعي ، وان وجهه يبدو مضياً حتى لكأنه فرح ، رغم
آثار التعب الشديد الظاهرة فيه • وان نظرتة مرحة باشة هاشة مشجعة •

قال الشيخ لأليوشا :

— قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم •

ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس •
وكان الأب بائسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه • فبعد أن
أتم الشيخ تناول بنوعيه ، استعد للقيام « بالمسحة الأخيرة » • فاجتمع
الرهبان الكهنة فى حجرته التى أخذت تمتلئ بالنساك شيئاً بعد شئ •
وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون
هم أيضا • وبعد القداس أظهر الشيخ نيته فى توديع الجميع ، فأخذ
يقبل كل واحد • واذ كانت الحجرة ضيقة فقد كان الواصلون الأول
يجلون المكان للواصلين بعدهم • ولبت أليوشا الى جانب الشيخ زوسما

الذى كان قد جلس على مقعده • فكان الشيخ يتكلم ويعلم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال قاطع اللهجة صارم الثبرة •

— انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين • انقضت سنين كثيرة وأنا أتكملم اذن بصوت عال ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الآباء والاخوة الاعزة ، أنني أصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل على من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفى (كذلك قال مازحاً ، وهو يُعجل على الرهبان والزوار الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً خنونا) •

تذكر اليوشا فيما بعد بعض الأفكار التى عبر عنها الشيخ فى ذلك اليوم • ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاماً واضحاً متميزاً ، ورغم أن صوته ظل صلباً صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير • لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعماق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلاً كاملاً • وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعاً اليه بظماً حار الى اشراك الجميع فى الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخيرة •••

كان الشيخ يعلم قائلاً :

— أحبوا بعضكم بعضاً • أحبوا جميع أبناء الرب • لا تظنوا أنكم أقدس من العلمانيين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانهم • بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى

هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه فى الدير ، بأنه كان
شراً من الانسان العادى وأسوأ من جميع أولئك الذين بقوا فى الجهة
الأخرى من الحاجز ... هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يشربها
تشرباً ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته فى الدير . فلو أن الامر
كان كذلك ، لما كان ثمة أى سبب يبعث على الالتجاء الى الدير والاعتصام
به . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من العلمانيين فحسب ،
بل أنه كذلك مذنب فى حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل
الشر الذى يقع على الأرض بفعل الأفراد أو بفعل الجماعات . فهذا
الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا فى الدير . اعلمو أيها
الاخوة الأعزّة أن كلا منا يتحمل مسئولية مظالم هذا العالم لا بسبب
الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، فهذه المسئولية ليست مسئولية جزئية ،
بل هى مسئولية تامة كاملة ، مسئولية عن جميع ذنوب المجتمع وعن جميع
أخطاء أفراد . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذى يتوج الحياة الرهبانية ،
كما يتوّج من جهة أخرى حياة كل انسان أيّاً كان . ذلك أن الرهبان
لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم يحاولون أن يصيروا
الى ما ينبغى لكل الناس أن يصيروا اليه . فاذن تحقق هذا الهدف انفتحت
قلوبنا أخيراً للحب اللانهائى ، الشامل ، الذى لا يعرف الحدود ولا
يرتوى ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم فى نفسه القدرة على
غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض ...
ألا فلتصنوا جميعاً الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعاً بأخطائكم
لأنفسكم فى غير مهادة . لا تخشوا خطاياكم وان تكن واضحة
لأبصاركم ، شريطة أن تندموا على ارتكابها وأن توبوا عنها ! ولكن اياكم
و « التسويات » مع الرب ، وحاذروا أن تفرضوا عليه شروطاً ! و اياكم
والعجب والزهو والصلف ، قبل كل شئ وفوق كل شئ ! لا تعالوا على

الصغار ، ولا تعاملوا كذلك على الكبار ! لا تكرهوا أولئك الذين يبنونكم ويصدونكم ويهينونكم ويهاجمونكم ويقتابونكم • ولا تكرهوا الملحدين ، الانبياء الكاذبين ، الماديين ، لا تكرهوا حتى أسوأ هؤلاء واخبثهم ، ناهيك عن اختيارهم ، لان بينهم أخيارا ، فى عصرنا هذا خاصة • اذكروهم فى صلواتكم على النحو التالى : • اتخذ جميع الناس يا رب ! اتخذ جميع الذين لا يصلى لهم احد ، واولئك الذين لا يريدون ان يصلوا لك ! • ولكن عليكم ان تبادروا فتضيفوا الى ذلك فوراً : • اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فأتى شر الناس طرا واشتاقهم قاطبة • احبوا أبناء الرب ، احبوا الشعب ، لا تسمحوا للغرباء أن يسلبوكم القطيع • فاذا استسلمتم للكسل ، وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأتكى) ، فان رجلا من جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطعكم • بشروا بالانجيل فى صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال ••• اياكم والطمع ، اياكم والتعلق بالذهب او الفضة ••• ازهدوا فى امتلاك الذهب والفضة ••• آمنوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ، ارفعوها عالية ، عالية •••

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر مما يظهر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك أليوشا • كان يتوقف عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان يلهث لهائاً واضحاً ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة • وكان الحشد يصنى اليه فى حميا وخشوع ، رغم أن أقواله بدت غريبة لبعضهم ، غامضة لبعضهم الآخر ••• وقد تذكر المستمعون هذه المعانى التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد •

وقد تنيب أليوشا عن الحجرة لحظات ، فما كان أشد دهشته حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من كانوا فى الحجرة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب ! كان جميع الرهبان فى

حالة انتظار شديد وتوقع عنيف يمازجه قلق لدى بعضهم ، ويصطبغ
بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر . كان يبدو عليهم جميعا أنهم يرتقبون
حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا . قد تدل هذه الحالة النفسية
على شيء من خفة وطيش ، ولكنها غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى
أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة . وكان وجه الكاهن الراهب بائسي
يعبر عن خطورة خاصة .

لقد غاب اليوشا عن الحجيرة لحظة لان راكيتين الذي عاد من
المدينة حاملا اليه من السيدة هوخلاكوفا رساله غريبه بمض الفراه ،
قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفيه . ان هذه الرساله تبلغ اليوشا
حادثا غريبا جاء وقوعه الان في أنسب وقت . يتذكر القارىء أن بين
نساء الشعب المؤمنات اللواتى جئن امس الى الشيخ ليحنيه وليتلقين بركة
كانت هنالك امرأة عجوز قصيرة من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهى أرملة
صف ضابط . ان هذه المرأة قد سالت الشيخ هل فى وسعها ان تطلب
اقامة صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاميا الذى سافر بمهمة الى منطقة
ناحية من سيرييا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها أباؤه منذ سنة ،
سألت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات على روحه كما لو كان قد
مات ؟ ويتذكر القارىء أن الشيخ قد نهاها عن هذا نهيا قاسيا ، ووصف
اللجوء الى مثل هذه الأسباب بأنه شعوذة وسحر . ولكنه غفر لها بعد
ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه لها من باب المواساة قائلا لها « كأنه قد
وهب له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل » (هذه هى العبارة التى
استعملتها السيدة هوخلاكوفا فى رسالتها) ، قائلا لها ان ابنها فاسيا ما يزال
على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل
حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته . « فما الذى
حدث ؟ » (هذا ما جاء فى رسالة السيدة هوخلاكوفا) « حدث أن النبوة

قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! ، ، فان المرأة المعجوز ما ان رجعت
أس الى مسكنها حتى أعطيت رسالة وصلت من سيريا أثناء غيبتها ،
وفى هذه الرسالة التى كتبها اليها فاسيا فى طريق عودته ، من
ايكاتيرنبورج* ، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ،
وأنه « يأمل أن يستطيع تقيل أمه » بعد ثلاثة أسابيع فى أكثر تقدير .

ان السيدة هوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحه ان ينقل الى علم كبير
الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه « المعجزة الجديدة من معجزات
النبوة » ، وتقول له هاتفية فى ختام رسالتها : « يجب أن يعلم جميعهم
هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما . . . » وكان واضحا أنها قد
كتبت هذه الاسطر متعجلة تمجلا شديدا ، وكان واضحا أن كل كلمة
من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتاج
الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين
كلف أحد الرهبان باستدعاء اليوشا اليه ، قد رجاء فى هذه المناسبة نفسها
أن « يبلغ الأب المحترم بائيسى » بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه
حالا ليكلمه فى أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه فى غير
ابطاء ، بسبب ما تصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، أملاً
فى كثير من المذلة والتواضع أن تغتفر له هذه الجرأة . ولما كان الراهب
قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم
يبق على أليوشا بعد عودته الى الحجرة الا أن يقرأ الرسالة وأن يظهر
عليها الأب بائيسى من باب الأدب وتقيداً بالشكل . أخذ هذا الرجل
الصارم الرئاس يقرأ الرسالة مقطعا حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين
اطلع على رواية هذه المعجزة أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى
هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطح ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يتسم

ابتسامه رزينة عميقة ، واذا لسانه تفلت منه هذه العبارة على غير ارادة
منه :

— سرى معجزات أخرى كثيرة •

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، ردّوا يقولون :

— سرى معجزات أخرى كثيرة •

ولكن الأب بائيسى قطن حاجيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ،
الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى
أحد قبل الأوان :

— يحسن أن تنتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا، لأن العلمانيين
كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا فى هذه الأمور •

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدى ضميره :

— ثم ان الحوادث ، فى هذه الحالة التى أمامنا ، قد يمكن أن
تُفسّر كذلك تفسيراً لا شأن له بما هو فوق الطبيعة •••

قال الأب بائيسى ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من حماسه
شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا •

وسرعان ما انتقل نبأ « المعجزة » من فم الى فم ، فما هى الا برهة
قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عرّفه كذلك كثير من
الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس • وكان أشد الناس
انبهارا فى الظاهر انما هو راهب « سان سيلفستر » ذاك القصير الذى
وصل أمس من دير أوبدورسك بشمال سيبيريا • كان بالأمس قد انتظر
الشيخ واقفا الى جانب السيدة هوخلاكوفا ، فبعد أن حيّا الشيخ سألته ،

بمناسبة « شفاء » ابنة تلك السيدة ، « ما هي القوة التي تتيح له تحقيق مثل هذه الأمور ؟ » •

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة وتشوش كبير، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن • ذلك انه في مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الاب تيرابونت ، في الحجرة الخاصة التي يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذي جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع • والاب تيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب المعجوز المنزوي الذي اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذي كان يعدّ ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة • وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحدا من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت التي كان يجب أن يلزم بها نفسه • وكان يبدو مخيفا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار العلمانيين أناسا كانوا يرون فيه رجلا صالحا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل محدود الفكر بسيط العقل • ولكن بساطة العقل هذه هي بعينها عنصر الجاذبية فيه • كان الأب تيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط • ورغم أنه عاش في المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا في أمر مراعاة القواعد المتبعة في الدير لأن تصرفه في هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل بسيط العقل • انه في الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، في حجرة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالا متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الحجرة خلال القرن الماضي فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام :: ذلك هو الأب جوناس الذي عمّر مائة سنة،

وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس في الدير وفي المنطقة المجاورة
يذكرون عنها تفاصيل شائعة • وقد استطاع الأب تيرابونت أن يظفر
أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الحجرة المتزوية التي تكاد تكون
خربة بسيطة والتي فيها شبه غامض بمعد ، لكثرة عدد أيقونات النذور
التي تملؤها ولكثرة عدد مصابيح النذور أيضا التي تشتعل فيها أمام الصور
المقدسة بغير انقطاع • وقد كُلف الأب تيرابونت نوعا من التكليف بأن
يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة وأشغالها • وكان طعامه ، كما يقال
(وهذا صحيح) لا يزيد على كيلو واحد من الخبز في أكبر تقدير
يحملة إليه كل ثلاثة أيام ، الراهب الذي يتمهد خلایا النحل ويسكن
غير بعيد عن ذلك المكان أيضا • فكان الأب تيرابونت ، حتى مع هذا
الراهب الذي يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا • وهو لا يأكل طوال
الأسبوع ، الا هذين الكيلوين من الخبز ، اضافة الى لقم القربان المقدس
التي كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب التامك بعد الصلاة الثانية •
وكانت جرة الماء التي يشرب منها تملأ له كل يوم • وكان الأب تيرابونت
لا يكاد يحضر القداس أبدا • وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا
ما كان يقضى أياما بكاملها في الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لا ينظر
بحوله يمنة ولا يسرة • فاذا اتفق له في مناسبة من المناسبات أن يكلمهم ،
كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظا غليظا في جميع
الأحيان • صحيح أنه كان يحدث ، في القليل النادر ، أن يندفع في
منافشات أطول ، ولكنه كان في أكثر الأحيان يكتفي باطلاق جملة عجيبة
يكون وقعها في نفس زائره وقع لغز محير ، ثم يرفض أن يعقب عليها
بأى شرح رغم جميع التوسلات • ولم يكن الأب تيرابونت في رتبة
كاهن ، وإنما ظل راهبا بسيطا • وقد راجت عنه في بعض الأوساط ،
وهي الأوساط الجاهلة التي تؤمن بالخرافات والحق يقال ، راجت عنه

شائعة غريبة مفادها أن الأب تيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يكره أن يكون على صلة بالبشر الفانين •

استطاع راهب أوبدورسك القصير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى حجرة الأب تيرابونت ، متبعا اشارات الراهب الذى يتعهد خلایا النحل ، وهو راهب صموت متجهم أيضا ، فأتجه نحو ركن الحائط الذى توجد عنده حجرة الناسك • وقد قال له الراهب الذى يتعهد خلایا النحل :

- ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تتنزع منه كلمة واحدة •

اقترب الراهب الحاج من حجرة الناسك وهو يشعر برعب شديد ، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد • وكان ذلك فى ساعة متأخرة • ان الأب تيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع خفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أتعشته طراوة المساء •

سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه • فقال له الأب تيرابونت :

- أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الارض أمامك؟
هيا انهض •

نهض الراهب الصغير •

- ألا فلتحل عليك البركة • اجلس بجانبى • من أين أنت ؟
دُهنس راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب تيرابونت ، رغم أنه

طاعن فى السن ، ورغم الصيام القاسى الذى يفرضه على نفسه ، ما يزال مسحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارغ الطول منتصب القامة ، له وجل نحيل لكنه نضر سليم • ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة • ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضى على كل حال • ثم انه على تقدمه فى العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه ولحيته ، الذى كان فى الماضى فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا • وعيناه الشهابوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمة "تخطف البصر رأساً" • وهو يتكلم مشددا حرف « الواو » تشديداً قويا • أما لباسه فعباءة طويلة حمراء من ذلك القماش الذى كان يسمى فى الماضى « جوخ السجاء » ، مع حبل طويل يتخذة حزاما • والعنق والصدر عاريان • وتحت الثوب يرى قميص من نسيج مبتذل يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب تيرابونت لا يبدله خلال شهور • وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً • وقدماه بلا جوربين ، وانما هو يتمل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه •

— أنا آت من دير سان سيلفستر الصغير فى أوبدورسك •
كذلك قال الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناس بعينه الصغيرتين الحادثتين الغريبتين اللتين ما تزالان مروعتين قليلا •
— أنا أعرف صاحبك سان سيلفستر • لقد عشت عنده زمنا • كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

اضطرب الراهب الصغير •

— يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟
— طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففى أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئا فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة • وفى أيام الثلاثاء

والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة أو عسلًا ، وتوتاً برياً أو كرباً مملحاً ، مع شيء من طحين الشوفان مخلوط بالماء . وفي أيام السبت تأكل كرباً أبيض وشعيرية بالخمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت . ويضاف الى الكرب شيء من سمك مقدّد وبرغل عادى فى أيام الأحد . أما فى الأسبوع المقدس فلا تأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أى خلال ستة أيام ، الا خبزاً وماء وخضاراً نيئة - وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال . ذلك أنه اذا كان مباحاً لنا أن نأكل فى ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم . وفى يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملاً ، وفى يوم السبت من هذا الأسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نخشى قدحاً واحداً من النبيذ ؛ وفى يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم إلينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشيء من نبيذ ، وبعض المأكولات الناشفة . ذلك أن مجمع الأساقفة الذى انعقد فى لاوديسه قد أقر النظام التالى فى أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : « لا يحسن قطع الصيام فى خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله ، ذلك هو صيامنا . وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكوراً بالقياس الى القاعدة التى فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذى بدا أنه استرد شيئاً من رباطة جأثته) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى فى يوم الفصح ، ولأن مقدار الخبز الذى تأكله فى يومين يكفىك أنت أسبوعاً كاملاً . فمن واجب المرء أن يعجب أشد الاعجاب حقاً بمثل هذا التقشف العظيم .

سأله الاب تيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة فى نطق بعض الأحرف ولا سيما حرف « الجيم » :



الاب تيرابونت

بريشة الفنانة السوفياتية الكسترا كورساكوفا

— وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

— فطر الغابات ؟

— طبعا ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة
قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتمذى فيها بالفطر والثمار • ولا
كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم
مشدودون الى الشيطان ، مرتبطون به • ان فى زماننا هذا كفره كريهين
يؤكدون أن الصيام لا حاجة اليه ولا ضرورة له • فتفكيرهم مشبع بالزهو
والصلف والكبر قد تسلمت اليه روح الشيطان وسكته •

قال الراهب الصغير متنهدا :

— ما أصدق هذا الكلام !

— هل رأيت الجن حين كنت عندهم ؟

— عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير على خجل ووجل واستحياء •

قال الاب تيرابونت :

— زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ، ولكننى
لم أعد اليه منذ ذلك الحين • لقد رأيت عندهم جنًا ! رأيت جنًا يتسلقون
صدور الرهبان ، ورأيت جنًا يختبئون تحت أثوابهم فما تظهر منهم الا
قرونهم • حتى لقد رأيت واحدا من هؤلاء الجن يقبع فى جيب من
الجيوب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين •
كان خائفا منى فيما يبدو • وبمض الرهبان يؤوون جنًا فى بطونهم بين

أحشائهم التجسّسة • وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الجن دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم •

سأله الراهب الصغير :

— وهل ... وُهبّت لك القدرة على رؤيتهم ؟

— قلت لك اننى أراهم • ان نظرتى تخترقهم اختراقاً • حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحدا منهم حاول أن يختبئ وراء الباب حين لمحنى • كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله متراً • وكان له ذيل ضخّم أشقر ، طويل جداً ، قد انحسر فى شق الباب فى تلك اللحظة • ولم أكن غيباً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حاداً ، فينما كان يتخبط رسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فأذا هو يفتس . كما يفتس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوماً ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئاً ولا يشمون شيئاً ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان • اننى أسرّ اليك وحدك بهذا الامر ، لأنك غريب عن هذا الدير •

هتف الراهب الصغير يقول :

— رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرائته شيئاً بعد شيء :

— وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

— الروح القدس يأتى فيقف هنا أحياناً • ذلك يحدث •

— يقف هنا؟ فى أية صورة؟

— فى صورة طائر •

— الروح القدس يظهر لك فى صورة حمامة؟

— يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة • فأما

روح القداسة فيمكن أن تتجلى فى صور شتى ، فتارة تظهر فى صورة

سنونو ، وتارة تظهر فى صورة حسون أو فى صورة قرقب أيضا •

— فكيف تميزها عن قرقب عادى؟

— أعرفها لأنها تكلم •

— كيف هذا؟ بأى لغة؟

— بلغة الانسان •

— ماذا تقول لك؟

— يختلف ما تقوله لى باختلاف الأحوال • ففى هذا الصباح مثلاً

أبلغتني أن زائراً غيباً سيزورنى وسيزعجنى بأسئلة حمقاء • هل تعرف

أيها الراهب أنك تسرف فى الاستطلاع؟

— أيها الاب المحترم جدا ، ان هذا الذى تعلمنى اياه

يطيش اللب ويذهب بالصواب !

كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرك رأسه • على أن شيئاً يسيرا

من عدم التصديق قد ظهر فى عينيه اللتين عاد اليهما الروح والخوف •

سأله الاب تيرابونت بعد صمت قائل :

— هل ترى هذه الشجرة؟

— أراها يا أبى المحترم •

— لا شك أنك تظنها شجرة دردار • أما أنا فأرى فيها شيئا آخر •

وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الاب تيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب تيرابونت ذلك ، قرر أن يسأله ، فقال :

— فماذا ترى فيها ؟

— يحدث لى هذا فى الظلام • هل ترى هذين الفصين ؟ ان المسيح يظهر لى فى هذا الموضع حين يخيم الليل ، فيمد الى ذراعيه ويبحث عنى • اننى أراه رؤية واضحة جلية ، فأرتعش عندئذ خوفا • ذلك شيء يثب النسر فى النفس ، هل تعلم ؟

— لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

— قد يقبض على ويرفعنى الى السماء •

— حيا ؟

— ألم تسمع اذن عن مار الياس ومجده ؟ سوف يحيطنى المسيح بذراعيه ويأخذنى ...

رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الحجرة التى عيَّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى قراوة قلبه يشعر بأن الاب تيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ زوسيم • ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شائئ الرهبانية ، قد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الاب تيرابونت يمكن حقا أن يكون قد أوتى موهبة « رؤية المعجزة » • صحيح أن الأقوال التى قالها الأب

تيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع البسطاء ، جميع «اليورودينويس» المأخوذين بالمسيح انما يعبرون عن أنفسهم بهذه اللغة ، ويقولون كلاما أدعى الى الاستغراب أو يفعلون أفعالا أبعت على الدهشة . أما قصة الجنى الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعبادة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعمده بعد أنظمة كثيرة أخرى بدعة ضارة ضررا صريحا . وكان قد أتبع له أثناء اقامته القصيرة فى الدير أن يسمع دمدومات الاستكار من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام . واذ كان بطبيعته امرأ طلمة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر « معجزة » حققها الأب زوسيمما قد هز نفسه هزاً قوياً وبث فيها اضطرابا شديدا وحيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الحجرة ، أنه لمح هذا الراهب الصغير ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شئ . ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم بذلك فى حينه ، وانما تذكره فيما بعد وهل كان يمكن الالتفات الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟

كان الأب زوسيمما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ،

والراهب الكاهن جوزيف والراهب المبتدئ بروفير • فتح الشيخ عينيه
المتعبين بكثير من العناية ، وحنق الى أليوشا ، ثم بادر يقول له :

— هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا •

وعاد الشيخ يسأله :

— أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه
اليوم ؟

— وعدت أبى ••• وأخوى ••• وآخرين أيضا •

— ذلك ما قدرته • فاذهب اليهم حتماً • ولا تحزن • اعلم اننى
لن أموت قبل أن أنطق آخر كلمتى على هذه الأرض بحضورك • اليك
سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ••• اليك أنت
يا بنى لأنك تحبنى • امض الآن الى من ينتظرونك •

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن
ينصرف فى هذه اللحظة • ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن
يُسَمِّعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه
سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته
الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا نشوةً وسكراً • لذلك أغدَّ خطاه حتى
يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير
بأقصى سرعة • وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه؛
وما قاله له الأب بائيسى عندئذ ليسدد خطاه فى طريقه ، قد أحدث فى
نفسه أثراً عميقاً لم يكن فى الحسبان • لقد قال له الأب بائيسى :

— تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى

تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التي نمت نمواً كبيراً وأصبح لها سلطان عظيم ، قد هجمت ، في خلال هذا القرن خاصة ، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية • فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد حافد لا يشفى غليله ، لم يحتفظوا بشيء ، لم يحتفظوا بشيء البتة مما كان يُعدُّ مقدماً في القرون الماضية • لقد حللوا بكثير من التدقيق والامعان كل جزء من أجزاء التعليم الدينى على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا • ذلك أن «الحقيقة» انما هى فى «المجموع» ، فلن يستطيعوا أن ينالوا منها ، ولن يستطيعوا أن يمسوها بسوء ، وستظل باقية ثابتة خالدة كما كانت من قبل ، لا تقدر أبواب الجحيم أن تتقيأ شيئاً يؤذيها ، ولا تتمكن قوى الشر أن تغلبها وأن تنتصر عليها • ألم تعيش هذه الحقيقة تسعة عشر قرناً ؟ ألا تزال تعيش اليوم فى أشواق جماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلب أولئك الملحدّين الذين أرادوا أن يدمروها • ذلك أن هؤلاء أنفسهم الذين جحدوا المسيح وعصوه وتمردوا عليه ما يزالون يحتفظون بصورته حيةً فى أنفسهم ، كما كانت فى الماضى ، شاموا أم أبوا • ذلك أنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلهم ، استحال عليهم أن يتصوروا مثلاً أعلى ، أسمى وأجدر باعجاب الانسان من المثل الأعلى الذى قدمه إلينا المسيح فى الزمان القديم • ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدّ الى غير الحطة والغلطة • فاحفظ هذا جيداً أيها القى ما دام شيخك المحضر قد أرسلك الى العالم • فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضاً فى هذه الكلمات التى قلتها لك صادرة من أعماق قلبى لتضى لك طريقك • ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ذات سلطان ، ولن

تكفيك قواك وحدها للتغلب على هذه المفريات دائما • والآن امض أيها
اليتيم •

وبعد أن قال الأب بائسي هذا الكلام بارك أليوشا • وقد أدرك
أليوشا فجأة ، وهو يعتمد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن
يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان الى ذلك الحين صارماً
تلك الصرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها في معاملته ، سيكون له بعد
اليوم صديقاً جديداً وموجهاً روحياً يحمل له أعمق المودة والعطف
- كأن الأب زوسيم هو الذي عهد اليه بهذه المهمة وهو يحضر • قال
أليوشا يحدث نفسه : « من يدري ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا ! » • ألا تدل
هذه الشروح العلمية النقية التي سمعها من فم الأب بائسي ، وهي شروح
أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن
يدل أى حديث آخر ، على أن الأب بائسي يضرر له عاطفة صادقة حارة ؟
لقد أسرع الأب بائسي يزود عقله بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة
مفريات هذا العالم ، وأراد بنهر ابطاء أن يحصن نفسه الفية المراهقة
التي عهد اليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية •

في منزل الأب



أليوشا أولا الى منزل أبيه • فتذكر وهو يقترب
من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالأمس أن
يتدبر أمره بحيث يدخل دون أن يراه ايفان •
فتسائل فجأة : لماذا ؟ اذا كان أبى يريد أن
يبوح لى بشئ من الأشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل
دون أن يعلم أخى بذلك ؟ أحسب أن أبى قد أساء التعبير من شدة
اضطرابه ، فلم يجد الكلمات المناسبة التى يفصح بها عن مراده • • •
هذا ما قاله لنفسه • ومع ذلك شعر بارتياح شديد ورضى عظيم حين
فتحت له مارفا اجناتقنا الباب الحديدى (كان جريجورى قد مرض فلزم
سريره فيما قالت مافرا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن
ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين •

— وباتوشكا ؟

— نهض من فراشه ، وهو يحتسى الآن قهوته •

هكذا أجابته مارفا اجناتقنا بشئ من الجفاف والخشونة •

دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، متعللاً خفياً ، مرتدياً
مبدلاً عتيقاً • كان الأب بسبيل التدقيق فى بعض الحسابات تزجية

لوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذى يقوم به .
ولم يكن فى المنزل أحد غيره . (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا
لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) . كان الأب يتصفح
حساباته اذن ، ولكن فكره منصرف الى غير ذلك . وكان يبدو عليه
التعب والوهن والضعف ، رغم أنه صفا فى ساعة مبكرة من الصباح
وحاول أن يستجمع قواه وأن يسيطر على نفسه . وقد عقد على جبينه
الذى ظهرت فيه بقع أرجوانية كبيرة أثناء الليل ، عقد عليه منديلاً
أحمر . وكانت على أنفه الذى تورم كثيراً منذ البارحة ، كانت على أنفه
بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيراً فهي تضى على وجهه تعبيراً عن
غضب حائق خبيث . وكان المعجوز يعرف هنا على كل حال ، فهذا هو
يرشق ألبوشا حين دخل ، بنظرة فيها عداوة . وصاح يقول له بلهجة
قاطعة :

- القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً . وأنا نفسى ألترم اليوم
حمية قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسلك ولا أدعو الى مائدتى أحداً .
لماذا رأيت أن عليك أن تصبى ؟

قال ألبوشا :

- أردت أن أسأل عن صحتك .

- أعرف . ثم اتنى أمرتك أنا نفسى بالأمس أن تزورنى . تلك
كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل . على أتنى تنبأت بأنك
ستسارع الى المجئ

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منقّرة كريهة ، ونهض فى
الوقت نفسه ليرى حالة أنفه فى المرآة وقد بدا فى وجهه الهم والقلق
(لعله ينظر فى أنفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؛ وفى هذه المناسبة

عدل المندبل الأحمر الذى يلف جبينه وجهه أن يعقده على أنق طريقه •
وقال بلهجة متكلفة :

- لقد اخترت اللون الأحمر ، لأن الأبيض يذكر بالمستشفى •
هيه ! ماذا ورايك من جديد ؟ ماذا يقص الناس ؟ كيف حال شيخك ؟
فأجابه أليوشا قائلا :

- حاله سيئة جدا ، وقد يموت فى هذا النهار •
ولكن الأب لم يصنع الى جواب ابنه ، وكان قد نسى السؤال الذى
ألقاه عليه •

قال المجوز بدون تمهيد :

- خرج ايفان • انه يهيم جميع المكائد لينتزع من ميتكا* خطيئته •
ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشّرة :
- وذلك هو الهدف الوحيد الذى جاء من أجله الى هنا •
فسأله أليوشا :

- هل باح لك بهذا فعلا ؟

- طبعاً • قال لى ذلك منذ زمن طويل ؟ ماذا كنت تظن اذن ؟
اعترف لى بهذا منذ ثلاثة أسابيع • ما أحسب أنه جاء الى هنا ليزبحنى
خفية هو أيضا • فلا بد أن يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث فى هذه
المدينة •

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا رهيا :

- ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

- صحيح انه لم يطلب منى مالا ، ولن أعطيه قرشاً واحداً على كل حال . انتى أريد ، يا ألكسى فيدوروفتش المحترم جداً ، أن أعيش فى هذا العالم أطول عمر ممكن ... ضع هذا فى ذهنك ! ... لذلك سأكون فى حاجة كبيرة الى كل كوبك مما أملك .

ثم أضاف وهو يسير فى العرقه طولاً وعرضاً ، واضعاً يديه فى جيبي مبدله الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفى خفيف أصفر اللون :

- وكلما طعنت فى السن وتقدمت فى الشيخوخة ازدادت حاجتى الى المال . أنا الآن ما أزال رجلاً ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاماً ، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتأزل عن رجولتى . واذ أنتى سأشيخ طبعاً ، فسأصبح منفراً ، فلا يأتين الى من تلقاه أنفسهن راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها ولاغنى عنها . لذلك ترانى الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسى وحدها يا بنى العزيز ألكسى فيدوروفتش ... ضع هذا فى بالك ... ذلك أنتى أعزم عزماً قاطعاً جازماً - اعلم هذا أيضاً - على أن أسترسل فى خلاعتى الى آخر أيام عمري . ان الخلاعة تلتطف الحياة : جميع الناس يعيون الخلاعة ، ولكنهم جميعاً يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم يتعاطونها سرّاً على حين أنتى أتعاطاها علانية . ان صراحتى وسنداجتى هما اللتان تعرضانى لهجوم ونقد تلك العصبه القاسية من الواعظين بالأخلاق . أما جتتك يا ألكسى فيدوروفتش فانتى لا أريدها لنفسى ... اعلم هذا ... ان الانسان اللائق ليس له فى الجنة ما يعمل ، هذا اذا وجد انسان لائق ، وسيكون من غير الحشمة أن يذهب مثل هذا الانسان الى الجنة . وفى رأى أنا أن المرء يموت فيتنهى بموته كل شئ . ينام ثم لا يستيقظ ، ولا شئ بعد الموت أبداً . صلّوا من أجلى بعد موتى اذا شئتم ، وان لم

تشاموا فلا تصلوا ... شيطان يأخذكم ... تلك هي فلسفتي كلها .
لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى . ان
ايفان انسان متبجح . ليس هو بالعالم قط . بل انه ليس على شيء من
ثقافة حقيقية . انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس
صامتا . ذلك كل ما يعرف أن يفعله ايفان هذا .

كان أليوشا يصنى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة .
وتابع الأب كلامه قائلاً :

— لماذا لا يكلمنى أبدا من تلقاء نفسه ؟ انه اذا كلمنى كان يمثل
تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا* فساتزوجها متى
حلا لي أن أتزوجها . ما دمت أملك المال ، فيكفى أن أريد حتى أبلغ
كل شيء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه
يعيش هنا ويراقبني حتى لا أتزوج ، ويحضر ميتا في سبيل تحقيق هذا
الهدف على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعدني عن هذه المرأة
بهذه الوسيلة (كأنه يظن أنني سأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج
جروشكا !) . ومن جهة أخرى سيسلب ميتا خطيبته اذا تسنى لميتا أن
يتزوج جروشكا . ذلك هو الحساب الذي يجريه . انه وغد ، صاحبك
ايفان هذا !

قال أليوشا :

— ما أشد احتياجت اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس .
فالأفضل أن ترقد في السرير .
أجاب الأب المعجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه في
هذه اللحظة وحدها :

- قد تكون على حق فيما تقول • انك الآن تصحني فما أغضب •
ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى •
معك وحدك انما أتيح لى أن أقضى لحظات ممتعة مبهجة ، وأن أكون طيباً ،
لأننى شرير فى العادة •

قال أليوشا مبتسماً :

- ما أنت بشرير •

- اسمع يا أليوشا • لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص
ميتكا ، ولا أدرى حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيراً . أنا لا أجهل
أن • الموضة ، الرائجة الآن هى أن يُعدَّ احترام الأبناء آباءهم وهماً
باطلاً وعادة سخيفة • ولكن القانون لا يبيح ، حتى فى عصرنا هذا ،
أن يجزَّ ابن أباه المعجوز من شعره ، وأن يركل وجهه بكعب حدائه ،
فى منزله نفسه ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه
فيما بعد • فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس •

- وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

- ثنائى ايفان عن عزمى • على أننى لا أحفل برأى ايفان ، وانما
خطر ببالى شئ • آخر •••

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو
يكاد يهمس همساً :

- لو اعتقل هذا الوغد، لعلمت • هى بأننى أودعته السجن ، فهرولت
تسعى اليه فوراً • أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن
يقتلنى أنا الشيخ المعجوز ، فقد لا تهجره ولكنها ستعودنى ••• ذلك هو
طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع

حب المناقضة وحده ! اننى أعرفها حق معرفتها ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها •

- لا ••• شكرا ••• لا أريد ••• ولكننى فى مقابل ذلك سأخذ هذا الرغيف من الحُبز اذا سمحت بذلك •

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من خبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات ، ودسّه فى جيب ثوبه • ثم أضاف يقول فى خشية وهو يتفرس فى وجه أبيه :

- أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا •
قال الأب :

- أنت على حق • ان الكونياك يثيرنى بدلا من أن يهدئنى • لذلك لن أشرب الا كأسا واحدا ••• كأسا واحدا ••• الكونياك هناك ، فى الخزانة الصغيرة •••

وأدار مفتاح « الخزانة الصغيرة » ، فملأ كأساً ، وأفرغه فى جوفه ، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردّ المفتاح الى جيبه •
- يكفينى هذا • كأس واحدة لن تقتلنى •

قال أليوشا وهو يتسّم :

- ها قد عدت طيباً •

- طيب ؟ همّ ••• اعلم أننى أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك ••• أما الأوغاد فأننى أعرف كيف يجب أن يُعاملوا ! لم يذهب فانكا* الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس على :

انه يجب أن يعرف هل سأعطي جروشنكا مالا كثيرا اذا هي جاءت •
انهم أوغاد ! هم جميعا أوغاد ! أما ايفان فانتى لا أعترف به ابناً لى •
من أين جاء ، هذا الوبش ؟ انه ليس مثلنا ، ان له نفساً غير نفوسنا !
أظن أنتى سأورثه شيئاً من مال ؟ ألا انتى لن أكتب حتى وصية •••
اعلم هذا ! ••• وأما ميتكا فلا أسحقه كما تُسحق خنفساء قذرة • انه
يتفق لى أن أسحق خنفساوات فى الليل ، فتطلق طقيقاً جافاً حين تطفس ،
فبهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا ••• واذا قلت : صاحبك ،
فلأنك تحبه ••• أنا أعرف ذلك • ولكن تعلقك به لا يقلقنى ••• على
حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لانتابنى خوف ، ولخشيت عندئذ على نفسى •
غير أن ايفان لا يحب أحدا • انه ليس منا • ان أناسا مثل ايفان ليسوا
بشرأ مثلنا ، هم تراب أثارته الريح ••• تذهب الريح ويعود يتساقط
التراب ••• لقد خطرت ببالى فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء
اليوم • أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته ألف روبل
أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقى ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ
على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون
جروشنكا طبعاً ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم ألبوشا يقول :

- سوف •• سوف •• أسأله •• واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة
آلاف ، فمن الجائز أن •••

- خطأ ! لا تكلمه فى هذا الامر ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل
تسمع ؟ لقد غيرت رأيى منذ أمس • هي فكرة غبية خطرت ببالى •
لن أعطيه شيئاً ، لن أعطيه كوبكا واحدا ، لأننى فى حاجة الى هذا المال
أنا نفسى (كذلك صرخ الأب الصجوز وهو يحرك ذراعيه) • لسوف
أعرف كيف أسحقه كما تُسحق خنفساء ، بدون هذا • لا تقصص عليه

شيئا ، والا فقد تراوده آمال • ثم انه ليس نمة ما تفعله عندى • فإذهب
الآن ، امض الى ديرك • ولكن قل لى : هل تريد خطيبته ، هل تريد
كاترين ايفانوفنا تلك التى حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنى ،
هل تريد أن تزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس ، فيما أظن ،
أليس كذلك ؟

— انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث !

— هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته !
انهن يحبين شبابا عابثين لاهين أوباشا ! ثق أن هذه الأنسة الشاحبة الراقية
لا تساوى شيئا • ما أكبر الفرق بينها وبين ... الخلاصة ! آه لو كان
لى عمره ووجهى أيام شبابى (لقد كنت أجمل منه فى صباى) • اذن
لكانت لى غزوات أنا أيضا • ألا انه لشقى ! أما جروشنكا فلن ينالها ،
لن يحظى بها • • لأمرغته فى الوحل ! • •

استمر حق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات • ثم قال
بلهجة جافة خشنة :

— اذهب الآن • لا عمل لك اليوم هنا •

اقرب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبله فى كتفه • فسأله الأب
دهشاً :

— لماذا هذه القبة ؟ سوف تلتقى بعد الآن • أم تُراك تقدر أننا لن
نلتقى قط !

— لم يخطر ببالى هذا • لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد •
— ولا خطر ببالى أنا أيضا • وانما ألقيت عليك هذا السؤال سهواً
وغفلة •

كذلك قال المعجوز وهو ينظر الى ألبوشا قلقاً • وفيما كان ألبوشا
يتبعد صرخ الأب يناديه :

— لحظة • انتظر لحظة ! تعال الىّ فى أقرب فرصة • سأذيقك
ما أعدّه من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعال
حتماً ، هل فهمت ؟ تعال منذ الغد ، هل سمعت ؟ منذ الغد !

وحين أُغلق الباب وراء ألبوشا ، اقترب المعجوز من الخزانة
الصغيرة مرة أخرى فأفرغ فى جوفه نصف كأسٍ دفعة واحدة • ثم
دمدم يقول وهو يتخننح :

— سأتوقف عن الشراب الآن •

ثم أقفل الخزانة ، وردّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعد ذلك الى
غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشمر بأنه منهك مرهق • وسرعان
ما نام •

لقاء مع تلامذة



أليوشا نفسه قائلاً حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة هو خلا كوفاً : « الحمد لله على أنه لم يُلْقَ علىَّ أسئلةٌ عن جروشنكا ، فلو فعل لاضطرت أن أحدثه عن مقابلة الأمس » .

وقد قدَّر أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعاراً أثناء الليل ، وأن الخصوم يستعدون للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة ، وأن الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً . قال يحدث نفسه : « الأب حائق سىء المزاج خيث النية وقد نبئت فى رأسه فكرة لن يتخلى عنها ... ودمترى ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخاً واصراراً منذ أمس ، وأن قلبه هو أيضاً قد امتلأ حقداً ومقتاً وغباً . ولا شك أنه أخذ يبيت أمراً ... أوه ! يجب علىَّ حتماً أن أستطيع رؤيته فى هذا اليوم ، يجب أن أراه اليوم مهما كلف الأمر » .

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلاً . فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها شيء من خطورة الشأن طبعاً ، ولكنها أحدثت فى نفسه أثراً قوياً جداً . كان قد اجتاز الميدان الى شارع ميشيل الذى يوازي « الشارع الكبير » ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها فى جميع الاتجاهات حفر وقنوات صغيرة) ؟ وانه ليسير فى هذا

الزقاق اذا هو يلوح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبة من التلاميذ هم جميعا أطفال تراوح أعمارهم بين التاسعة والحادية عشرة فى أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم ذلك الكيس الصلب الذى يحمله التلاميذ ، ويحمل بعضهم على العنق كيساً لئلا من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدى دراعة ، وبعضهم يرتدى معطفا قصيرا ، وبعضهم يتحمل جزمة عالية على ساقيها أخايد ، من تلك الجزمات التى يجب استعمالها الاطفال الذين يدلهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بجرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شئ . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه أيضا فى موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم فى العاشرة أو الحادية عشرة يعجبونه كثيرا أيضا . لذلك أحب فجأة ، رغم الهموم التى كانت ترهق نفسه ، أن ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم فى حديث . فلما اقترب منهم متفرساً فى وجوههم الملونة المتشعبة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاة ، حتى أن بعضهم يحمل حصتين اثنتين . ورأى فى الجهة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه قريبا ، طفلا آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على العنق ، وأغلب الظن أنه فى العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبى يراقب عصبة التلاميذ الستة الذين يقابلونه ، وكان واضحا أنه يمدحهم أعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تمطعان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبيا أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدى دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

— أيامَ كنتَ أحملُ أنا كيساً مثلَ كيسك ، كانتِ العادةُ أنَ نضعه
فى الجنبِ الأيسرَ ، حتىَ تقاله اليدُ اليمنى بسهولة أكبر . أما أنتم
فالكيسُ يتدلى عندكم على الجهةِ اليمنى ، فلا تستطيعون إمساكه على وجه
مريح .

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عقوية* ،
دون أن يعمد الى أية حيلة نفسية يتوود بها الى الطفل ويكسب ثقته .
ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفال ،
ولكسب ثقة عصبية من الاطفال خاصة ، هى أن تدخل فى الحديث معهم
على الوجه الذى عمد اليه أليوشا ، أى أن تخاطبهم جادا فى أمور محسوسة
ملموسة جاعلا نفسك نداءً لهم ، واقفاً على قدم المساواة معهم . وكان
أليوشا يدرك ذلك بفریزته .

— ولكنه أعصر !

كذلك أسرع يجيب واحد من الصبية جرىء الهيئة قوى الجسم
ظاهر الصحة يبدو فى نحو الحادية عشرة من عمره .
وأخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدثون الى أليوشا .
وقال تلميذ ثالث :

— وهو يستعمل يده اليسرى أيضا فى قذف الحجارة .

وفى تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبية الأطفال ، فلامس
الأعصر الصغیر لكنه أخطأ رغم أنه قد قُذِفَ بمهارة واحكام وقوة . ان
ذلك الصبى الرابط فى الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر .
هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :
— هيا يا سموروف .. سدّد اليه .. ارمه بحجر ! ..

ولكن سموروف (الصبي الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما يادر الى الرد فوراً ، فرمى الصبي الواقف فى الجهة الأخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض . وسرعان ما ردَّ الصبي على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثانٍ ، ولكنه رمى فى هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه فى كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً . وكانت جيوب الصبي مملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائي حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف .

صاح الصبية يقولون وهم يضحكون ضحكاً قوياً :

- انه حاقد عليك أنت ، حاقد عليك أنت ! لقد استهدفك خصيصاً .
ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ أصبح أم لا ؟
هياً بنا يا أولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً فى هذه المرة !

وطارت حجارة ست فى آن واحد معاً . فأصاب احداهما الصبي فى رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث أن نهض حاققاً سمورواً ، وأخذ يقصف عصابة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف فى الاتجاهين . وكانت جيوب عدة أطفال حول أليوشا مملأى هى أيضاً بقذائف .

صاح أليوشا يقول لهم :

- ما هذا الذى تفعلونه ؟ ألا تستحون ؟ أسته على واحد ؟ سوف تقتلونه .

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف فى مسار القذائف ليحمى بجسمه الصبي الواقف فى الجهة الأخرى من القناة . فهدأ ثلاثة أطفال أو أربعة بضع لحظات .

وصرخ صبي يرتدى دراعة حمراء ، صرخ يقول بصوت حائق :
- هو الذى بدأ . انه قاطع طرق . . لقد جرح كراسوتكين فى

المدرسة بطعنة موسى • وتدفق دم كراسوتكين غزيراً • ولم يشأ
كراسوتكين أن يشكوه • ولكنه يستحق عقاباً •••

— ماذا كان السبب ؟ لاشك أنكم شاكتموه فى البداية ، أليس
كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

— ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر • لقد عرفك • انه
يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن • هياً بنا ! عليه يا أولاد !
لا تخطئه يا سموروف !

وعاد القصف يتالى من الجهتين ، أشدَّ هولاً فى هذه المرة •
فأصيب صدر الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة
ألم ، وأخذ يبكى ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الراية فى اتجاه شارع
ميشيل ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة :

— آه •• خاف •• هرب •• جبان •• خرقة مبللة ••

وعاد الصبى الذى يرتدى دراعة حمراء ، عاد يقول لأليوشا وقد
اشتعلت عيناه بحمى :

— أنت لا تعرف حتى الآن أى لص هو هذا الصبى يا كارامازوف •
ان قتله قليل عليه •

وكان واضحاً أن هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً •

— ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشر مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تتسم بالسخرية •

وتابع الصبى نفسه كلامه فقال :

- أأنت ذاهب فى اتجاهه ، نحو شارع ميشيل ؟ أدركه اذن ...
أنظر ! لقد توقف ... يبدو عليه أنه ينتظر ... وهو يتفرس فيك ...
وردّد الصبية الآخرون يقولون جوفة واحدة :

- هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك •

- أدركه اذن ... واسأله هل يحب ليفة الحمام ! أسأله هذا
السؤال ، وسترى ...

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين • فنظر اليهم
أليوشا ونظروا اليه صامتين •
وصرخ سموروف يقول له محذراً :
- اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يقتلك ...
قال أليوشا :

- لن أكلمه عن ليفة الحمام ، لأننى أظن أنكم تشاكسونه وتغيطونه
بهذه الكلمة • ولكنى سأعرف منه لماذا يكرهكم هذا الكره •

فأجابه الصبية ضاحكين :

- فسأله اذن ، أسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الراية ، ماراً قرب
سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبي المعتزل •

قال الأطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يعتمد عنهم :

- انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك من

خلف ، كما فعل بكراسوتكين •

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه • فلما اقترب أليوشا
كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً فى التاسعة من عمره على أكثر تقدير ،

ضعيفاً هزيراً له وجه مستطيل نحيل تسطح فيه عينان واسعتان دكناوان
ترشقانه بنظرات شريرة خبيثة • انه يرتدى معطفاً عتيقاً جسدأ أصبح
صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ؛ وذراعاها العاريتان تخرجان من
الكمين المسرفين فى القصر • وعلى السروال تُرى رقعة عند الركبة
اليمنى • ومن ثقب فاجر فى حذاء القدم اليمنى يظهر الابهام مطلياً بالجبر
من قيل الاخفاء • وجيا الرداء متفتختان بما فيهما من حجارة •

وقف ألبوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظرة سائلة ،
فأدرك الصبى من نظراته فوراً أنه لا ينوى أن يضربه • فبدأ عليه شىء من
التأس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

— أنا واحد وهم ستة ... ولكننى سأغلبهم دون أية مساعدة •

قال ذلك واشتعلت عيناه •

قال ألبوشا :

— لا شك أن احدى تلك الحجارة قد أوجعتك كثيراً •

فهتف الصبى يقول :

— ولكننى أنا أصبت سموروف فى رأسه •

سأله ألبوشا :

— هم يزعمون أنك تعرفنى ، وأنتك رميتنى بالحجر عامدا •

فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على ألبوشا نظرة قاتمة •

قال ألبوشا ملحاً :

- أما أنا فلا أعرفك ، أفهل تعرفنى أنت ؟

فصرخ الصبى فجأة يقول بصوت حائق ولكن دون أن يتحرك
فكأنه ينتظر شيئاً ما :

- دعنى وشائى • انك تزعجنى وتضايقنى !

قال أليوشا :

- طيب • سأصرف • ولكن لاحظ أنتى لا أعرفك ولم أناكسك
أبدا • وقد ذكروا لى كيف يمكننى أن أغيفك ، ولكنى لا أنوى أن
أفعل ذلك • استوعك الله !
ومضى أليوشا •

- راهب منافق ! انك ترتدى تحت مسموحك سروراً !

بهذا الكلام قذف الصبى أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة ، وسرعان
ما وقف وقفة دفاع ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن •
ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبى
صامتاً ، ثم ابتعد ... ومع ذلك فإنه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر
بألم شديد فى ظهره • لقد أصابه الصبى بحصاة ضخمة جدا هى أثقل
حصاة كان يحملها فى جيوبه ؟ فاستاء أليوشا ، والتفت من جديد ، فقال
للصبى :

- آ ... آ ... تهاجم من خلف ؟ لقد صاق الصبية اذن حين ذكروا
أنك تضرب بفتة كما يفعل جبان !

غير أن الصبى وقد استبد به غيظ شديد قد رماه فى هذه المرة
بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمى وجهه بذراعه ، اذن
لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه •

هتف أليوشا يقول له :

— ألا تستحي ؟ ماذا فعلت لك ؟ ماذا صنعت بك ؟

صمت الصبي جامداً في مكانه وقد لاح في وجهه الشر والعدوان .
كان مقتنعا بأن أليوشا سيهجم عليه في هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا
لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حق
مسموم كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن
يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقي
الشرير قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكتف يديه ،
وعض خنصره عضّة قاسية رهيبة ، غارساً أسنانه في لحم الاصبع بكل
ما أوتي من قوة مدّة ثنتين . صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن
يسحب اصبعه من بين أسنان الصبي . فلما أرخى الصبي أسنانه أخيراً ،
أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هي المسافة السابقة نفسها .
كانت العضّة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت إلى العظم . انبجس
الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ،
فقضّى في هذا التضميد دقيقة كاملة . وفي أثناء ذلك ظل الصبي واقفاً
في مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة
وقال له :

— هل رأيت الجرح العميق الذي أحدثته في اصبعي ؟ أحسب أن
هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأي ؟ فقل لي الآن : بماذا أسأت إليك ؟ أي
أذى ألحقته بك ؟

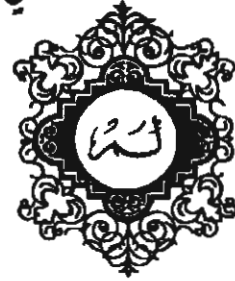
فنظر إليه الصبي مشدوهاً . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة
الهادئة نفسها :

— أنا لا أعرفك .. صدقني .. وهذه أول مرة أراك فيها .. ومع

ذلك لا أستطيع أن أتصور أنني لم أسيء إليك أية إساءة ، فلو لا أنني
أسأت إليك لما عذبتني هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذي
اقترفته في حقك ، وما هو الشر الذي أنزلته فيك ، قل لي ! ...

ولكن الصبي ، بدلا من أن يجيب ، أخذ يبكي بكاء قويا جدا على
حين فجأة ، ثم ولَّى هارباً ... وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو
شارع ميشيل ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف
سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكي . وعزم أليوشا عزمًا قاطعاً
على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية ، ليجلو
هذا السر الذي أحدث في نفسه أثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع
لهذا .

في منزل السيدة هوخلاكوفا



يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة
هوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف
من طابقين ، تملكه السيدة هوخلاكوفا . انه من
أجمل مباني مدينتنا . ورغم أن السيدة
هوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها في مقاطعة أخرى تملك فيها أرضا ،
وعاشت كذلك في موسكو حيث تملك قصراً خاصاً ، فقد احتفظت بالمنزل
الذي تملكه في مدينتنا والذي ورثته عن آباؤها وأجدادها . يجب أن
نذكر مع ذلك أن أرضها في مدينتنا هي أوسع الاراضي الثلاث التي
تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة هوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا
نادرا حتى الآن .

هرعت السيدة هوخلاكوفا تستقبل اليوشا في الدهليز ، وسألته
بسرعة عصبية :

— هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتي بشأن المعجزة الجديدة ؟

— تلقيتها .

— هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردّ الشيخ

الى هذه المرأة ابنها .

قال أليوشا :

— سيموت الشيخ فى هذا اليوم !

— أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هذا • آه ••• ما أشد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر •• بل اليك •• اليك أنت ! خسارة أنتى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، المدينة كلها قائمة قاعدة ! جميع الناس ينتظرون ••• ولكن هل تعلم أن كاترين ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟
هتف أليوشا قائلاً :

— صحيح ؟ هذا حظ موفق ! ساراها اذن عندكم ! لقد أصرت أمس أن أزورها اليوم •

— أعرف هذا • أنا على علم بكل شىء • لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً ••• عرفت كل قطاعات تلك ••• المخلوقة ! هذه فاجعة ! ••• لو كنت فى مكانها ••• حقا انتى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هذا الكريه دمترى فيدوروفتش ؟ آه ••• يارب ! ••• أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا ••• لا أقصد أخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل ما فعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معها ان حديثاً فحماً يدور بينهما ! ••• ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيع ، شىء فظيع ، أؤكد لك ••• تمزق حقيقى ! قصة لا يصدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيّع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة • أوه ! لقد انتظرت وصولك ••• كنت فى حاجة الى أن أراك • يستحيل على ، يستحيل

على إطلاقاً أن أشهد هذه الدراما مكتوفة الأيدي عاجزة كل العجز !
سأقص عليك هذا فيما بعد . ولكن يجب على الآن أن أقول الشيء
الأساسي . . آه . . كدت أنسى الشيء الأساسي . هل تستطيع أن تشرح
لي لماذا أصيبت ليزا بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم نبأ وصولك
حتى ألتمت بها نوبة هستريا !

— ماما ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا .

بهذا ارتفع صوت ليزا المزقزق ، من خلال شق الباب ، في الغرفة

المجاورة .

ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود
التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحسن المرء برغبة في
الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتي
من قوة . ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق ، فأيقن أن ليزا تنظر اليه
من خلاله ، جالسة على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها .

— أنا مصابة بنوبة هستريا ؟ لو أصبت بنوبة هستريا لما كان في
هذا غرابة يا ليزا ، لما كان فيه غرابة البتة ! . . . ان نزواتك المستمرة
الدائمة خليقة بأن تجعلني مجنونة . ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش
الى أى حد هي مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، وكانت لاتزيد
على أن تن . . . ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح
لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه . وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من
الأمر شيئاً ، وأن علينا أن نهدأ ، فرى كيف ستتطور حالتها . ان
هرتسنشتوبه لا يعرف أن يقول شيئاً غير هذا الكلام ! يجيء فيصرخ في
كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى
أطلقت صرخة وألتمت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة
هنا .

- ولكننى يا ماما لم أكن أعرف أبداً أنه هنا . فانا لم أهرب الى هذه الغرفة بسببه هو .

- غير صحيح يا ليزا ! لقد أسرعتُ جوليا ببلغك أن ألكسى فيدوروفتش وصل ، وكنت قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله .

- ماما ، ملاكى الصغير ! ليس هذا الذى تدعيه بالدعابة الفكهة .
فاذا أردت أن تصلحى الخطأ وأن تقولى شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغنى ألكسى فيدوروفتش المحترم جداً ، الذى وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجرى بعد الذى حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه .

- ليزا ، انك تسرفين ! تقى أننى سأأخذ فى حقك اجراءات قاسية آخر الأمر . من ذا الذى يسخر منه أو يضحك عليه ؟ انتى من جهتى سعيدة جداً برؤيته . أنا فى حاجة اليه ، أنا لا غنى لى عنه . آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقاوى وتعاستى ! ...

- ماذا بك يا ماما ، يا ملاكى ؟

- هى نزواتك يا ليزا ، وتقلب مزاجك ، ووظأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التى عانيت فيها الحمى ، ثم هذا الطبيب الفظيع الأبدى هرتمسنتوبه ، هذا الطبيب الأبدى خاصة ، هذا الطبيب الأبدى الذى لا مفر منه ولا معدى عنه ! ثم كل شيء ، نعم كل شيء ، كل شيء اطلاقاً ... وحتى هذه المعجزة ! ... لا تستطيع أن تتصور يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى الاضطراب الذى أحدثته هذه المعجزة فى نفسى ! ثم هذه التراجيديا التى تجرى الآن فى الصالون والتى يستحيل على احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة ... أؤكد لك ذلك منذ الآن ، وأنبهك اليه وأحذرك منه ... ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل

لى : هل يعيش الأب زوسيمى حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه ...
يا رب ! ... أصبحت لا أدري ماذا يقع لى • فى كل لحظة أغمض عيني ،
فأرى أن كل شىء باطل لا معنى له ...
قاطعها أليوشا سائلا :

– هل أستطيع أن أرجوك أن تعطينى خرقه نظيفة أعصب بها
اصبعى ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمنى الآن ايلاًماً شديداً •
نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من
الدم ، فأطلقت السيدة هوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت
حاجبيها •

– يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! ...
ولكن ما ان لمحت ليزا اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت
الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمر صارم :
– ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال مسخيفة !
آه ... يا رب ! كيف أمكنت أن تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان
يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماء قبل كل
شىء ، هاتوا ماء ... يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم نغطس اصبعك
فى الماء البارد تهدئة للألم • لن يكون عليك الا أن تبقى اصبعك مدة
طويلة فى الماء ... اسرعى يا ماما ، هاتوا ماء على الفور ، وهاتوا طستاً !
ثم صاحت تقول فى عصبية :

– هلاً أسرعتم !
كانت ليزا مروعة مذعورة ، فقد أحدث جرح أليوشا فى نفسها
أثراً رهيباً •

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

— ألا يستحسن أن نستدعى الدكتور هرتسنشتوبه ؟

— سوف تقتلينى يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه سيجى . فيقول
انه لم يفهم من الأمر شيئاً • هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك
يا أماء ، ناشدتك الله ، أو قولى لجوليا أن تسرع • ان جوليا بطيئة دائماً ،
ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام به فى حينه • أسرعى يا ماما ، انك
تميتينى •••

تدخل أليوشا يقول وقد ألقه جزعهما :

— ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشئ •

وهرعت جوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستاً مملوءاً بالماء • ففطس
فيه أليوشا اصبعه •

— ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا شاشاً ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك
المائل المكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح ••• لقد
نسيت اسمه ••• عندنا منه ••• نعم عندنا منه ••• أنت تعرفينها يا ماما ••
تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين •• ويوجد
هنالك شاش أيضاً •••

— سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا ليزا ،
أرجوك ، أتوسل اليك ••• انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش
الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة هوخلاكوفا مسرعة • وذلك بعينه ما كانت ترغب
فيه ليزا وتمناه •

قالت ليزا لأليوشا متعجلة :

- أجب عن سؤالى أولاً : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم تكلم بعد ذلك فى أمرٍ آخر • هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستقضى الى حين وصول الأم ثمينة جداً فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه بالتلاميذ ، موجزاً مقتضباً مسقطاً تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة • فبعد أن أصفت ليزا الى روايته ، ضمت يديها احدهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة حائقة ، كأن من حقها أن تؤنبه وتقرعه بعد الآن :

- فيم كنت تفكر ؟ كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى عر أنت أيضا ... ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى الشرير ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سرأ • شئ آخر الآن • قل لى أولاً يا ألكسى فيدوروفتش : هل أنت قادر رغم الألم على أن تتحدث فى أمور لا تشوقك ولا تهملك ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً • - أنا قادر على ذلك كل القدرة • ثم اتنى أصبحت لا أشعر بالألم فى أصبى •

- لأنك غطستها فى الماء • يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يذفاً بسرعة • جوليا ! أسرعى الى القبو فائينى بقطعة من نلج ، واثينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد • ها هى ذى قد مضت الآن فلنتحدث جاداً : هل لك أن ترد الى فوراً ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيّا ردها الى بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظة أخرى ، وأنا لا أريد لأمى أن ... - ليست الرسالة معى !

- كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد • الرسالة معك ، فى هذه الجيب ! ... ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة • رد الى الرسالة فوراً ! اعطينها !

- تركتها فى الدير •

- لا بد انك أصبحت تحسبنى طفلة صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة ... انها مهزلة خبيثة سيئة ! ... أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق • أما الرسالة فيجب أن تأتيني بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن • بل يجب أن تأتيني بها فى هذا اليوم نفسه ، قطعاً ... اننى أطلب ذلك ، وأصرُ عليه !

- أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل • ذلك اننى عائد الى الدير ، ولن أراك قبل انقضاء يومين أو ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيم •

- أربعة أيام ؟ هذا جنون ! قل لى بصراحة : هل سخرت منى كثيراً ؟

- لم أسخر البتة •

- لماذا ؟

- لأننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا •

- أنت تهيننى !

- أبدا • اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فوراً : لتجربين الأمور على هذا النحو فمتى مات الأب زوسيم ، سأضطر الى مغادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأقدم الى الامتحانات • حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا • وسوف أحبك • فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن

أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك ،
وقد أمرنى الشيخ بأن أتزوج ...

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة
شديدة :

— ولكننى ديمة ، مقعدة ، كسيحة •

— سأجر الكرسي المتقل بنفسى اذا لزم الأمر • ثم اننى على يقين
من أنك ستكونين قد شفيت أثناء هذه المدة •
قالت ليزا بعصية :

— ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا
المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ ... هذه ماما قد رجعت • أحسب
أنها عادت فى الوقت المناسب • ماما ، لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟ أنت
دائماً تتأخرين ! هذه جوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

— أوه ! ليزا ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أرجسوك ، أستحلفك
بالله ! ... ان هذا الصراخ يطيش عقلى ... ليس ذنبى أنك قد دسست
هذا الشاش فى غير الموضع الذى ذكرته لى ... لقد بحثت عنه فى كل
مكان فلم أظفر به ... انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة •

— تماماً ... عامدة ! لم يكن فى وسعى أن أتنبأ مع ذلك أنه سيصل
بجرح فى اصبه ، ولو قد تنبأت بذلك لأخفيت الشاش فعلاً ! ماما ،
ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقاً !

ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى أخذت أرى أنك لا تشفقين
على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من نساء
على كل حال ! لبتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أفاسى



ليزا هوخلاكوفا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تقتلني ، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذي يرهقني بل جملة الأمر جملة الأمر ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله .
قاطعتها ليزا تقول وهي تضحك مرحة :

ـ كفى كلاما عن هرتسنشتوبه يا ماما ! ناوليني الشاش والسائل .
هو مرهم بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى فيدوروفتش .. تذكرت الآن ولكنه نافع جدا . اعلمى يا ماما أنه أقتل فى الشارع مع ضيية صغار ، وأن طفلا قد عضه فى أبعه ! أليس هو نفسه صيا صغيرا ؟
ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما .. تخيلى هذا هل تتصورينه متزوجا ؟ نىء يُميت من الضحك ! أليس هذا فظيما ؟

وكانت ليزا تضحك ضحكها العصبى بلا توقف ، وهي تلقى على أليوشا نظرة مأكرة .

ـ ما هذا الذى تقولينه يا ليزا ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هذا الأمر لا يعينك أما ذلك العصبى الذى عضه ، أفلا يمكن أن يكون مصابا بداء الكلب ؟

ـ ولكن يا ماما ، هل يوجد أطفال مصابون بداء الكلب ؟

ـ ما هذا السؤال يا ليزا ؟ لكأنتى قلت أذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز أن يكون العصبى قد عضه كلب مصاب بداء الكلب ، فإذا هو يعرض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت أصبعك تضميدا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضميد هذا الاتقان ! أما تزال تشعر بوجع ؟

- قليلا جدا •

وسألته ليزا :

- ألا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

- لا تسرفى يا ليزا • لقد تمجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب
بصدد ذلك الصبي ، فأخذت تستعجين استنتاجات ا يا ألكسى فيدوروفتش
ان كاترين ايفانوفنا ، وقد علمت الآن أنك هنا ، تصرُّ على أن تراك
حالا ... انها فى أشد الحاجة الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

- اذهبى اليها وحدك يا ماما ! أما هو فانه لا يستطيع أن يمضى اليها ،
لأن اصبعه توجهه كثيرا ••
فقاطعها أليوشا قائلا :

- كلا ! ... اننى لا أشعر الآن بوجع • فى امكانى أن أذهب
اليها •

- ها ! •• تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ طيب •••

- ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا
أن نتكلم عندئذ ما شئنا أن نتكلم • اننى أحرص فى الواقع حرصا شديدا
على أن أرى كاترين ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأننى أريد أن أرجع الى
الدير فى أقرب وقت •

- خذيه يا ماما ، خذيه ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وقرّ على نفسك
عناء العودة الى بعد مقابلة كاترين ايفانوفنا • ارجع الى الدير رأساً ،

فهناك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر • أما
أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء !
هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

- أنت تمزحين يا ليزا ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت
استطعت أن تنامى قليلا •
وتمتم أليوشا يقول :

- لا أدرى ماذا فعلت حتى ... وعلى كل حال ، سأبقى معك ثلاث
دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق اذا كنت تحرصين على ذلك .
- وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! .. خذيه يا ماما .. ماذا تنتظرين ؟
هذا مخلوق عجيب ، هذا مخلوق مشوه !

- ليزا ! أنت مجنونة ! هيا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليوم
شديدة النزوات ، وأخشى أن تثير أعصابها ... ما أشقى التعامل مع نساء
صصيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة
الى النوم أثناء حديثكما • ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس
بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع ...

- مرحى يا ماما ! هأنت ذى الآن تقولين كلاما لطيفا ! أحب أن
أقبلك •

- وأنا أيضا يا ليزا !

كذلك قالت السيدة هوخلاكوفا لابتها ثم أضافت مخاطب أليوشا
وهما يخرجان من الغرفة :

- اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ...

وراحت تكلمه متعجلةً بصوت خافت ، وقد لاح في وجهها الاهتمام
والجد والتعجب ، قالت :

- لا أريد أن أؤثر فيك ... لن أزيح الحجاب قبل الأوان ،
ولكنك ستري بعينك ما يجري الآن هناك ، وستحكم عليه بقلبك • شيء
رهيب • تمثيلية عجيبة ! ... انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم
هى تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب دمترى
فيدوروفتش • شيء مروّع ! سأدخل معك ، فإذا لم أطرده بقيت لأرى
خاتمة هذا كله •

التمزق في الصالون



الحديث في الصالون يشارف نهايته • ان
كاترين ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ،
رغم أن في وجهها تعبيراً عن عزم وحسم • وحين
دخل أليوشا والسيدة هو خلا كوكا كان ايفان
فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف • انه شاحب الوجه • لاحظته
أليوشا في قلق • ذلك أن أليوشا قد اتضحت له ، في تلك اللحظة ، شبهة
كانت تعذبه منذ زمن طويل ، فاذا هو يرى الآن حل ذلك اللغز المقلق
الذي كان يشغل باله • ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ،
منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترين ايفانوفنا ، وأنه خاصة
ينوى أن « يتزعمها من ميتا » فعلا • ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام
الآخيرة أن يصدق هذا الامر ، لأنه كان يبدو له عجيبا شاذا شيطانيا ،
غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك • انه يحب أخويه كليهما ويخشى
أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس ، وأن تتشب بينهما خصومة كهذه
الخصومة • على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس
ان حب ايفان لكاترين ايفانوفنا يسعده وبهجة ، لأنه سهل وضعه
ويسر أموره • وكان أليوشا يتساءل : لماذا ؟ لأنه يتيح له أن يتزوج

جروشنكا ؟ ولكن هذا فعل يائس وحل رهيب ! ثم ان أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترين ايفانوفنا تحب أخاه دمترى جداً قوياً عارماً . ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسه الليلة البارحة .

يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترين ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع ايفان ، وأنها انما تحب دمترى كما هو ، على علاته ، رغم ما فى هذا الحب من أمور عجيبة مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قد أثبت فى نفسه على حين فجأة شعوراً معارضا لهذا الشعور تماماً ، لم يتضح له على الفور . ان تعبير « التمزق » الذى استعملته السيدة هوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا يرتعش ، لأنه فى ذلك اليوم نفسه ، أثناء « شبه النوم » الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة « حب التمزق » هذه عدة مرات ، جواباً على أحلام لم تكذب تبديد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترين ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة هوخلاكوفا جازمةً ان كاترين ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها لمباً ، من قبيل الميل الى « التمزق » ، ومن باب التحدى ، أو بسبب اندفاعه شكران غامضة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطراباً شديداً ، وسأله : « ألا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة رغم كل شيء ؟ » . ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان الآن ؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغيرة أنه امرأة مثل كاترين ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، أو على الأقل لا تستطيع أن تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الازعان لارادتها والخضوع لسلطانها (لا على

الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك « يحقق له الخير كله » ، وهو ما يتمناه له أليوشا من جهة أخرى . ولا كذلك ايفان . فان ايفان لن يقبل الرضوخ فى يوم من الايام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؟ أو هذا على الاقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس معرفته بطبع ايفان ، وعلى أساس الفكرة التى قامت فى ذهنه عن ايفان .

هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت فى فكر أليوشا لحظة دخل الصالون . ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : « فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟ » . ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل واضطراب من اطلاق أحكام من هذا النوع ، وأنه قد لام نفسه على ذلك مرارا أثناء هذا الشهر الأخير ، « ما معرفتى أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجزئ لنفسى أن أرى آراء من هذا القبيل ؟ » كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل فى تأملات أو تخمينات وتهديرات فى هذا المجال . ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر فى هذه المسائل . كان يدرك بفريرته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلًا على مصيريهما ، وأنه يحمل فى طياته عواقب ضخمة . « فلتأكل السراطين بعضها بعضا ! » كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث خائفاً عن أبيه وعن أخيه دمترى . معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه سرطانا ، ولعله يعدّه كذلك منذ زمان طويل . أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده سرطانا فى اللحظة التى عرف فيها كاترين ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان على غير ارادة منه ، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة وأبلغ كشفاً عن الحقيقة . فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوثام بينهما ؟ أليس فى هذا مزيد من أسباب الخلاف وعوامل الكره فى داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما فى هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والثناء له ؟ وما

الذى ينبغي أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما • ولكن فى أى مكان بين جميع هذه التناقضات توجد السعادة التى يتمناها لهما ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خطوط هذا الطرف المعقد المتشابك المشوش • وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال • انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة • فتمنى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا عرف ذلك كان سهلا عليه عندئذ أن يخدم قضيتهما • ولكن كل شئ فى حياتهما كان اضطرابا واختلاطا وتعقيدا وإبهاما ، واأسفاه ! فأين يمكن الاهتمام الى غاية معينة وهدف محدد فى داخل ذلك كله ؟ لقد ذكر أمامه تعبير « الميل الى التمزق » أو « حب التمزق » • فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا اللفز كانت تفوت فكر أليوشا •

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترين ايفانوفنا ، حتى أسرع تقول لايفان فيدوروفتش الذى وقف استعدادا للخروج ، حتى أسرع تقول له فرحة فرحا واضحا :

— لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا • أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة •

ثم أضافت تخاطب السيدة هوخلاكوفا :

— ابقى أنت أيضا يا كاترين أوسيبوفنا •

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة هوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش •

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهم أن تسيل من عينيها ، تهدج صوتها بانفعال صادق أليم :

سأتم جميعاً أصدقائى ، أتم أصدقائى الوحيدون فى هذا العالم ..
يا أصدقائى الأخيار ، الأوفياء ...

أحسن أليوشا فى تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد .

وتابعت كلامها تقول :

— لقد شهدت بالأمس ذلك المشهد يا ألكسى فيدوروفتش ...
شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرف أنا ... أنت لم ترنى
فى تلك اللحظة يا ايفان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآنى . لا أدرى
ما الذى رآه فى من رأى فى تلك الظروف . ولكنى فى مقابل ذلك
أعلم علم اليقين أننى لو وجدت اليوم فى موقف مماثل لكان ردئى هو
الرد الذى بدر منى أمس ، مع تلك المواقف نفسها ، وتلك الأقوال
نفسها ، وتلك الحركات نفسها . انك تتذكر يا ألكسى فيدوروفتش
الحركات التى بدرت منى أمس ، وقد اعتقدت أن من واجبك أن تتبنى
... (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) . فأعلم
يا ألكسى فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة قاطعة ، أننى عاجزة
عن الازعان لأى شئ ، عاجزة عن الرضوخ لأى شئ . وأعلم أيضاً
أننى أصبحت لا أدرى فى هذه الساعة أنا أحبه « هو » أم لا . اننى
الآن أشعر نحوه « بشفقة » ، والشفقة علامة حب نافهة مسكينة حقيرة .
وإذا ظلمت أحبه ، إذا ظلمت أحبه رغم كل شئ ، فلن أرثى لحاله ، وإنما
سأكرهه من غير شك ...

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة فى أطراف أهدابها .
واضطرب أليوشا . قال لنفسه : « هذه الغتاة انسان مخلص صادق ،
و ... قد أصبحت لا تحب دمترى ! » .

هتفت السيدة هوخلا كونا تقول :

- هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

- انتظري يا كاترين أوسيوفنا ! أنا لما أفل بعد الشئ الأساسى ،
لم أذكر القرار الذى اتخذته الليلة ولن أراجع عنه • اتنى أوجس أن
قرارى هذا سيعود على بعواقب رهية ، ولكننى أعلم أتنى لن أنكص على
عقبى ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحوال •
لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها • وان صديقى المخلص الوفى ،
ان ناصحى النبيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفسان
فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد
رأى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراء كاملا ، ويشجئنى على المضي
فيما عقدت النية عليه ••• وقد عرف قرارى •••

قال ايفان فيدوروفتش بصوت رفيق لكنه حازم :

- أنا أؤيد قرارك ••• هذا صحيح !

- أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه ••• اغفر لى يا ألكسى
فيدوروفتش اتنى سميتك أليوشا) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش
هو أيضا ، بحضور صديقى ، أنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يد أليوشا الباردة:

- أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا أخى (ذلك أنك أخى العزيز
الغالى) ••• أنا على يقين ••• أنا أحس أن جوابك وتأيدك سيميدان
السلام الى نفسى رغم كل ما أقاميه الآن من ألوان العذاب ، واتنى سأقبل
مصيرى وأرضى قدرى بعد أن أسمع لكلامك ••• نعم ، أنا أحس
ذلك !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة فانية :

- لا أعرف ما هو الامر ! ولكننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على
سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى ...
ثم أسرع يضيف ، لا يدري أحد لماذا :
- على اتنى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً .

- فى هذه الامور ، يا ألكسى قيدوروفتش ، المسألة الآن مسألة
شرف وكرامة وواجب ، وربما شيء آخر أيضا ، شعور لا أستطيع أن
أعرفه ، ولكنه فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة
لا تقاوم تهيب بى أن ألبه . وأجمل فأقول اتنى قد اتخذت قرارى ،
واليك هذا القرار : هبّ تزوج هذه ... المخلوقة (هنا أصبح صوتها
مهيباً) ... هبّ تزوج هذه المخلوقة التى لن أغفر لها أبداً ، أبداً ...
فانتى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! ... لن أتركه بعد اليوم ،
وسأظل دائماً الى جانبه (كذلك قالت بنوع من حماسة غريبة حزينة) *
لن أعلق بكمه طبعاً ، لن أحاصره بوجودى دائماً ، لن أعذبه بحبى
أبداً ... بالعكس ... سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة نائية ،
نائية كل النأى اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ،
وأسهر عليه طوال حياتى لا أكل ولا أمل . فإذا شقى مع الأخرى
- وذلك أمر لن يتأخر كثيراً - فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد
فى صديقة مخلصه ، أختاً حنوناً ... أختاً لا أكثر ... طبعاً ... ذلك
أن كل شيء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود فى المستقبل . يجب أن يعلم
يومئذ اتنى أخت له حقاً ، أخت مخلصه ضحّت فى سبيله بحياتها كلها .
سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيراً ، سوف أجبره على أن
يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىّ بلا خجل . سأكون الاله
الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيائته وعملاً قاسيته
أمس بسببه ! يجب أن يعرف وأن يرى فى جميع أيام حياته اتنى وفيه له

الى الأبد ، وأنتى أحفظ العهد رغم أنه خائى وهجرنى • سأكون ...
سأصيح ... سأجعل نفسى أداةً لسعادته (أحسب أنتى لا أجيد التعبير
عما بنفسى) ، سأجعل نفسى آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتى ،
طوال حياتى ... ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قرارى ! ان ايفان
فيدوروفتش يؤيدنى تأييدا كاملا •

كانت تلهث • لا شك أنها كانت تمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا
أرصن وأبرع وأيسر ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريمة ، مترجمة
عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف • ان المرء يحس ،
فى جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأوس وحاجتها الى تأكيد
عزتها وكبرياتها من جديد • وقد أدركت هى ذلك على حين فجأة ،
فأظلم وجهها والتمع فى عينيها تعبير شرير • ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته
بها شفقة • وتدخل ايفان فى تلك اللحظة يقول :

— أنا لم أعبرَ الا عن رأى الشخصى • ان عواطف من هذا النوع
كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطفَ مصطنعةٍ
مقتعلة هي ثمرة جهد ارادى شاق أليم معذب ، أما عندك أنت فلا ...
لو تصرف امرأة أخرى هذا التصرف لكنت على خطأ ، أما أنت فلا ...
لست أدري كيف أعبرَ عن شغورى ، ولكننى ألاحظ أنك صادقة الى
أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب •

فلم تستطع السيدة هوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

— هى صادقة ، ولكن خلال لحظة واحدة ! ما قيمة قرار عابر سريع
تأخذه وهى تحت وطأة اهانة الأوس ؟ ذلك هو السبب فى قرارها هذا !

كان واضحا أن السيدة هوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم نفسها

فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة .

فقال ايغان بعنف مكظوم ، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

— صحيح ... غير أن ما يمكن أن لا يكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعاً مؤثماً مردّه الى حادث الأمس ، لا يمكن الا أن يبقى مدى الحياة لدى امرأة لها طبع كطبع كاترين ايغانوفنا . ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا كلاماً يُطلق فى الهواء ووعداً ما يلبث أن ينسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترين ايغانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمراً قد قد يكون قاسياً أليماً حزيناً ، ولكنه لا مفر منه ولا عدول عنه . ان كاترين ايغانوفنا ستجيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها . ان حياتك ، يا كاترين ايغانوفنا ، ستقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لمواطنك وبطولتك وشقائك . على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيل شيئاً فشيئاً الى رضى هادىء عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار جرىء فيه كبرياء ... نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى ... وستتصرين آخر الأمر ... وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادىء وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك ...

تكلم ايغان بلمهجة نافذة فيها غضب مكبوح . وكان واضحاً أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرّك سخريته .

هتفت السيدة هوخلاكوفا تقول :

— هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترين ايغانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

ـ ألكسى فيدوروفتش ! هلاً قلت رأيت أخيراً ! انتى أشعر بحاجة
شديدة قاهرة الى معرفة رأيك .

نهض أليوشا عن الديوان .

وتابت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة من خلال دموعها :

ـ ليس هذا بشئ ، ليس هذا بشئ البتة . انتى مرهقة الأعصاب
بسبب هذه الليلة التى قضيتها أرقّة مسهدة . ولكنى ، بحضور صديقين
مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية ذلك لأننى أعلم أنكما لن
تركانى أبداً .

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

ـ آسف . قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن
أتركك فترة طويلة .

ـ الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترين ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها . ثم أردفت تهتف
قائلة بصوت تغير فجأة ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت
آثارها لا ترى :

ـ ولكن . . . ولكن هذا يقع فى حينه يجىء فى وقته !
يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى
نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى
فى حالة توتر ممزق ، قد حلت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل
السيطرة ، وتبدو راضية ذلك الرضى الذى يعقب فرحاً مباغتاً .

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبسم ابتسامة مهذبة :

- أوه ... لا يذهبن بك الظن الى أنتى ابتهجت لتركك ...
طبعاً لا ... ان صديقاً مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ،
وأن ينسب لى مثل هذه العواطف ... بالعكس : انتى لأحزن أشدّ
الحزن حين أتصور أنتى سافقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان
فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتّهما بكثير من الحرارة) • ولكنه حظ
سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجاتى ، فى
موسكو ، الطرف الذى أنا فيه • حدثتّهما عن فطاعة الأيام التى عشتّهما
هنا ، فأما مع آجاتى فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشئ من المداراة •
وانى لواقفة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما
على حقيقة الأمور • لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من
عذاب وأنا أتسائل كيف أتدبر أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة
... ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الأشياء كتابةً ...
أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً : متلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شئ !
آه ... ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى •
صدقنى ! ... وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه مامن شئ
يمكن أن يحل عندى محلّ صداقتك ...

وختمت كاترين ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب
الغرفة :

- سأكتب الرسالة حالا •

فسألتها السيدة هوخلاكوفا بلهجة لازعة حاتقة :

- وألبوشا ؟ ألبوشا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على
أن تعرفى رأيه ؟

فأجابتها كاترين ايفانوفنا قائلة :

— ما نسيته •

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة ومودة :

— ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترين أوسيوفا ؟

وتابعت تقول :

— ما زلت مصرّة على ما قلته • اننى لا غنى لى عن معرفة رأيّه • بل اننى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه أن يتخذ لى قرارا • وسأبغ ما ينصحنى به • فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظلماً الى سماع كلامك ... ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

— ما كان لى أن أصدق هذا فى يوم من الايام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الايام !

— ماذا ؟

— يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدة ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تقبطين لسفره ، وأنت على عكس ذلك يحزنك فقدّه • وهذا أيضا قلته عامدة ... كما فى المسرح ... كما لو كنت تمثلين تمثيلاً ! ...

— كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك سألت كاترين ايفانوفنا بحرارة وقد بلغت أوج الدهشة •
لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها •
واستأنف أليوشا كلامه :

- وفيما ترددت على مسامحة أنك حزينة لحرمائك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكو يملؤك ارتياحاً •
- الى ماذا تريد أن تصل ؟ ما الذى تريد أن تستتجه ؟ اننى لا أفهم •

- أنا نفسى لا أعرف تماماً ... لقد ترامت لى الحقيقة فجأة كأنما فى ضوء برق ...
وتابع ألبوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر :

- أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك • اليك ذلك الضوء الذى رأيته : انك لا تحبين أخى دمترى • ولعلك ما أحبيته فى يوم من الأيام ... ثم ان دمترى أيضا لا يحبك ... فيما أظن ... لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك فى الماضى • وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب ... اننى أتساءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا ... ولكن لا بد أن يعزم أحد أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً ... ما دام لا يريد أحد هنا أن يعترف بها ...

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول بصوت فيه شيء من الهستيريا :

- أى حقيقة تعنى ؟ عن أية حقيقة تتكلم ؟

فتمتم ألبوشا يقول وهو يحس أنه يهوى فى هاوية :

- عن أية حقيقة أتكلم ؟ اليك الحقيقة التى أتكلم عنها • استدعى دمترى - وأنا أعرف كيف يمكن العثور عليه عند الضرورة - استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان • انك لا تزيدنى على أن تعذبى

ايقلن ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحيينه - وأنت انما تعذينه لشغفك
بالتمزق ... لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمري ... حباً لا تشعرين به
البتة ... وتحاولين أن تقنعى نفسك به .

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت .

- ما أنت ... ما أنت الا أبله صغير ... ما أنت الا يوروديفوى
... ذلك أنت !

كذلك قالت كاترين ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحبت
وجهها شحوباً شديداً وظهر على شفتيها انهما تنعقدان غضبا مسعورا .

وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك في تلك اللحظة ، ونهض عن
مكانه حاملاً قبسته بيده . وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر في وجهه تعبير
لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوماً ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ،
ويفيض صراحة مطلقة على سجيته :

- أنت مخطئ يا أليوشا . فان كاترين ايفانوفنا ما أحبتنى فى يوم
من الأيام . وكانت تعلم منذ البداية أننى أحبها ، رغم أننى لم أحدثها فى
حبى قط . كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحيينى . لا ولا كنت صديقها
فى ظرف من الظروف . ان هذه المرأة التكبرة لم تكن فى حاجة الى
صداقتى . وهى لم تحتفظ بى الى جانبها الا لتستطيع اراءاء ظمئها الى
الانتقام ، الا لتسأرنى ، نعم منى أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التى
أنزلها فيها دمتري منذ أول لقاء بينهما ... ذلك أن ذكرى هذا اللقاء
الأول قد بقى فى نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغا . هذه هى كاترين
ايفانوفنا ! وأنا لم أجد الى هنا الا لأصنى اليها متحدةً عما تحمله من
حب لدمترى . وسأنصرف الآن . ولكن اعلمى يا كاترين ايفانوفنا أنك
لا تحيين حقاً الا دمتري . وستحيينه مزيداً من الحب على قدر ماسيدلك

مزيديا من الاذلال • ذلك هو تمزقك كله ! فأنت انما تحينه كما هو ؟
أنت انما تحين فيه الرجل الذى يهينك ! ولو أصلح نفسه فى يوم من
الأيام ، اذن لكفت عن الاهتمام به فوراً ، ولأشحت وجهك عنه حتماً .
ولكنك محتاجة اليه ، كيما تستطيعي أن تأملی منظر وفائك البطولى ،
وكيما يتاح لك أن تأخذى عليه خياناته ... وذلك كله زهواً وصلفاً
وتكبراً ! ان ههنا جحيماً من مذلة تريدنيها وتحمليتها ، والكبرياء هى
التي تدفك دفعاً الى السعى وراء هذا الجحيم ... اننى ما زلت فى ريمان
الشباب ، ولقد أحييتك فأسرفت • والآن أدرك أن ابتعادى صامتا أحفظ
لكرامتى أنا ، وأخف وطأة على جروحك أنت • ولكننى سأسافر الى
مدينة نائية ، ولن أراك بعدئذ أبداً • لقد سئمت من أن أكون شاهداً أبدياً
على تمزقاتك النفسية ! ... أحسب أننى لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج
فى قلبى ويدور فى خلدى • ولقد انتهى الأمر على كل حال ... لقد
قيل كل شئ • ... فوداعاً يا كاترين ايفانوفنا • وليس من حقك أن
تؤاخذينى وأن تحقدى على ، لأن العقاب الذى أناله أنا أقسى كثيراً من
العقاب الذى تتأليه أنت • حسبى عقاباً أننى لن أراك بعد اليوم أبداً •
وداعاً ! لا تمدى الى يدك • لقد آلمتى ابلاًماً فيه من الوعى والعمد
ما يجعلنى لا أستطيع أن أغفر لك فى هذه اللحظة • قد أنساك فى
المستقبل ، أما الآن فلا أستطيع أن أصافح يدك •

ثم أضاف ينشد هذا البيت من الشعر :

بالشكر يا سيدتى لا احفل *

وقد أنشد هذا البيت من الشعر وهو يتسم ابتسامة يجبر نفسه
عليها اجباراً ، مبرهنناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن فى الحسبان ،
أنه يستطيع هو أيضاً أن يقرأ الشاعر شيلر فى هوى وشفف ، وأن

يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل . ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت .
صاح أليوشا يناديه بصوت ثائه ، ضاماً يديه احدهما الى الأخرى :
- ايفان ، ايفان ! ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ في نفسه يقين مباغت :

- لا ... لا ... انه لن يعود ... لن يعود مهما يكن الثمن ...
أنا أعرف ذلك . هي غلطتى ، هي غلطتى أنا ... اننى بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايفان أشياء شريرة ظالمة ... ما كان ينبغى له أن ..
هذا ظلم ! ...

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة غير مترابطة ، كمجنون !
وفى تلك اللحظة مضت كاترين ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة .
وهمست السيدة هوخلاكوفا تقول لأليوشا فى أسف ولوعة :

- ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه . بالعكس : لقد تكلمت كملك . سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان .

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً ،
رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد . ولكن كاترين ايفانوفنا رجعت فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملةً ورقتين تهديتين كل منهما بمائة روبل .

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة هادئة طبيعية الى أقصى حد ،
كأن شيئاً لم يحدث :

- لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش . منذ أسبوع ...

نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع ٠٠٠ نار دمتري ثورة عنيفة ظالمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو نوع من « كاباريه » ، التقى فيه دمتري ، فى ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك الضابط الذى يستعين به أبوك فى بعض شئونه . وقد غضب دمتري من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدري لماذا ، فأمسكه من لحيته وجره الى الشارع جرأ سفيها على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا الضابط ، وهو صبي يختلف الى مدرسة المدينة ، صبي صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكيا ناشجا منتجبا متوسلا الى أخيك أن لا يؤذى أباه ، متضرعا الى شهود الحادثة أن يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكن أحدا لم يسمع له ولم يصغ اليه ، وانما كانوا جميعا يضحكون . معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد واستنكار عظيم حين أتذكر هذا السلوك المخزى الذى سلكه أخوك فى ذلك الظرف ، حين أتذكر تلك الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد فى هذا العالم غير دمتري فيدوروفتش بأهوائه الجامحة وعيوبه الكثيرة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتى لذا ترانى أتبه فى سردها واضطرب وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الاهانة ، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنييجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش ، فسُرح لا أدري تماما . وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامراته المجنونة فيما أظن ، صاروا أخيرا الى حالة رهية من العوز والفاقة . انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين

فجأة • عندئذ خطرتَ أنت ببالي ••• أو قل اننى قدّرت أن •••
لا أدري ماذا دهاننى حتى صرت لا أعرف ماذا أقول ••• ان كلامى
مضطرب • أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب
الشهم ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا الرجل
متذرعاً بحجة مناسبة ، متعللاً بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هذا
الضابط ••• أوه ••• رباه ! اننى أخلط كل شيء ••• فتعطيه هذه
المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة ••• كما لا يستطيع أحد أن
يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه
الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات بأسلوب مرهف حكيم
محاذر • انه سيقبل هذه المساعدة حتماً ••• أقصد أن عليك أن تلج فى
سبيل أن يقبلها ••• هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن ••• ولكن لا •••
يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاءً له حتى لا يشكو أمره الى
القضاء (يبدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات) ،
وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة فى مد يد المساعدة اليه ••• وليعلم أيضاً
أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطيبة دمترى فيدوروفتش ،
لا من دمترى فيدوروفتش نفسه ••• الخلاصة : ستعرف كيف
تصرف ••• كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستدبر
الأمر خيراً منى ••• انه يسكن فى • شارع البحيرة • عند امرأة من سكان
المدينة اسمها كاليكوف ••• قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ،
أرجوك ، أتوسل اليك ••• أشعر الآن بأننى متعب ••• أشعر شئ من
الاعياء ••• الى اللقاء •••

قالت ذلك واستدارت على عقيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء
وراء الباب أن وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة ••• وكان
أليوشا مع ذلك يشعر بحاجة قسوية الى أن يكلمها ••• كان يريد أن

يستغفرها ، أن يعتذر إليها ، أن يتهم نفسه أمامها ، لأن قلبه كان يفيض
فى تلك اللحظة حياً ، فلم يعزم أمره على مبارحة الغرفة . ولكن السيدة
هوخلاكوفا أسكنه من يده وقادته الى خارج الحجرة ، ثم توقفت فى
الدھليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة هوخلاكوفا بصوت خافت :

– انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى
أقصى الحدود . ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما فى بعض اللحظات ،
وكم يعاودنى الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الى السعادة بكل
شئ ! يجب علىّ يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشئ كنت تجهله
حتى الآن . اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وعمتيها ، أى جميعا ،
وحتى ليزا ، كنا نتمنى وتوقع ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعزم
أمرها أخيرا على أن تقطع صلتها بدمترى فيدوروفتش الذى تؤثره أنت ،
وذلك لأنه لا يريدنا ولا يحبنا ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذى
هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذى يحبها أكثر
مما يجب أى شئ فى هذا العالم . حتى لقد دبّرنا مؤامرة لبلوغ هذا
المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هو السبب فى أننى لم
أسافر بعد ...

صاح أليوشا يقول :

– ولكنها عادت تبكى من شعورها بالمدلة .

– لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا فى هذه
الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوى صوت ليزا الناحل من وراء الباب يهتف :

– ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين بك الى الهلاك !

وردّ أليوشا الحزين الذى لا ميل الى عزائه ، ردد يقول وهو يشعر بخزى شديد من غضبته ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء واضطراباً :

– شئ رهيب ! أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة لا تغفر !
فقلت له السيدة هو خلا كوكا :

– بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك ... لن
أمل من تكرار هذا ...

وصاح صوت ليزا الناحل يقول مرة أخرى :

– كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

– لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها
تحب ايفان ، فأقلت منى ذلك الكلام الأحمق ... ما عسى يحدث
الآن ؟ ...

– عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميئينى يا ماما ! ألقى
عليك أسئلة ولا تحيين ! ...

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

– كاترين ايفانوفنا فى حالة سيئة ... الأنسة تبكى ... تتخبط
كأنها فى نوبة هستريا ...

وعادت ليزا تصبح قائلة فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

— هلاًّ قلت لى يا ماما أخيراً ما هى القضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب
الآن بنوبة هسترية ، لا هى ! ...

— هدئى نفسك يا ليزا ، ناشدتك الله ! انك تقتلينى بهذا الصراخ !
ان عمرك لا يسمح لك بعد أن تعرفى كل شىء كما يعرفه الكبار .
سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن أن أطلعك عليه . آوه !
رباه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها ... نوبة عصبية ... ولكن
هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسن جداً أن تتابها نوبة من
هذا النوع ... ذلك ما يجب أن يحدث ... أنا أقف دائماً ضدّ النساء
فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا جوليا ، امضى اليها فقولى
لها انتى آتية اليها حالاً . سأدركها فوراً . على كل حال ليس عليها الا
أن تحمّل نفسها تبعه خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه
لن يسافر . ليزا ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك
لا تصرخين . فأنا التى صرخت . سامحى أملك يا ليزا ، ولكننى سعيدة ،
سعيدة جداً ، سعيدة سعادة رهيبية ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم
كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟
انه يشعر بأنه مثقف جداً ، عالم جداً ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه
شاب حقاً ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل
التجربة ، قليل التجربة جداً . آه ... ما أروع هذا ، ما أجمله ،
ما أعظم أثره فى الفؤاد ! هو مثلك تماماً ! .. وهذا البيت من الشعر
الذى رواه ، هذا أنت أيضاً ... أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها ..
أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمة التى عهدت بها اليك ، ثم
ارجع الى هنا بأقصى سرعة . ليزا ! ألسنت فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك
بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات ..

وخرجت السيدة هوخلاكوفا أخيراً بسرعة •

حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، أن يدخل على ليزا ، ولكن الباب كان مغلقاً • وهتفت ليزا تقول له :

- أبداً • • • • • مستحيل • • • • • لن أطيع الآن أن تجيء الى • • • • • تكلم من خلف الباب • ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه •
- هو قولى كلاماً سخيفاً غيباً يا ليزا !

صاحت ليزا تقول :

- لا أسمع لك أن تمضى هكذا !

- ليزا ! ان بى حزناً كبيراً • سأعود بعد قليل • ان عذابى كبير ، كبير جداً ، صدقنى •
وخرج مسرعاً •

التمزق في العزلة



كان حزنه كبيراً جداً قلما شعر بمثله من قبل •
 لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكبت
 « حماقة » ! وفي أي موضوع ؟ في موضوع
 حب • • • • • أنا أعلم حق العلم أنني لا أفهم في
 هذا الأمر شيئاً ، فكيف أمكن أن أدعي ادراك شأن من هذه الشؤون
 ادراكاً واضحاً ؟ • • كذلك ردّد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر
 خجلاً وحسرة • • ليس العار الذي أشعر به شيئاً يُذكر ، فهو العقاب
 الذي استحقه وإنما الشقاء الحق هو أنني سأكون سبب كوارث جديدة • •
 لقد أرسلني شيخى العالم لأوحد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ،
 أفبهذه الطريقة يكون ذلك ! • • وتذكر أليوشا في تلك اللحظة اليدين
 اللتين أراد أن يضع أحدهما في الأخرى ، فازداد اضطرابه إلى أقصى
 حد • وأخيراً قال لنفسه دون أن يتخفف من ألمه ، ودون أن يسرّى
 عنه : « لئن كان تصرفي مخلصاً في تلك المناسبة ، فيجب أن أبرهن في
 المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل » •

إن المهمة التي كلفته كاترين أيفانوفنا أن يقوم بها ، تضطره أن
 يذهب إلى « شارع البحيرة » • وأخوه دمترى يسكن غير بعيد عن هناك ،
 في زقاق جانبي • فقرر أليوشا أن يرى أخاه على أية حال قبل أن يمضي

الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده فى منزله • كان أليوشا يشعر أن أخاه سيحاول أن يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه أراد أن يعثر عليه مهما كلف الأمر • والوقت يمضى فى أثناء ذلك سريعا • وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهى تلاحقه حيثما يذهب •

هناك نقطة أشارت اليها كاترين ايفانوفنا ، فأنارت اتباعه اثاره قوية • لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذى كان يركض الى جانب أبيه باكياً متجنباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه فى تلك اللحظة : لا بد أن هذا الولد هو الصبى الذى عضه فى أصبعه ، حين سأله فىم أساء اليه • وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبى نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً • وقد صرفته هذه التأملات لحظة عن همومه الثقيلة ، واذا استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر أن لا « يجتر » بعد الآن طويلاً فكرة تلك الخرافة التى بدرت منه وتلك « المصيبة » التى سببها ، وأن لا يرهق نفسه بعد الآن بحسرات عقيمة وأسف لا جدوى منه ولا طائل تحته ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور • وقد سرى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل • ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل فى الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذى أخذه من عند أبيه ، فأكله ، فاسترد شيئاً من قوته • لم يكن دمترى فى المنزل • فلما سأل أليوشا أهل المنزل - وهم تجار عجوز وامراته وابنهما - أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات متفطرة فيها شك وحذر وتخوف •

قال العجوز لأليوشا الذى ألح فى السؤال عن أخيه :

- انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلمله سافر •

فبدأ أليوشا أن جواب المعجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دتمبرى .
قال أليوشا يسأل المعجوز مرة أخرى ، متعمدا أن يذكر هذه
المعلومات السرية :

— أترأه عند جروشكا ؟ أم تراه مختبئاً عند توماس مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه أن تكون مذعورة . فقال
أليوشا لنفسه : « هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه . . . »

فقل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى « شارع البحيرة » ، أمام منزل
ساكنة المدينة الصغيرة كالكوفا ، وهو خربة عتيقة متداعية ليس لها الا
ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤها قدر جدا رأى فيه أليوشا بقرة .
ان الدخول الى الفناء يتم عبر حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى
بمسكن صاحبة البيت المعجوز وابنتها المتقدمة في السن كثيرا هي الأخرى .
والمرأتان تبدوان صماوين قليلا ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله
عن الضابط عدة مرات . وفهمت احدهما أخيرا أن أليوشا انما يسأل
عن الرجل القاطن في دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهة
الأخرى من حجرة الدخول ، مشيرة الى الغرفة التي هي أفضل غرفة
في الدار . ان الضابط المتقاعد يحتل في الواقع غرفة واحدة .

وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمّ أن يفتحه ، ولكنه لم يلبث
أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من الصمت المطبق الذي
يعيم في الجو . لقد كان يعرف مما قالته له كاترين ايفانوفنا أن الضابط
المتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه : « انهم نائمون ، أو انهم
أحسوا بمقدمي فهم ينتظرون دخولي عليهم ، فالأفضل أن أقرع الباب . »
وقرّع الباب فعلاً ، فأجيب ، ولكن الجواب لم يجيء رأساً ، وانما تأخر
نحو عشر ثوانٍ .

قال صوت خشن حانق :

- من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فإذا هو يجد نفسه فى غرفة واسعة سعة كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد علقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبين يمتد سريران فوق كل منهما غطاء من نسيج التريكو ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الأحجام من النوع الهندى قد نُصِّد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بجبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكتملها كرسي ، والسرير لا يرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى ترى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ؛ ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشعر فيها المرء باختناق . وعلى المائدة ترى قدر صغيرة ذات مقبض ، وصحفة فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز ناقصة ، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأسير تجلس امرأة لها شيء من مظهر سيدة . انها ترتدى ثوباً من قماش هندى ، وهى ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا يشبان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجئ أليوشا خاصة بتعبير نظرتها الذى ينم عن تساؤل وتعالى فى آن واحد . وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى أن تدخلت هى فى الحديث ، لم تكف عن تقيل نظرتها

بين الرجلين مبررة عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستلاء نفسه . والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن أن تعد دمية الوجه ، ترتدى ثيابا فقيرة ولكنها محتشمة ؛ لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة ؛ وكانت تنفرس في أليوشا باحتقار وازدراء . وعلى اليمين ، قرب السرير أيضا ، تجلس امرأة . أخرى هي مخلوقة بائسة ، فتاة في نحو العشرين من عمرها ، حذاء الظهر مقعدة متيسرة الساقين ، كما سُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ؛ وتُرى عكازاتها في الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين راتعتين تشعان طية ، وهي تلقى على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل في نحو الخامسة والأربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهى من أكل بيضة مقلية . انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضا ، تذكر لحية الحمراء المتناثر شعرها بليفة من الليف الذى يستعمل فى الحمام . (ان هذا الشبه بين لحية الرجل وبين ليفة الحمام قد خطف بصر أليوشا رأساً ، فسرعان ما برق فى ذهنه تفسير ليفة الحمام الذى استعمله تلاميذ المدرسة ، كما تذكر أليوشا ذلك فيما بعده . واضح أن هذا الرجل هو الذى صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن فى الغرفة رجل سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقفة فى الزاوية اليسرى :

— هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى أين
يجىء

ولكن الرجل الذى اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية ، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

- فى هذه المرة أخطأت يا بربارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ممتصورتـ

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

- هل لى أن أسألك ما الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ...

فى هذا المكان الحقيقى ؟

تفرس أليوشا فى هذا الرجل الذى يراه أول مرة • ان فى مظهره شيئاً من التكسر والتعجل والحنق • لا شك أنه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً • وفى وجهه تئرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى فى الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرء اجتماعهما ••• ان هيئة هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع والاستكانة ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته من جديد ؛ أو قل بتعبير أدق ان هيئة هيئة رجل يشعر برغبة قوية فى أن يضرب ، ولكنه يخاف خوفا قويا من أن يضرب هو نفسه • ان المرء يلمح فى أقواله ، وكذلك فى نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية دنيئة مبتذلة هى تارة شريرة خبيثة ، وهى تارة أخرى خائفة وجلّى ، فهو لا يستطيع أن يجربها على نمط واحد ، حتى لتتأثر وتضطرب فى بعض اللحظات • لقد ألقى سؤاله عن « المكان الحقيقى » وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملاً عينيه ، بالغا من الاقتراب من أليوشا أن أليوشا تراجع خطوة الى وراء بغريزته • كان الرجل يرتدى معطفاً حقيراً مهترئاً رثاً خلقاً ، قاتم اللون ، مرقعاً فى مواضع كثيرة ، متسخاً ببقع كبيرة • أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربّعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى أى مكان • والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أذناه وانشمر ، فكأن لابسـه صبى طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيراً قصيراً عليه •

قال أليوشا يجب عن سؤال الضابط المتقاعد :

- أنا ... أنا ألكسى كارامازوف •

- لى شرف معرفة ذلك من قبل •

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر • ثم
أضاف يقول :

- فاسمع لى أن أقدم لك نفسى أنا أيضا : الضابط الرائد
سينيجيريف - س* • ولكن هل لى أن أعرف الهدف الذى ترمى اليه
من ...

- لم أجب له لهدف معين • كل ما أردته هو أن أقول لك بضع
كلمات باسمى ... اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً ...

- فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسي ! تفضل فاجلس ... أليس
هذا ما يقال فى الدرامات الكلاسيكية : تفضل فاجلس !

قال الضابط المتقاعد ذلك وتناول كرسيًا بحركة مباغتة عنيفة (هو
كرسي بسيط غير منجد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط
الغرفة تقريباً ؟ ثم تناول كرسيًا آخر من ذلك النوع نفسه فجلس عليه
أمام أليوشا ، ولكنه بلغ من تهريبه من كرسي أليوشا أن ركب الرجلين
يحتك بعضها ببعض •

- اسمى نيكولا ايلتش سينيجيريف ، نعم ، رائد سابق فى سلاح
المدفعية بالجيش الروسى • وانتنى لأظل ضابطاً رغم عيوبى ووزائلى التى
هوت بى الى الخيض • ولقد كان ينبغى أقول الرائد - س ، لا الرائد
سينيجيريف ، ذلك أنتنى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل
«س» • تلك عادة ناشئة عن الانحطاط •



سنيچيريف

بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

قال أليوشا وهو يتسم ابتسامة متحرجة :

- نعم • ولكن هل يعود المرء هذه العادة عامدا أم هو يعودها على غير ارادة منه ؟

- بل على غير ارادة منه ، شـهـد الله ! يمينا ما كنت أتـكـلم بهذه الطريقة فى الماضى ! ولكن حرف «س» قد هبط على لسانى أثناء سقوطى ، كهبوط الذباب على القاذورات • ذلك يحدث بتأثير قوة عليا • ولكنى أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لى أن أعرف السبب الذى جعلنى أستحق شرف زيارتك ؟ اننى أعيش هنا فى ظروف لا تؤهلنى للقيام بواجبات الضيافة •

قال أليوشا :

- أنا انما جئت ••• من أجل ذلك الامر الذى •••

فقاطعه الرجل سائلا :

- أى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

- أمر لقائك ذاك بأخى دمترى فيدوروفتش •••

- أى لقاء تعنى ؟ ها ••• ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم فى هذه المرة ركبته •

ودقت شفتاه فى تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل •

تمتم أليوشا يسأله :

- أية ليفة ؟ لست أفهم !

فصاح من وراء الستارة صوت " عرف أليوشا فوراً أنه صوت الصبي
الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبي يقول :

- بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت اصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات
مضطجعا على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبي مفطى
بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحاً أنه مريض ؟ واذا صدق
ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحرق الى أليوشا
بغير خوف ولا وجل ، واثقاً أنه لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد
أن يقول : " أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى
شيئاً . . . "

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

- عضك فى اصبعك ؟ أنت من عضه فى اصبعه ؟

- نعم أنا . كان يقتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق
الحجارة . وكان واحداً وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرماني بحجر ،
ثم رماني بحجر آخر مستهدفاً رأسى ، فلما سألته ماذا فعلت له ، انفض
على فجأة فعضنى فى يدى ، لا أدري لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يشب عن كرسيه :

- لأجلدنه ، لأجلدنه !

- ولكننى لم أجدى ، لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث لتعاقبه . اننى
لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو .
- أفصدقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدقت أنتى سأجلد عزيزى

الطيب الشهم ايلوشا * ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أنت نحرص
على هذا اذن حرصا شديدا ؟

كذلك قال الضابط السابق ملتفتا نحو أليوشا وقد لاح في وجهه
التهديد كأنه يهم أن ينقض عليه . ثم أضاف :

- يؤسفنى ، يا سيدى العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكنى
أؤثر على ضرب ايلينوشا ، اذا شئت ، أن أبتر الآن أمامك أربعاً من
أصابعى بهذه السكين ، ارضاء لك ... أرجو أن يكون بتر أربع أصابع
من أصابعى كافياً لارواء ظمئت الى الانتقام ، وأن تسمح لى بالبقاء على
الاصبع الخامسة !

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق ، وكانت عضلات
وجهه جميعا ترتعش ، وكانت نظراته تفيض تحدياً واستفزازاً . لقد
أصبح عاجزاً عن كبح جماح نفسه والسيطرة على سلوكه .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :
- أحسب أننى فهمت كل شيء . ان لابتك قلباً طيباً ، فهو يحب
أباه ، وقد هجم على لأننى أخو الرجل الذى أساء اليك ... فهمت الآن
... (كذلك استأنف كلامه يقول مطرقاً مفكراً) ... ولكن أخى
دمترى نادم على فعلته ... أنا أعرف ذلك ... فاذا أذنت له أن يجيئك
الى هنا ، أو حتى أن يلصاك فى ذلك « الكاباريه » نفسه مرة أخرى ،
فسيكون مستعداً لأن يعتذر اليك أمام جميع الناس ... متى رغبت فى
ذلك ...

- أهكذا اذن ؟ تستف لحية الانسان ، ثم يعتذر اليه ، فينتهى كل
شيء ويسوى كل شيء ، أليس كذلك ؟



نينوتشكا ابنة سنيچيريف
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

— كلا ... كلا ! ... انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك •

— معنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من « سموه » أن يجثو على ركبتيه فى ذلك « الكابارية » نفسه — كاباريه « العاصمة الكبرى » — أو حتى فى الميدان العام ، فإذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول •
— نعم ، يجثو على ركبتيه !

— كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عيني ! اننى أقدر هذا الكلام حق قدره ... فاسمح لى اذن أن أقدم اليك أفراد أسرتى • هذه أسرتى : بنتاى ، وابنى ... هذه ذريتى المحترمة • فمن ذا الذى يُعنى بأمرهم ، من ذا الذى يلاطفهم ويداريهم ، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن أن يجنبى ، أنا الانسان الشقى ، من ذا الذى يمكن أن يجنبى ما دمت حيا ، من ذا الذى يمكن أن يجنبى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته أن يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء ... ذلك أنه لا بد لأمثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، شيئا من الحب فى هذا العالم ...

— صحيح ، هذه حقيقة كبرى •
كذلك هتف يقول ألوشا •

فصاحت الفتاة الواقعة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها مبهرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءة تقول :

— ألا تستحى أن تصطنع هذا التهريج ؟ أيكفى أن يظهر معتوه ما حتى تظهروا جميعا بمظهر أناس مضحكين ؟

فأجابها أبوها بلهجة قاسية صارمة ، وهو ينظر اليها مع ذلك نظرة تأييد وتشجيع واستحسان :

- مهلاً يا بربارا نيكولايافنا ... تذرعى بشىء من الصبر ...
دعنى أكمل ما أريد أن أقوله ...

ثم أضاف يقول ملتفتاً الى أليوشا :

- ان لها طبعاً صعباً ... يصدق عليها قول الشاعر :

ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها*

ولكن اسمح لى أن أقدم اليك زوجتى : ايرين بتروفنا ، سيدة
مقعدة ، عمرها ثلاثة وأربعون عاماً ، فقدت استعمال ساقها تقريباً ؛ هى
من أصل وضعى جداً . يا ايرين بتروفنا ، هلاً بسطت أسارير وجهك
قليلاً ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . وأنت يا ألكسى
فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة
لا يتوقع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسىه وتابع كلامه) ... اننى
أقدمك الى سيدة ، فعليك أن تنهض ... اسمعى يا عزيزتى ، هذا ليس
ليس نفس كارامازوف الذى ... الذى ... هم ... هذا أخوه ...
شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً ومسألة ووداعة . اسمعى لى
يا ايرين بتروفنا ، اسمعى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمعى لى
أن أقبل يدك أولاً .

وقبل الضابط المتقاعد يد امرأته باحترام ، بل وبخنان . فرفعت
الفتاة الواقعة قرب النافذة كتفيها وأشاحت بوجهها حتى لا ترى بعد ذلك
شيئاً . غير أن وجه الزوجة الذى كان يعبر عن تساؤل واستعلاء ، هس
وبس على حين فجأة .

قالت :

... تفضل فاجلس يا سيد ألكسى تشرنومازوف ! *

فقال زوجها مصححاً :

- بل كارامازوف ... اسمه كارامازوف •

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

- هي من أصل وضع ، وضع جدا •

قالت المرأة :

- طيب ... كارامازوف ... فليكن اسمه كارامازوف ما دمت

تحرص على ذلك • كارامازوف أو تشرنومازوف ، الاسمان عندي

واحد • تفضل فأجلس يا سيدى • أما لماذا أنهضك ؟ فلأنتى مقعدة ، كما

قال لك ذلك • صحيح أن لى ساقين ، ولكنهما متفتختان اتفاح قادوسين ،

أما باقى جسمى فهو يصوصح • كنت فى الماضى سمينة جدا ، وهأنذا الآن

نحيلة مثل ابرة ...

ردّد الضابط قوله :

- هي من أصل وضع ، من أصل وضع جدا •

فصاحت الفتاة الحدياء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامتة على

كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

- بابا ! أوه ! بابا !

وغطت وجهها بمنديلها •

وقالت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، قالت بلهجة احتقار شديد

عنيف :

- جبان !

وقالت الأم وهى تمد ذراعيها مشيرة الى ابنتيها :

— أنظر ما يحدث لنا • محائب ثم تنقشع • وستنقشع • وستعود
الموسيقى • فى الماضى • حين كنا فى الجيش • كنا نستقبل فى كثير من
الأحيان زيارات كزيارتك • لا أقصد أن أجرح شعورك بهذا التشبيه •
يجب على الإنسان أن يحب جميع الناس • وفى ذات يوم جاءت امرأة
الشماس فقالت : « الكسندر ألكسندروفتش رجل ممتاز ، أما ناستازيا
بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم ! » قلت لها : « لكل امرئ أذواقه
الخاصة • وما أنت الا كرة صغيرة • ولكنك كرة عفة نثة » قالت :
« سنعرف كيف تؤدبك ونردك الى الصواب » ، فأجبتها : « يا سوداء !
من أباح لك حق المجيء الى هنا لتلقى دروساً ؟ » فقالت لى عندئذ : « أنا
أجيئكم بهواء نقى • على حين أن الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد
الجو • ، فأجبتها : « اذا كان هوائى كـريه الرائحة • فاذهبى واسألى
أولئك السادة الضباط • • ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لا يبارحه •
وهكذا حدث لى منذ قليل • أن رأيت • وأنا جالسة هنا • ذلك الجنرال
الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح • ، فقلت له : « يا صاحب السعادة • ان
من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ! » فقال لى : « هذا
صحيح • ليس الهواء هنا نقياً • ينبج فتح الباب أو النافذة • • • هم
جميعاً سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة
أكثر من رائحتى • قلت : « لن أفسد الهواء الذى تستشقه • سأشتري
لنفسى حذاءين • ثم أمضى • مادام الأمر كذلك • • • يا أولادى •
يا صغارى • لا تدينوا أباكم • يا نيكولا ايلتش • يا زوجى الطيب •
أأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك ؟ لم يبق لى الا ايلوشا • • • فهو الذى
ما يزال يحبنى • يعود من المدرسة • فيخمرنى بملاطفاته • وقد جاءنى
أمس بتفاحة • ارحمونى يا صغارى • يا أولادى الذين أعبدهم • اشفقوا

على أممكم المسكينة التي أصبحت الآن وحيدة • بماذا أفسد الهواء الذي
تستشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتعجة على حين فجأة ، فتسكب سيولا
من دموع • اسرع اليها الضابط •

- عزيزتى ، عزيزتى ، حمامتى ، هدئى روعك ، أرجوك ، أتوسل
إليك • الجميع هنا يحبونك ، نحن جميعا نحبك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل ، ثم دغدغ خديها فى رفق ولطف •
ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذى أغرقته الدموع • وتراءت
لألوشا فى تلك اللحظة دموع فى عيني الضابط السابق أيضا • والتفت
هذا فجأة نحو ألوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى امرأته ، وقد استبد به
يأس شديد :

- هل رأيت وهل سمعت ؟

فقدم ألوشا يقول :

- رأيت وسمعت •

وصرخ الصبى وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق
الى أبيه بعينه الملتهتين ، صرخ يقول :

- بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلة بهذا ال... قل له أن
ينصرف !

وهتف بربارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بها
فى هذه المرة غضب شديد فقرعت الأرض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :
- دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزلية البلهاء
التي لا تؤدى الى شيء ! كفى كفى ! ...

فقال الأب :

— حقاً أن لحقك ما يسوِّغه الآن يا بربارا نيكولايفنا ، وسأبني
أمرك على الفور • يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسأخذ أنا
قبعتي ، فنخرج • أريد أن أكلّمك جاداً ، ولكننى لا أستطيع ذلك هنا
ان هذه القاعة القاعدة هناك هى ابنتى نينا نيكولايفنا التى نسبت أن أقدمها
إليك • انها ملاك تجسّد وهبط على الأرض ... ملاك حق نزل من
السماء ... هل فى وسعك أن تفهم هذا الكلام ؟

وعادت بربارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

— ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزاً
قوياً ! ...

— أما هذه التى قرعت الأرض بقدمها ووصفتنى بأننى مهرج منذ
هنيهة ، فهى أيضاً ملاك من السماء ، وهى على حقٍ اذ تعاملنى هذه
المعاملة • لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب أن نفرغ من هذا
الأمر ...

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع ألبوشا ، وجرّه الى الشارع •

وفى الهواء الطلق



الضابط المتقاعد :

— هنا يتنفس المرء ، أما فى مسكنى فيختنق ،
بجميع معانى هذه الكلمة • ستمشى الهوينى •
أرجو أن لا تبث أحاديثى السأم والضجر فى

نفسك !

قال أليوشا :

— هناك أمر أريد أن أحدثك فيه ... ولكننى لا أعرف من
أين أبدأ •

— لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لى • ولولا ذلك لما
جئت الى مسكنى بغير سبب ... اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من
مجيئك هو أن تشكو الى الصبى ؟ ولكن هذا قليل الاحتمال ! ... وعلى
ذكر هذا الصبى ... اتنى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شئ
بحضوره • فسأشرح لك الأمر الآن • لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكف
مما هى الآن ... أعنى بالليفة لحتى ... وأولئك التلامذة هم الذين
سموا لحتى ليفة ... فمنذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش
لحتى هذه ، فى ذلك « الكاباريه » ، وجرنى الى الميدان • وكان التلاميذ

راجعين من المدرسة فى تلك اللحظة نفسها ، وكان ايليوشا بينهم ، فما ان رانى على هذه الحال حتى ارتمنى على صارخا : « بابا ! بابا ! » ، وأمسكنى بدراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتشبث بى ، باكياً صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : « دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له ! » نعم قال هكذا : « اغفر له ! » . وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضة على لحيتى . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه ما حييت ! ...

هتف أليوشا يقول منفعلًا :

— أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه فى ذلك الميدان نفسه ... سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلى يكون أخى .

— آ ... آ ... فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فوراً . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمع لى أن أصف لك روح الفروسية التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد أن جرتنى من هذه اللقطة ، تركنى وقال لى : « أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فإذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهداً ، فأرسله الى : اننى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك حقير دنيء » . هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق . انصرفت بعد ذلك مع ايليوشا ، ولكن هذا المشهد العائلى الجميل النيل قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن أن نستطيع المحافظة على مركزنا كأناش شرفاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت

قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات ، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدياء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى سان بطرسبرج لتدافع عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئا عن ايلوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك أحد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذى سيحدث لهم جميعا ؟ اتنى ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت أخاك الى المباراة فقتلنى ، فما هو الوضع الذى سيصرون اليه ؟ من الذى سيعنى بهم وسيهتم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلنى ، وانما يصينى بعاهة تقعدنى : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فما لا فائدة منه ، أصبح عالة عليهم . من ذا الذى سيطعمنى وسيطعمهم عندئذ ؟ وقد أظطر أن أخرج ايلوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه على مباراة من عواقب . هى كلمة سخيفة ، لا أكثر ...

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهب نظرتة نارا :

- ليستغفرنك ، ليرتمين على قدميك فى وسط ذلك الميدان .
- خطر ببالي أن أشكو الى القضاء . ولكن يكفى أن نرجع الى نصوص القسوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تسأر لى من الاهانة التى ألحقها بى . زد على ذلك آجرافين ألكسندروفنا استدعتنى وقالت لى غاضبة أشد الغضب : « اعدل عن هذه الفكرة ، فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأكشفن اختلاسك للقضاء ، فأبرهن على أنه انما ضربك معاقبة لك ، وستكون أنت الملاحق يومذاك ! » والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتى ، أم أتنى أُمُرت بها فكنت أداة لا أكثر ! اتنى لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت

تقول لى : « واعلم عدا هذا أنتى سأطردك من خدمتى عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجنى منى بعد ذلك قرشاً واحداً . وسأقول كلمة لصاحبى التاجر (بهذا الاسم تسمى عجوزها) ، فيطردك هو أيضاً ، . فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالى اذا استغنى التاجر عن خدماتى ؟ ما عسانى أصنع بعد ذلك فى سبيل أن أكسب رزقى ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقى لى الا هذان الزبوتان بعد أن أصبح أبوك لا يثق بى ، لسبب آخر ... حتى أن أباك يفكر فى جردى الى المحاكم مستنداً الى الايصالات التى وقعتها بامضاءى . فلهذه الأسباب مجتمعة ، انما ارتضيت أن لا أشرع فى شئ . »

لقد رأيت بنفسك الظروف التى تعيش فيها . ولكن قل لى الآن : هل أوجعتك كثيراً غصة صغيرى ايلوشا ؟ انتى لم أجرؤ أن ألقى عليك هذا السؤال أمامه .

- نعم . أوجعتنى كثيراً . فقد كان غاضباً غضباً شديداً . لقد ثار منى أنا للإساءة التى ألحقت بك ، لأننى واحد من آل كارامازوف . لقد انضحت المسألة الآن . ولكنك لم تر كيف اقتسل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة . ذلك خطر جداً . ان من الممكن أن يقتلوه . هؤلاء أطفال ، لا يفكرون . رب حجر . يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته .

- أصيب اليوم بخجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصدر . أصابه الحجر فى موضع يعلو القلب قليلاً ، فوصل الى البيت مزرعاً باكية .

يشن أننا شديداً ، وها . هو ذا الآن مريض ...

- يظهر أنه هو الذى يبادى رفاقه بالهجوم . ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار . والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبى كراسوتكين فى جنبه بطلعة من موسى ...

- قيل لى هذا • شىء مزعج • ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يعجز علينا هذا الحادث وبالأآ •••

تابع أليوشا كلامه قائلاً :

- أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه ، الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذى يتقد فى قلبه •

قال الضابط المتقاعد مؤمناً :

- الغضب ! الغضب ! تلك هى مشكلته • غضب كبير فى كائن صغير • وأنت لما تعرف بعد كل شىء • فاسمح لى أن أقص عليك كيف جرت الأمور فى الواقع • بعد ذلك حادث « الكاباريه » ذاك أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويفظونه ، ويسمونهم ليفة • ان الأطفال الذين هم فى هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة • هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا وحوشاً لا ترحم • لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النحيل وتمرد • رب صبي آخر ، رب ولد فاطر المزاج ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزى والعار من أبيه ، أما هو فقد هبَّ وحيداً ضد جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضاً ••• نعم ، عن الحقيقة ••• ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من أحد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبل يد أخيك متوسلاً اليه « أن يغفر لأبيه » • فانظر كيف يعرف أطفالنا - أطفالنا نحن لا أطفالكم أتم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم - أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم ! ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك • فهم مهما يعيشوا ويكبروا لن يروا أعماق الهوة فى يوم من الايام ! أما ابني

إيليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة فى تلك اللحظة التى قبّل فيها يد أخيك بالميدان ... لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وانحرفت فى كيانه الى الأبد •

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحمياً قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيداً من التوضيح كيف انقرست «الحقيقة» فى نفس إيليوشا •

وتابع الرجل كلامه فقال :

- وفى الليلة التالية اتبته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت • ولم يكلمنى فى الغداة ، وإنما التزم صمتاً يشبه أن يكون مستمراً ، ولكنى لاحظت أنه كان يرقبني ويرصدني من الركن الذى هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهيم واجباته المدرسية • لقد أدركت أنه لم يكن يفكر فى دروسه فى تلك اللحظة • حتى اذا جاء اليوم التالى شربت فأصبحت لا أتذكر شيئاً ... يا لى من شقى ! ... نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى علىّ الكرب والكمد واليأس • وأخذت زوجتى عندئذ تبكى - اتنى أحبها كثيراً - ولكن ماذا تريد ؟ لقد أنفقت آخر كويك أملكه لأسكر فأنسى • لا تحقرنى يا سيدى • ان أصحاب القلوب الحساسة هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم فى بلادنا روسيا • ونمت ، ولم أحفل بإيليوشا • وفى ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصية يعيرونه ، صارخين : « يا ليفة ! أخرج أبوك من الكاباريه مشدوداً من لحية ، فأخذت تركض الى جانبه تستغفر له وتستغفى عنه ! » • وفى اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مهشم الوجه • سألته : « ماذا بك ؟ ، فلم يجب • وكان يستحيل علينا التحدث فى الغرفة ، فلو قد تحدثنا فى الغرفة لتدخلت الأم والبنات فى الحديث ... وكانت بناتى

على علم بالقضية منذ أول يوم • كانت بربارا نيكولايفنا ما تنفك تبدي
استياءها وغضبها قائلة : « مهرجون ! جبناء ! ما عسى يُنتظر منكم ؟ » •
قلت لها : « أنت على حق ، مانحن بقادرين على شيء غير ارتكاب الحماقات
تلو الحماقات • • » وبذلك أرحت نفسي منها • وفي نحو المساء خرجت
أتمزه مع الصغير • يجب أن أذكر لك أنني كنت قد تعودت أن أقوم
بنزهة مع ابني كل مساء • وكنا في العادة نسلك هذا الطريق الذي نسير
فيه الآن أنا وأنت : نخرج من البيت ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة
التي تراها على الطريق قرب السياج • ان البرية تبدأ هنا • المكان خال
جميل • سرت في ذلك اليوم وابني الى جانبي • يدي في يده • ان يده
صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة • انه يشكو من داء في صدره ، ابني هذا •
قال لي فجأة : « بابا ! بابا ! » ، فسألته : « ماذا ؟ » قال : « في ذلك اليوم ،
حينما شدّك • • • » قلت : « ما العمل يا صغيري ايلوشا ؟ » ، قال :
« لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! ان الأولاد في المدرسة يدعون أنه
أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك » • قلت له : « لا ، لا
يا صغيري ايلوشا ، لن أقبل منه مالا في يوم من الايام ! » • أخذ الصبي
يرتجف جسمه كله ، وقبض على يدي بيديه الصغيرتين ، وغمرها بالقبل •
ثم عاد يقول : « بابا ! اطلبه الى المباراة ! فالأطفال يدعون في المدرسة
أنك جبان ، وأنتك لن تطلبه الى المباراة ، وانما ستقبل منه عشر
روبلات • • • » فشرحت لابني عندئذ كيف أنني لا أستطيع أن أبارز
أخاك ، وأطلعت بايجاز على الاسباب التي تعرفها ، فأصغى الىّ بانتباه ،
ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظراته : « بابا ! لا تصالحه أبدا • ولأطلبه
أنا الى المباراة حين أكبر ، فأقتله ! » • وأنا أبوه على كل حال • • •
فاعتقدت أن من واجبي أن أقول له كلمة حق • قلت له : « انه لائم
أن يقتل انسان انسانا ولو في مباراة • • • فصاح عندئذ يقول : « لسوف



إيليوشا
بريشة الفنانة السوفياتية الكسندرا كورساكوفا

أقاتله فى مبارزة حين أكبر ، فألقيه على الأرض بعد أن أسقط له سلاحه بضربة من سيفى ، ثم ارتمى عليه وأشهر سيفى فوق رأسه قائلا له : انتبى أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكننى أعفُ عنك ، فذلك كل ما تستحقه ! » . فانظر يا سيدى فى أى شئ قد فكّر هذا الصبى طوال يومين ، انظر الى الخواطر التى شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين ! لقد ظل يفكر خفية فى هذا الثأر الفروسى ، ولا شك أن هذيانه فى الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر . ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا . ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذه مع رفاقه الا أمس الاول . وأظن أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة . لقد خفت عليه خوفا شديدا حين بلغنى أنه واجه كل تلاميذ فصله وناصبهم العداء وأنه هو الذى تحداهم أولا . ان الغضب يصف فى قلبه ، ويحضه على الاعتداء والهجوم . لقد خرجنا ننتزه مرة أخرى فى يوم من الايام ، فاذا هو يسألنى : « بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن فى هذا العالم ؟ » فقلت له : « نعم يا ايليوشا ، ان الرجل الفنى يملك قدرة لا حدود لها » فقال لى بعد ذلك : « بابا ، سأصبح غنيا أنا أيضا فى يوم من الايام ، وسأصبح ضابطا ، أغلب الأعداء ، فيكافئنى القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن » . وصمت بضع لحظات ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : « أليست هذه المدينة مدينة شريرة ؟ » قلت له : « نعم يا بنى ايليوشا » ليست هذه المدينة محيبة الى القلب كثيرا ، فقال : « فلماذا لا تتركها الى مدينة سكانها خير من سكان هذه المدينة ، لماذا لا تتركها الى مدينة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ؟ » ، فأجبت بأن هذه هى نيتى فى الواقع وأنا ستفاد هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال . لقد أسعدنى أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نتحدث عن هذا الرحيل ، وتناقش

تفاصيله • قلت له : « سنشتري حصانا وعسيرة كارة ذات عجلتين •
نركب ماما والأختين على العربات ونعطيهما جيذا ، ونمشي نحن الاثنين
الى جانبهما • وقد أُرْكَبُك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسامنى
على قدمى ، لأن علينا أن نراعى الحصان وأن نداريه ، والا فستهد قواه
اذا اضطر أن يجبر الأسيرة كلها • سنرحل قريبا • • بهذا وعدته •
تحمس الصبى تحمسا شديدا ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو
أن يقوده وأن يركبه هى التى تلهب حماسه أكثر من أى شئ آخر •
ان الصبيان فى روسيا يولدون فرسانا كما تعلم • وقد نثرنا مدة طويلة
فى ذلك المساء • قلت لى : « الحمد لله على أنه استرد طمأنينته وهدأت
نفسه ، وسررت عنه • • حدث هذا فى مساء أمس الأول • ولكن كل
شئ تغير أمس من جديد • لقد عاد من المدرسة فى الظهر مظلم الوجه
مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى • وفى المساء أسكتته من يده
لنقوم بنزهتنا اليومية • كان مصرا على الصمت فما ينطق بكلمة • الريح
تهب قليلا ، والسحب تغطي الشمس ، والغسق يهبط • ان المرء يحس
قدوم الخريف • كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حزن
دفين • قلت له آملا أن نستأنف حديث الليلة البارحة : « هيه ! يجب
علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرتنا • فلم يجب • ولكنى
شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف فى يدي متشنجة • قلت لى : « حالته
سيئة • • لا شك أن هناك جديدا • • ومضينا الى تلك الصخرة التى
تراها هناك • جلست على الصخرة • كان فى السماء طيارات كثيرة من
طيارات الورق التى يطلقها الأولاد • انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع •
كان فى السماء يومئذ ثلاثون طيارة من هذه الطيارات على الأقل • ذلك
هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء • قلت له : « لقد
آن لنا يا ايلوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طيارة العام الماضى • سوف

أتولى أنا اصلاحها • أين وضعتها ؟ • لم يجب بشيء ، وانما أدار لى
ظهره ناظراً الى جانب • وفجأة هبت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من
غيار ••• فاذا هو يرتمى على • ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى
اليه بجماع قواه • تعلم أن هذا النوع من الاطفال الصموتين المتكبرين
يستطيعون أن يكلموا ألهم وأن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين
ينفجر بكاؤهم أخيراً ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق
عندئذ كالسيول • فما هى الا طرفة عين حتى كان وجهه غارقاً فى هذه
الدموع المنهمرة الحارة • كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعاداً قوياً
من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ويشد جسمه الى • وهو جالس على
الصخرة • قال لى منتحباً : « بابا ! ما أشد ما أذلكت ! » • فأجهشت أبكى
أنا أيضاً • وتماقنا عناقاً شديداً والدموع تهزنا كلينا • فكان ما ينفك
يردد قوله : « بابا ••• حبيبى بابا ! » ، وكنت أجيبه : « بنى ••• بنى
الطيب ايلوشا ! » • لم يرنا أحد فى تلك اللحظة ••• لم يرنا الا الرب
من علياء سمائه ••• الرب الذى قد ينتصف لى • أشكر أخاك يا ألكسى
فيدوروفتش • لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأمرّك
وأرضيك ! •••

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سحريته المرة الحاققة
الوضيعة • ومع ذلك أحس أليوشا أنه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل ،
وأن هذا الرجل ما كان له أن • يتحدث • الى غيره بهذه الطريقة ، وأن
يقص على غيره ما قصّه عليه هو • وسرّ أليوشا من ذلك • كان يرتمش
من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تمسيل •
قال أليوشا :

— أوه ! لشدما أتمنى أن أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيب •••

فدمدم الضابط المتقاعد يقول :

— كما تشاء ... طبعاً ...

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

— يجب علىّ الآن أن أكلمك فى شيء آخر • اصنع الى • ان أخى
ذاك نفسه • ان دمترى ذاك نفسه • قد أهان خطيئته أيضاً • وهى فتاة
نييلة جذاً أغلب ظنى أنك سمعت عنها • ومن حقى أن أكلمك عن الاهانة
التي ألحقها بها • بل ان ذلك واجبى أيضاً • لأن هذه الفتاة • بعد أن علمت
بالاساءة التي نالتك • وبعد أن عرفت الظروف البائسة التي تعيش فيها •
قد كلفتني ... قد عهديت الىّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت منى أن
أقدمها اليك • اعلم أن هذه الفتاة هى التي ترسل اليك المعونة لا أخى
دمترى الذى هجر الفتاة من جهة أخرى ... والمعونة ليست من دمترى
على كل حال • ولا منى أنا أخيه • ولا من شخص آخر • بل منها هى
وحدها • وهى تتوسل اليك أن تقبل معونتها ... ألم يذلكما كليكما
شخص واحد بعينه ؟ ثم انها لم تذكرك الا بعد أن ألحقت بها الاهانة
نفسها التي ألحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) • فهى اذن أخت
تريد أن تساعد أخاها ... لقد كلفتني أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين
من الروبلات • معونة من أخت لأخيها • ولن يعلم أحد بالأمر • ولن
تروج أقاويل شريرة حول هذا الموضوع • اليك المائتى روبل ...
عليك أن تقبلها ... أحلف لك ... والا كان على البشر أن يعدوا
أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة فى هذا العالم •
انها موجودة أيضاً ... ان لك نفساً نييلة ... فلسوف تفهم ... لسوف
تفهم حتماً ! ...

قال أليوشا ذلك ومدّ الى الرجل ورقّتين تقديتين جديديتين كل

الجدة ، كل منهما بمائة روبل • وكانا فى تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد • بدا أن الورقتين التقديتين قد أحدثتا فى نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقا • ارتش فى أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصة • انه لم يحلم بشئ من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهى الحديث بهذه الخاتمة • انه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن أن يهبَّ الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخيم كهذا المبلغ • تناول الورقتين التقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم • وطاف فى وجهه تعبير جديد كل الجدة •

— أهذا لى ، لى أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء !
اتنى لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهى تعطينى هذا المبلغ كما تعطى أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟
هتف أليوشا يقول :

— يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

— قل لى يا صديقى العزيز : أأكون جباناً اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين ؟ لن أكون جباناً ، أليس كذلك ؟ أأكون جباناً فى نظرك ؟ اصغ الىّ يا ألكسى فيدوروفتش ، اصغ الىّ حتى النهاية (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه فى كل لحظة) : انك تشجنى على قبول هذا المال ، لأنه مرسل الىّ من أخت ، ولكن ألن تشعر نحوى باحتقار وازدراء ، فى قرارة نفسك ، سرّاً ، اذا أنا أخذته ؟
قل ...

— يميناً لا ... أحلف لك على هذا أغلظ الأيمان • ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قط الا نحن ، أعنى أنا وأنت وسيدة أخرى هى صديقتها الكبرى ...

- لا تهمنى السيدة • دعنى أقول لك كل شيء • انتى فى لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الإفصاح عن كل ما بنفسى •

ثم أضاف الرجل البائس الذى أخذت تغزوه شيئاً ففسيّ حمامة مضطربة مشوشة توشك أن تكون وحشية :

- انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة الى اليوم •

كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه فقد السيطرة على أفكاره ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يسمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول :

- ان هذا المبلغ ليس مالاّ حلالاً ترسله الىّ • أخت • محترمة مبعجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضاً على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتى الحبيبة ، ملاكى الحدياء ، نينوتشكا التى يمكننى أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسنشتوبه فى ذات يوم ، شهامة منه ونبلًا ، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال • انه لم يفهم من الأمر شيئاً • ، ذكر أن الماء المعدنى (الذى وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية • وقد وصف لها أيضاً حمامات للرجلين بأملّاح طيبة • وسعر الماء المعدنى ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة • لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، واذ كنت لا أستطيع أن أسمح لنفسى بهذا البذخ والترف ، فقد وضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك • وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين فى اليوم ، مرةً فى الصباح ومرة فى المساء • فكيف يكون فى وسعها أن تبغ هذا العلاج فى مسكننا الفقير ، بغير خادم ، بغير أحد •

يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم - لم أذكر لك هذا من قبل - وهى تشعر فى الليل بالآلام شديدة فى كل الجانب الأيسر من جسمها • ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا • ونحن نأكل بقدر ما تتيج له مواردنا الضئيلة أن نأكل ، وذلك يختلف باختلاف الايام • فهل تصدق أنها تختار لنفسها فى كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينها للملائكتين تقولان حينذاك : « أنا لا أستحق حتى هذا • أنا أحرمكم من نصيبكم ، وأنا عبء عليكم جميعا • ونحن نساعدها ماوسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناء فى سبيلها ، وكأنها تقول لنفسها : « أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا خير فيها ولا فائدة منها ، أهى تستحق ؟ هى ؟ مع أنها هى التى تفتدينا عند الرب بطبيعتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح فى بيتنا جحима بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التى تعرف كيف تقولها فى اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت أن تليّن حتى فاريا ! وإياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ! انها هى أيضا ملاك •• هى ضحية ••• مثلنا جميعا ••• لقد وصلت إلينا هذا الصيف وفى جيبيها ستة عشر روبلاً كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى سان بطرسبرج ، التى يجب أن تكون فى شهر ايلول (سبتمبر) ، أى الآن • ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه فى سدّ رمقنا • فبأية وسيلة يمكنها أن تعود الآن الى سان بطرسبرج لاتمام دراستها ؟ هأنت ذا عرفت كيف تجرى أمورنا • ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل فى خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة ، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ،

وتنظف الارض ، وتترقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات وبدوات ،
تبكى لأيسر سبب ، تبكى لغير سبب ، فهى مجنونة ... هى مجنونة ،
الأم العزيزة ! وهأنذا سأستطيع بهذه الروبيلات المائتين أن أستخدم خادما
... هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أدارى المريضين
العزيزتين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى سان بطرسبرج ،
وسوف أشتري لحماً ، فأحسن ما نصيبه عادة من طعام • آه • • • يارب
السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أيلوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا
الفرح كله ، وهأنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة •
ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة فأوقدت فى نفسه حماسة
جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة بجاشة :

- لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخرى ! هل تعلم أنتى
أملك الآن أن أحقق أمنية ايلوشا وأن أفى بوعدى له ؟ لسوف تشتري
حصانا وعربة كارية • وسيكون الحصان أكحل • ان ايلوشا يصرُّ على
هذا اللون • وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الاول • انتى أعرف
فى مدينة ذلك محاميا هو من أصدقاء الطفولة • وقد علمت من شخص
موثوق به أن صديقى هذا سيعيننى كاتباً فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك
المدينة • من يدري ؟ قد يستخدمنى فعلا ! سأقعد الأم اذن على العربة ،
وسأقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايلوشا بزمام الحصان فيجره ،
وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة • وهكنا نرحل جميعا ! يا رب
السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترده ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به
أحدهم هنا ، اذن للملك من المال ما يكفينى لهذه الرحلة !

صاح أيلوشا يقول :

— ستملك ما أنت فى حاجة اليه ! مترسل اليك كاترين ايفانوفنا
من المال كل ما ستحتاج اليه • وأنا أيضا عندى بعض المال ، هل تعلم
ذلك ؟ خذ منى ما أنت فى حاجة اليه ، خذ منى كما يأخذ أخ من أخيه ،
كما يأخذ صديق من صديقه • وسترده الىّ فى المستقبل (ذلك انك
ستقتنى ، هذا مؤكد) • صدقتى اذا قلت لك ان فكرة السفر الى اقليم
آخر هى خير فكرة يمكن تخيلها • ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنك
خاصة • وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شئ • سافر قبل حلول الشتاء ،
سافر قبل اشتداد البرد • وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة • ليس
هذا حلمًا ، ليس هذا حلمًا البتة !

ودَّ أليوشا لو يقبله وهو فى غمرة الفرح هذه • ولكنه أمسك فجأة
حين نظر اليه • لقد مدَّ الرجل عنقه ، وقدَّم فمه ، شاحب اللون منقلب
السحنة • ان شفثيه تخطلجان ، كأنما هو يهمس بشئ أو يحاول أن
يتكلم • ولكن لم يخرج من فمه أى صوت ، وظل يحرك شفثيه صامتة
منظر غريب مقلق •

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدري لماذا ؟ :

— ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة
غريبة شاردة ، وقد بدا كأنسان يهم أن يهوى فى فراغ ، بينما شفثاه
تصطنعان ابتسامة :

— ألكسى فيدوروفتش •• انتهى •• أ •• نعم •• انتهى أ •••

ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلمهجة جازمة ليس فيها الآن
شئ من تقطع :

- هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتي ؟
- براعة ؟

- نعم ، براعة من نوع براعة الحواة !
كذلك أجاب الضابط المتقاعد فى همس أيضا •
فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :
- ولكن ماذا بك ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :
- نعم •• هى براعة •• أنظر •

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث
يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمينه ، ثم اذا هو يقبض
عليهما فما يزال يدعكهما فى قبضة يده بمنف وقوة حتى سحقهما سحقا
وقد أخذ منه الحقن كل مأخذ •

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

- فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحب الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين
المسحوقتين على الرمل •

وعاد يعول من جديد قائلاً وهو يشير اليهما باصبعه :

- هل تراهما ؟ اليك هما ! ••

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحقن مسرور وحشى ، وهو
يصرخ بصوت لاهت بعد كل دومة عليهما :

- أنظر ماذا أقفل بمالك ، أنظر ماذا أقفل به ! انظر اليهما ،
ورقتيك •••

ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا
مشدود الجسم منتصب القامة • كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء
لا تطلب •

وهنف يقول وهو يمد ذراعه :

— قل للذين أرسلوك ان ليفة الحمام لا تباع شرفها !

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا • ولكنه ما ان قطع خمس خطوات
حتى التفت نحو أليوشا ، وحرك له يده مودعا • ثم ما ان قطع خمس
خطوات أخرى حتى توقف ملتفتا نحو أليوشا مرة ثانية • كانت الابتسامة
الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع • وبصوت مختلج
تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن
يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

— ماذا كان يمكنني أن أقول لابني لو قبلت مالكم ثمنا لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى • تابعه
أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق • وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم
يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين
وأنه سيرميها • انه الآن يركض ، ولن يرجع • ذلك أمر كان منه أليوشا
على يقين • ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجري وراءه ليدركه ،
لأنه أحس أن عليه أن لا يفعل ذلك • حتى اذا غاب الرجل عن بصره ،
تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين في الرمل ،
ولكن دون أن يصيبهما أى تمزق ، وأخذ يسطهما فيسمع قرعتهما بين
أصابعه كأنهما جديدتان • حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دك ، عاد
فطواهما ودسهما في جيبه • ثم سار في طريقه ليلعب كاترين ايغانوفنا
ثمرة مساء في انفاذ ما عهده اليه بانفاذه •

حواش

الصفحة

- ١٢ * « الحق الحق أقول لكم ٠٠٠ » : يرى بعضهم أن تصدير دوستوفسكى كتابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستوفسكى بأن النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبحث بحثا جديدا الا بعد أن تجتاز أزمة عميقة .
- ١٩ * ان اسم كارامازوف ، كغيره من أسماء بعض الأسر النبيلة ، يرجع الى أصل تترى . ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستوفسكى هذا الاسم لأبطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (أبريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف . ويقال ان دوستوفسكى قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه . ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا .
- ١٩ * «وقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ٠٠٠» يشير النقاد الى أن معنى ذلك أن دوستوفسكى يضع أحداث رواية « الاخوة كارامازوف » فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قد أخطأ فى الحساب حين أشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩
- ٢٧ * « ميتيا » تصغير اسم دمترى ، تحببا
- ٢٨ * بيير - جوزيف برودون (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وميشيل باكوني (١٨١٤ - ١٨٧٦) : من أقطاب حركة « المذهب القوضوى » منذ ١٨٤٠
- ٢٨ * « الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ » : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى أدت الى تنازل لويس فيليب عن العرش .

- ٢٨ ★ يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر في ذلك العصر «بألف نفس» :
ألف نفس ، أى ألف قن ، وهذا يدعو الى افتراض أن الاراضى
المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار .
- ٣٥ ★ « كليكوشى » : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسى ومعناه
صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتى يأخذن
فى صراخ كان بهن مسا من جن .
- ٤٠ ★ « لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكلىركى » : ان مسألة المحاكم
الاكلىركية (التى كانت تفصل فى شئون الطلاق خاصة) ترتبط
باصلاح المحاكم المدنية سنة ١٨٦٤ ، وقد نوقشت فى الصحافة
مناقشة حادة فى ذلك العهد .
- ٤٤ ★ « الشيخ » : بالروسية « ستارتس » ، وهو اسم يطلق تعظيما
وتبجيلا على الرهبان الطاعنين فى السن . اما العجوز العادى
فاسمه بالروسية « ستاريك » .
- ٥٤ ★ « الشيخ زوسىما » : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ
أمقروسى الذى زاره دوستوفسكى فى أوبتىنا سنة ١٨٧٨ ،
ولكن دوستوفسكى قد استوحى أيضا كتابا بعنوان : « حياة
الشيخ الراهب زوسىما وأعماله المجيدة » ، وقد نشر هذا الكتاب
فى موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ - ١٨٣٥) هو
ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوى ، وقد كان
فى شبابه ضابطا فى حرس كاترين الثانية ، ثم ترهب وأصبح
شيخا يعيش حياة نيك قاسية . وقد جمع أحد مريديه أقواله
وهو اعطاه ونشرها ، فاستخدمها دوستوفسكى فى اعداد الباب
السادس من روايته « الاخوة كارامازوف » .
- ٥٦ ★ « رأيت طيف حوذى ٠٠٠ » : عرض بتصرف لمقطع من
النشيد الرابع من « الانياذة المزورة » (التى تصف الجحيم) ،
وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو .
- ٥٩ ★ « أعلن الرسول توما ٠٠٠ » : ان ما يذكر عن هذا الرسول من

عدم تسرعه فى التصديق قد أشير اليه فى انجيل يوحنا
(الاصحاح العشرين ، ٢٤ - ٢٩) .

٦٢ * بائيسى فيليتشكوفسكى (١٧٢٢ - ١٧٩٤) : ناسك يرجع
أصله الى روسيا الصغرى ، كان راهباً فى جبل آئوس ،
وفالاشيا ، ومولدافيا ، وهو الذى أدخل نظام « المشايخ » الى
روسيا ، ترجم كتب اسحاق السورى وتيودور ستوديت . وقد
نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧

٦٣ * كوزلسكايا أوبيتينا (بوستين) ، منسك أوبتا : دير يقع قرب
كوزلسك فى مقاطعة كالوجا ، أنشأه رجل من قطاع الطرق
تائب ، اسمه أوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير فى القرن التاسع
عشر بتقوى رهبانه . وزاره دوستويفسكى فى شهر حزيران
(يونيه) سنة ١٨٧٨ بصحبة الفيلسوف الشاب فلاديمير
سولوفييف (١٨٥٣ - ١٩٠٠) بعد موت ابنه اليوشا . وكان
فى هذا الدير الشيخ أمفروسي ، الذى اتخذه دوستويفسكى
نموذجاً للشيخ زوسيم فى هذه الرواية .

٦٤ * « راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عصرنا ... » .
هو الراهب بارتين نيبوزا (١٦٤٨ - ١٧٠٤) الذى قضى حياته
فى الدير بتركيا وفلسطين ، ثم أصبح أسقف هولجورى ،
ومات فى روسيا . كان دوستويفسكى مطلعاً على حجات هذا
الراهب الى الشرق .

٧٢ * يطلق على كبير الرهبان أو رئيس الدير فى الكنيسة الارثوذكسية
اسم « ايجومين » ، والكلمة يونانية .

٨١ * «فون سون» موظف مسن قتل وسرق ماله سنة ١٨٦٩ فى ماخور
بموسكو ، ووضعت جثته فى صندوق وأرسل الصندوق الى
سان بطرسبرج بالقطار .

٨٢ * « لكل دير قواعد ... » : هناك مثل روسى يقول : « لا تذهب
الى دير أجنبى لتفرض عليه قواعدك أنت » .

٨٧ * « يرجع تاريخها الى عهد سابق على الانشقاق » : أى الى سنة
١٦٦٠ ، حين حدث انشقاق « قدامى المؤمنين » فى روسيا .

٨٩ * « هلا تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك ٠٠ »:

ها هنا لعب لعظى على كلمتى ايسبرافنك ونابرافنك ، فأما كلمة ايسبرافنك التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل ايسبرافت ومعناه أدب أو عاقب ، وأما نابرافنك فهو اسم ادوار نابرافنك (١٨٣٩ - ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو من أصل تشيكي ، وقد شاعت المصادفة أن يكون اسمه هذا مشتقا من فعل نابرافيتى ومعناه : وجه ، أدار ، أصلح .

٩١ * الفيلسوف الشهير دينيس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) ، دعته

كاترين الثانية الى سان بطرسبرج سنة ١٧٧٣ ، وقد ركب الناس هذه النادرة عن محاورته مع ذلك الواعظ الممتاز أفلاطون لفشين (١٧٣٧ - ١٨١٢) ، الذى كان مربى الدوق الاكبر ولى العهد بافل ، ثم أصبح رئيس أساقفة موسكو .

٩١ * الاميرة كاترين داخكوبا (١٧٤٣ - ١٨١٠) لعبت دورا كبيرا

فى الفتنة التى أوصلت كاترين الثانية الى العرش سنة ١٧٦٢ ، وهى امرأة مثقفة ثقافة واسعة ، وقد كانت فى وقت من الاوقات رئيسة الاكاديمية الروسية للآداب .

٩٥ * « بورك البطن الذى حملك ، وبورك الثديان اللذان أرضعاك »:

كلام قالت له امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) .

٩٨ * هل صحيح ٠٠ ان كتاب أسماء الشهداء ٠٠ يروى ٠٠٠ قصة

قديس ٠٠ قطعوا رأسه ٠٠ فتناوله من الارض ٠٠ : هذه القصة لا وجود لها فى كتاب الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن شهيد سان دينيس اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا:

١٠٧ * ناتاسيوشكا : تصغير اسم ناستازيا ، ويستعمل تحببا .

١٠٧ * « ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر » : فى هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى . وقد كتبت أرملة دوستويفسكى تقول : « هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا اليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر . ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية » .

١٠٧ * نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا .

١١٠ * « هذه راشيل . . . تبكى صفارها . . . » : تروى زوجة دوستويفسكى أن هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ أمفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه .

١١٢ * « سأذكره فى صلواتى » : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى أقوال الشيخ هذه حين عاد من أوبتيينا بعد حديثه مع أمفروسى ووصفه له مدى ما نعانیه من لوعة لموت ابننا .

١١٥ * النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : « أقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » .

١٢٢ * « أوبدورسك » : مدينة صغيرة فى أقصى شمال سيبيريا الغربية، بين الأورال والمحيط المتجمد .

١٣٤ * « كان أحد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسألة » : ان أستاذنا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتابا عنوانه : « بحث فى الاسس العلمية للقضاء الاكليريكى » ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب .

١٣٥ * « ولكن هذا ليس الا عقيدة مما وراء الجبال » : المقصود بما وراء الجبال هو ايطاليا ، والكلام ينطبق على العقيدة اللاهوتية التى تتفق ودعاوى بابا روما . وهكذا تفهم النكتة التى ترد فى الحوار بعد ذلك « — نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال » .

- ١٤٦ ★ كان البابا جريجوار السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) أكبر ممثل لفكرة الحكم القائم على السلطة الدينية ، وقد خاصم الامبراطور هنرى الرابع وغلبه .
- ١٥٠ ★ « باتيوشكا » : بهذا اللقب ينادى رب الأسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة .
- ١٥٦ ★ « تعرف هذين البطلين من أبطال قصة شيللر ٠٠٠ » : فى هذه الدراما التى كتبها شيللر سنة ١٧٨١ ، أخرج المؤلف على المسرح اخوين متنافسين هما ابنا الكونت دى مور . فأما الاول وهو كارل مور فيتزأس عصابة من قطاع الطرق ، وأما الثانى وهو فرانتس مور فيهىء مقتل أبيه .
- ١٦٤ ★ « المسيح نفسه غفر للمرأة التى أحبت » : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة « من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها لانها أحبت كثيرا » (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) .
- ١٧٦ ★ « جروشنيكا » : لقب ملاطفة ، ومن عجب أن يشتق من اسم اجرافين تصغيرا .
- ١٧٧ ★ « ان شاعرنا بوشكين ٠٠٠ قد مجد ساقياها الصغيرتين فى شعره : ذلك فى الفقرتين ٣٠ ، ٣٤ من النشيد الاول من قصة بوشكين « أوجين أونيجين » .
- ١٨٠ ★ « كاتنكا » : تصغير اسم كاتيا (كاترين) توددا وملاطفة .
- ١٨٨ ★ كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم أبدا .
- ١٩٦ ★ « ملة الخلستيس » : ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وكان لها انبيأؤها واجتماعاتها التى تتسم برقص محموم وأعمال خليعة .
- ١٩٨ ★ « قبله على الشفتين وطعنة فى القلب » : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر « قطاع الطرق » .

- ١٩٨ * أحسن متجر لبيع المواد الغذائية في سان بطرسبرج .
- ٢٠١ * « فانيا » : تصغير اسم ايفان
- ٢١١ * « اسحاق السورى » : ناسك من القرن السابع نشرت ، مجموعة من مواعظه سنة ١٨٥٨ في موسكو . وقد ضمت مكتبة دوستوفسكى هذا الكتاب .
- ٢١٢ * « اليزابت سمردياستشايا » : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى أخو دوستوفسكى الاصح (وهو آندره دوستوفسكى) في مذكراته التي نشرت سنة ١٩٣٠ أن امرأة معتوهه اسمها أجرافين كانت تسكن في أراضى أبيهما أيام شبابهما : « كان عمرها ٢٠ - ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فإذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فإذا سمع السامع ما تقول فهم أنها تتذكر ابنها المدفون في المقبرة . ويظهر أنها كانت معتوه منذ ولادتها ، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات في سن مبكرة . فحين قرأت قصة اليزابت في رواية الإخوة كارامازوف تذكرت تلك المرأة المعتوهه أجرافين » .
- ٢١٤ * « يوروديعايا » : اسم يطلقه الشعب على بعض ضعاف العقول ممن يعدون « مجذوبين الى الله » .
- ٢٢٤ * « ان مدينتنا مبعثرة جدا . . . » . ان دوستوفسكى يسمى هذه المدينة في روايته بهذا الاسم الساخر : سكوتوبريجونيفسك المنحوت من كلمتين (قاد - بهائم) . وفي المسودات يسميها توبولسك ، وفي رأى زوجة دوستوفسكى أنه وصف سترايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوداعة ، بأقنيتها ، وحفرها وحدايقها ذات الاسيجة الخشبية .
- ٢٢٧ * هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشداهما مرة أخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .
- ٢٢٨ * « اكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم ، فلا تسمع لها أبدا وبدد

كل أوهاماك » : بيتان من قصيدة للشاعر نكراسوف ، نشرت
سنة ١٨٤٦ ، وفيها يخاطب الشاعر فتاة ضائعة يريد اصلاحها
وبعثها بحبه . وقد استشهد المؤلف بأبيات من هذه القصيدة
فى غير هذه الرواية (قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها ، و « فى
قبوى ») .

٢٣١ ★ « كن نبيلًا يا أيها الانسان » : مطلع قصيدة للشاعر جوته
عنوانها : « الالهى » ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣

٢٣٢ ★ « سيلين ذو الوجه المزهى » : من قصيدة للشاعر شيللر عنوانها .
« آلهة اليونان » ، فى ترجمة قام بها ليخاتشيف ، وهنا يتلاعب
دمترى بالالفاظ مستغلا الجنس بين كلمة سيلين ، وكلمة سيلون
(ومعناها قوى) .

٢٣٣ ★ « سكان الكهوف الخائفون الوجولون » : ان دمترى لا يتلو هنا
نشيد الفرح بل قصيدة أخرى للشاعر شيللر هى « عيد
ايليثوزيس » (١٧٩٨) فى ترجمة روسية قام بها ف . آ .
جوكوفسكى (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٧) .

٢٣٥ ★ « روح العالم التى خلقها الله » : هاتان هما الفقرتان الثالثة
والرابعة من قصيدة شيللر الشهيرة « الى الفرح » ، فى الترجمة
الروسية التى قام بها ف . آ . تيوتشيف ، وقد استخدم بنهوفن
هذه الابيات لخاتمة سمفونيته التاسعة .

٣٧٠ ★ « الكولبياكا » : فطائر بالسّمك .

٢٧١ ★ « حمارة بلعام » : ان الاتان التى ركبها الرسول بلعام قد نظقت
فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من
٢٣ الى ٣٠) .

٢٧٣ ★ « سهوات فى المزرعة قرب ديكانكا » : مجموعة اقاصيص خيالية
رومانسية كتبها نيقولا جوجول (١٨٣٢) .

٢٧٤ ★ « التاريخ العام » من تأليف سماراجدوف : هو موجز فى التاريخ
للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٥٤

٢٧٦ ★ « ثلاث أوراق نقدية ملونة » : هما أوراق نقدية من فئة المائة روبل .

٢٧٧ ★ « هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى » : هو ايفان كرامسكوى (١٨٣٧ - ١٨٨٧) ، زعيم الحركة الواقعية فى ذلك العصر ، وقد رسم وجوه تولستوى ونكراسوف وغيرهما فى لوحات رائعة .

٢٨٦ ★ « جاء فى الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق » : تحرير لما ورد فى الاناجيل : « الحق أقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شئ غير ممكن لديكم » (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، ٢٠) .

٢٩٢ ★ « ولكن الفلاحين مستمرين على جلد أنفسهم بأنفسهم » : ان الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ قد ألغى العقوبات الجسدية فى محاكم الدولة ، ولكنه تسامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .

٢٩٧ ★ ليس المقصود هنا الشاعر الانجليزى بايرون ، بل الشاعر الهجاء الكسى ييرون (١٦٨٩ - ١٧٧٣) .

٢٩٧ ★ « آربنين » : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة « بطل من زماننا » ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها « التنكر » ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .

٣٠٦ ★ « فانيا ، ليوشا » : تصغير اسمى ايفان واليوشا .

٣٠٨ ★ « لا تقل لايزوب كلمة واحدة » : ان دمتري يسمى أباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف

أن هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وأنه كان دميم الوجه عى اللسان
أحذب .

٣٦٠ * « ايكايرنبورج » : مدينة فى منطقة المناجم من الاورال ، على
طريق سيبيريا . وتسمى الآن سفردلوفسك .

٣٧٨ * « ميتكا » : تصغير تحقيرى لاسم ميتيا (دمترى) .

٣٨٠ * « جروشكا » : تصغير تحقيرى لاسم جروشكا (أجرافين) .

٣٨٢ * « فانكا » تصغير تحقيرى لاسم فانيا (ايفان) .

٣٨٨ * « أبدي اليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية » :
روت أرملة دوستويفسكى أن هذه الطريقة هى التى كان يستعملها
زوجها فى مخاطبة أطفال لا يعرفهم .

٤٢٤ * « بالشكر ياسيدتى لا احفل » : آخر بيت من قصيدة شيللر
« القفاز » (١٧٩٧) . ان كاترين قد عذبت ايفان كثيرا وسببت
له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها
دولورج .

٤٣٨ * « الرائد سينيجيريف - س » : يشير سينيجيريف هنا ، باستعمال
حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن . فهكذا
يتكلم الحقراء امام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى أواخر
الكلمات .

٤٤٢ * « ايلبوشا » : تصغير اسم ايليا ، تحببا .

٤٤٥ * « ليس فى الطبيعة كلها ما يرضيها » : استشهاد بقصيدة
ليرمونتوف التى عنوانها «الشیطان» . وهاهنا تحريف ، فالنص
الأصلى لهذا البيت يجب أن يكون هكذا : « لا تريد أن تبارك
شيئا فى الطبيعة بأسرها » .

٤٤٥ * « تشرنومازوف » : لعب لفظى على اسم كارامازوف الذى يعنى
نصفه (كارا) : أسود (تشرنى) فيكون معنى تشرنومازوف :
«المسود» أو «الملطخ بالسواد» .

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥
الاهداء	١١
الى القارىء	١٣
الجزء الاول	١٧
الباب الاول (قصة أسرة صغيرة طيبة)	١٩
١ - فيدور بافلوفتش كارامازوف	١٩
٢ - كيف تخلص من ابنه الاول	٢٧
٣ - الزواج الثانى وابنا الفراش الثانى	٣٣
٤ - اليوشا الابن الثالث	٤٤
٥ - مشايخ الرهبان	٥٨
الباب الثانى (اجتماع فى غير محله)	٧٥
١ - الوصول الى الدير	٧٥
٢ - المهرج العريق	٨٥
٣ - ايمان نساء الشعب	١٠٢
٤ - السيدة الضعيف ايمانها	١١٨
٥ - لتكن مشيئة الرب	١٣٢
٦ - لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل	١٤٩
٧ - طالب اللاهوت	١٧٠
٨ - فضيحة	١٨٧

الباب الثالث (الشهوانيون) ٢٠٣

- ١ - في الخدمة ٢٠٣
- ٢ - اليزابت سمردياستشايا ٢١٣
- ٣ - اعتراف قلب حار « شعرا » ٢٢١
- ٤ - اعتراف قلب حار « نثرا » ٢٣٧
- ٥ - اعتراف قلب حار « والقدمان في الفضاء » ٢٥٢
- ٦ - سمردياكوف ٢٦٨
- ٧ - مجادلة ٢٧٩
- ٨ - أثناء شرب الكونياك ٢٩٠
- ٩ - الشهوانيون ٣٠٥
- ١٠ - المراتان كلتاهما ٣١٦
- ١١ - أخرى تعرض نفسها للضياع ٣٣٨

الجزء الثاني ٣٥٣

الباب الرابع (التمزقات) ٣٥٥

- ١ - الأب تيرابونت ٣٥٥
- ٢ - في منزل الأب ٣٧٦
- ٣ - لقاء مع تلامذة ٣٨٦
- ٤ - في منزل أسرة هوخلاكوف ٣٩٦
- ٥ - التمزق في الصالون ٤١٠
- ٦ - التمزق في الخربة ٤٣٢
- ٧ - وفي الهواء الطلق ٤٥٠
- حواش ٤٦٩

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين " فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشهر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وأدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."
ألكسندر في سربرفيف